نحن الشجاعات

نروي حكاياتنا

مجموعة
قصصية

نحن الشجاعات

نروي حكاياتنا

نحن الشجاعات

نروي حكاياتنا

/ تدريب وتحرير:

- الكاتبة نجاة عبد الصمد
- الكاتبة ربا رحمة

/ تصميم: هاني المحمد

طبعت المجموعة القصصية تحت إشراف مؤسسة ريليزمي
(Release Me)
جميع الحقوق محفوظة لمؤسسة ريليزمي ©

تقديم

الكاتبة نجاة عبد الصمد

لقرابة عام، التقى فريقنا نساءً سوريّات في ورشة تدريبٍ على الكتابة الإبداعية..

في جلستنا الأولى أفصحتْ وجوههنّ عن أثقال الصدور، ورويداً صرنا نتخفّف من الحواجز، لم نعد نخجل من ضعفنا ولا من وطأة المشاعر..

بدأت النساء باستحضار محطاتٍ كانت الأكثر وجعاً في سيرة حربنا الطويلة، وأحبّةٍ فقدنهنّ بكل أسباب الموت، ثم اقتلاعهنّ بالتهجير من أرضهنّ الأولى.. كنّ يلتقين ويسردن ويتقاسمن كأس الشاي كما الاستذكار والسؤال والنقاش والدموع، ومن جلسةٍ إلى جلسة، تنقص الدموع وتولد الضحكات. بعد أهوال ما مضى، أصبحن يدركن النعمة الكبرى، نعمة الحياة، وقد عجنتهن التجربة المرّة وصاغتهن نساءً أقوى مما كنّ عليه.

لكلّ امرأةٍ حكايتها الفريدة. والحقيقة، كل الحقيقة في الأدب. هنا قصصٌ مكتوبةٌ بطعم الواقع وقوّة الأمل..

هنا تفاصيل ذواتٍ إنسانية، توقف يا قارئ، يا قارئة، أنصتْ إلى كلّ صوتٍ بشريٍّ خافت، فالحرب التي مّرتْ أخبارها على الشاشات أرقاماً لآلاف، مئات آلافٍ من الضحايا، كانت تقتلهم للمرة الثانية باعتبارهم مجرد أرقام، ولا تشير دوماً إلى القاتل بينما نساؤنا يعرفنه!

كتبتْ نساؤنا بحبر القلوب؛ ماذا جرى وكيف نهضن من الموات، وكم هي غاليةٌ

كرامة الإنسان، وما أغلى الأحبّة الراحلين. كانوا جميلين يخوضون غمار الحياة، وأصبحوا شهداء، وحقّ الشهيد علينا أن نحفظ ذكراه ولو ببضعة سطورٍ في كتاب..

تحية لنسائنا الشجاعات، فلا أقدر منهن على روي حكاياتهن بأنفسهن!

وأنا، محررة هذا الكتاب، لربما أنجزتُ في حياتي خطوةً أو خطواتٍ في الطب والأدب، لكنّ عملي مع هؤلاء النساء سوف يبقى أبداً شامة فخري.

الكاتبة ربا علي رحمة

في هذا الكتاب، وبين سطور القصص التي شاركتني بها المشاركات الكريمات، ستجدون الأمل الممتزج بالحزن، ودفء الصبر في مواجهة فقدان موجع.

لكل واحدة من هذه القصص مشاعر وأحداث مختلفة، لكنها تتلاقى في الإرادة الصلبة التي أبقت على جذوة الحياة مشتعلة. لم يسمح اليأس لهنّ أن يصبحن أطيافًا خامدة، بل كنّ شعلاً للنضال من أجل عائلاتهن، ولأجل أحلام صغيرة تشبثن بها وسط عواصف الفقد والتشرد.

مع كلماتهن، شعرت أنني عُدت إلى الشام، تلك التي تسكن أعماقي رغم أنني أعيش في فضاء الاغتراب. هنا، حيث يغيب الأهل والأحبة، وحيث الجدران الصامتة تخنق الروح التي كانت يومًا تضج بالحياة. هنا، في ما يسمونه «جنة أوروبا»، افتقدت جمعة العائلة حول صوبية المازوت، ورائحة الخبز المحمص عند انقطاع الكهرباء، أفتقد كل تلك التفاصيل البسيطة التي كانت يومًا دليلاً على حياة حقيقية.

لم تكن هذه القصص مجرد حكايات عابرة؛ كانت بوابات إلى ذكريات صغيرة

توقظ بداخلي تلك التفاصيل التي نسيتها أو حاولت نسيانها. أعادتني كل قصة إلى حارة بيتنا البسيط، وإلى ما سرقته الحرب من ملامحنا.

ورغم المسافات، استطعت خلال الأيام التي قضيتها معهن عبر شاشة «زوم» أن ألمس دفء الأماكن التي نشأت فيها. كانت كلماتهن بمثابة تذكرة عودة دون طائرة، تعيدني إلى الشام التي لطالما احتضنت طفولتي.

لهن جميعًا، أوجه شكري العميق، ولصديقتي العزيزة ثريا التي منحتني فرصة العودة إلى جذوري، عبر ورشة عمل الكتابة الإبداعية التي استمرت قرابة عام، وكان لي فيها شرف المساهمة في إنتاج هذا الكتاب الذي بين أيديكم الآن.

حين تقرؤون هذه الصفحات، اعرفوا أنها لم تُكتب بالكلمات فقط، بل بنبض ذكرياتهن، ودموعهن التي اختلطت بلحظات أمل وضحكات بسيطة، ناضلن بها ليحولن الألم إلى حياة، ولتكون هذه الحكايات شهادة على صمود يتحدى المسافات ويقاوم النسيان.

القصص:

1 أنا وريمي 8
هزار بنيان

2 خيوط الحرب 28
يسرى حيدر

3 حكاية فنّ، أتقاسمها مع دمشق 40
راما تباب

4 صوت الموت 52
سماهر دياب

5 حروبٌ وحب 60
زينب حنّا

6 عسل الكسل 72
روز عبد القادر

7 كيماويّ 80
بشرى نعمان

8 نيرانٌ لم تحرق 92
رندة عثمان عبد الله

9 زهرتي الوحيدة 100
فريال

10 نجونا بأعجوبة 106
دلال الحراكي

11 غربة الروح 118
شورشفانة معمو

12 بروح طفلة 132
أريج بنيان

13 الشهيد الخطأ 150
أميرة الخضر

14 القدر 160
صفّة طنطاوي

15 زينة صاحبة القلب الطيب 168
زينب سيدي

16 أبي نجمةٌ في سمائي 174
غريبة اسماعيل

17 زهرة الأوركيد 182
أميرة عيّاش

18 سالي بين الماضي والحاضر 194
ميس العمري

19 ويبقى الأمل 202
ضحى ضبيط

20 الساعة الخامسة والنصف 212
بتول حزرومة

21 عندما يزهر العمر قسراً 220
شذى بنيان

1

أنا وريمي

هزار بنيان

أنا هـزار.. روتْ لـي ريمـي كيف كان كل أهـل ضيعتها حزانى حين نزحـوا، غادروا منازلهـم إلـى مسـتقبلٍ مجهـول، إلاّ وجههـا هـي، لـمْ تفارقـه الابتسـامة! حيـن سـمعتْ والدها يقول إنهم سـينتقلون إلى قرية عمّتها، أي إلينا، جمعتْ ألعابها وهتفـت: «يـا سلام ...ياسلام، بيت عمّتي، سـأمَرح ونتسـلى كثيراً مـع أولادها»!

كيف لعقل طفل أن يستوعب ما هي الحرب؟! إنما يبحث الأطفال عن السّعادة دوماً، وسط شقاء الكبار.

ريمـي صديقتـي، وربمـا أكثر، فأنـا أحبها جداً، هذه البنت كائـنٌ مرِحٌ ولطيفٌ في حياتـي. تحتـوي ضعفـي وتزيـح خوفـي، وتـزرع الابتسـامة على وجهي، وتمسـك بيدي لنقطع إلى برّ الأمان، كأنها امرأةٌ ناضجة. منذ صغرنا، يجمعنا حبّ أشـياء كثيرة؛ السّماء، الغيوم، عطرُ رائحة الْمطر. وهي تكره العتمة كما كرهتها دوماً.

قضينا أيامًا جميلةً، أذكر كيف كانت أمي توبّخنا حين نأكل بطريقةٍ غير مألوفة، جربنا اللبنّة مع المربىّ، وأحياناً مع الزّعتر، والزّيتون مع الحلاوة، ولم تكن هذه الطعوم الخليطة هي الألذّ، كنّا نجرّبها لنكتشف وحسب. كنا مختلفتين عن الجميع، لا نحب تقليد أحد، ولا السير في طريقٍ سلكه غيرنا، نعشق السير والتجريب والاكتشاف، وتضحكهم تصرفاتنا أو يرونها غريبةً ويوبخوننا ونضحك ولا نكترث.

وصلت ريمي إلى قريتي الهادئة والآمنة، البعيدةِ عن أهوال الحرب. رحنا إلى بيت جدّي. أحبتْهما ريمي كأنهما جدّاها هي، لكنها لم تحبْ منزلهما، جدرانه متعبة وأشجاره مصفرّة، كأنها تروي قصة جديّ المسنَّين. ربما يشيخ المنزل حين يشيخ صاحبه.

«إنني خائفة»، كانت تقول دوماً عندما ندخله، وتهرع إلى إمساك يدي. ولم يكن بيت جدي مخيفاً لي مثلما هو لها، فقد اعتدتُ عليه منذ الصّغر، على القطط الكثيرة تتجوّل في أرضه الواسعة، على الحمام يطير حرّاً في سمائه. وما بين أرضه وسمائه، وعلى وسع هذا البيت، عشتُ أكثر اللحظات دفئاً، ومنها نسجتُ أجمل ذكرياتي. هذا البيت الذي سيصبح بعد حينٍ مهجورا..

لن أترك ريمي خائفة، أمسكتُ بيدها في جولتنا، نجوب أرجاء المنزل لتكتشف ريمي جماله. نجلس على حافّة الدرج المتعرّج، نرفع عيوننا إلى السماء، نتأمّل غيومها الكثيرة، ثم تنحدر عيناي إلى شجرة التين الكبيرة، وثمارها الناضجة. أبتسم بمكر، أقول لنفسي: سأخوض مع ريمي مغامرةً جميلة..

«ريمي انظري كم تبدو الثمار لذيذةً وجاهزةً للقطف. هل تودين تسلق الشجرة معي؟»

«لكنني لم أتسلق شجرة من قبل. أخاف أن أسقط..»

«وهل تخافين وأنا معك؟!، هيا سأساعدك. التين لذيذ، ويستحق المحاولة»

بدأتْ تتسلّق خلفي بحذر، وأنا أشرح لها كيف تمسك الأغصان بثبات. كانت تتنفس بسرعة، وتتوقف لتنظر حولها. وعلى وجهها رهبةٌ وإثارة. حين وصلنا إلى الأعالي، أقرب إلى السماء، لمعت عيناها فرحاً.

قطع نداءُ أمي متعتنا العظيمة: «هزار، انزلي أنت وريمي عن الشجرة وتعالي، والدك على الهاتف..»

نزلتُ مستاءة، أقول في نفسي: ماذا سيقول لي؟ لا شيء مختلف.. سيسألني كالعادة عن صلاتي وكم حفظتُ من القرآن وينتهي الاتصال. تمنّيتُ لو يسألني عن طعامي المفضّل، وعن مدرستي ودراستي، وعن شعوري عندما يصرخ أعمامي في وجهي!

«نعم يا أبي أنا أصلي وأقرأ القرآن.. أبي، أبي متى ستعود»؟!

طوط طوط.. قُطِع الاتصال قبل أن يجيب..

تطلّعتُ إلى أمي: «لماذا ثيابنا على الأرض؟»

«كما ترين، أرتّبها في الحقيبة»

«لماذا؟ هل نحن ذاهبون في رحلة؟ يا سلام!! رحلة.. سأذهب وأخبر ريمي إذاً..»

«هسّس.. اخفضي صوتك، ليست رحلة، سنذهب إلى والدك، وتبقى ريمي مع أهلها..»

«وهل من الضروري أن نذهب إلى والدي؟ أووف.. أريد اللعب مع ريمي، ربما

لـن أجد هناك مَن ألعب معه»

وإن كنتُ دائماً أنتظر إشراقة الصباح، إلا أنني تمنيت ذلك اليوم أن يطول الليل ويطول، ويتأخّر موعدُ الرحيل.

بدأوا يضعون الحقائب في سيارة صفراء، وجهُ سائقها شاحب. ربما هو مثلي لا يريد هذا السفر، بينما لا يخفى الفرح على وجه أمي لأنها ستلقى أبي.

«هزار، هيا اصعدي السيارة ولا تؤخّرينا»!

«نعم يا أمي، دعيني فقط أودّع حبيبتي ريمي..»

ركضت مسرعة، أبحث بعينيّ عن صديقتي المفضلة،

«لماذا تقفين بعيدة؟ ألا تريدين وداعي»؟

بقيتْ واقفة في تلك الزاوية البعيدة، تنظر إليّ بوجهٍ باهت، ثابتةً بلا حراك، كأنها تخشى أن تقول وداعاً، أو حتى تلوّح لي بيديها. اقتربتُ منها وحضنتها، همستْ في أذني «أعدكِ أنني سأبقى هنا حتى تعودي» .

عدتُ وصعدتُ إلى السيارة، وظلت ريمي تركض وراءنا وتلوّح لي بيديها. بدت كطائر الهزار الذي يلاحقني، بعينيها المضيئتين وابتسامتها العذبة، كأنها تعدني بالبقاءِ حتى أعود، وعيناي معلّقتان بها حتى اختفت عن ناظري..

كم يبدو سائقنا عصبيّاً، كأنه ذاهبٌ الى حربٍ أو قتال! وكان الأمر في حقيقته كذلك. قالَ السائق بصوتٍ مرتبك: «لا تتحركوا من مكانكم سندخل الآن في طريقٍ خطر، ولا نريد مشاكل»

«أمي، أمي، ما هي المشاكل التي يقول عنها»؟

«كفي عن الحديث يا هزار، لا يوجد شيء». لكنّ السائق قال:

«قولي لهم الحقيقة، الأفضل أن يعرفوا. يا بنات، والدكم في قرية بعيدة عن ضيعتكم، انتبهوا هناك طائرات..»

«يا لكَ من سائقٍ غبيّ»، قالت أمي بصوتٍ منخفض، ثم رفعتْ صوتها: ومنذ متى نحدثّ الأطفال عن الحرب؟!

«بالطبع يجب أن يعلموا ليدركوا الحقيقة ويكونوا واعين. هم في منطقة حرب ولن تستطيعي إخفاء الأمر عنهم»

لم أكترث لما يدور ورحت في نومٍ عميق .

أيقظني صوت السائق؛ الحمد لله على السلامة! جاء رجلٌ ليُنزل أغراضنا. اقترب مني ولم أتعرّف إلى ملامحه. رجعتُ خطوةً إلى الوراء، فانحنى وحملني بسرعة، قال لي: «كبرتي يا فشتوكة»؟

(فشتوكة)! كلمةٌ طالما سمعتها منذ صغري.. إنه أبي!

لمستُ في يديه دفئاً وخوفاً وشوقاً معاً، حدّثتُ نفسي: «هل هذا هو مَن يحدثني على الهاتف»؟ لم أكن أعلم لماذا افترقنا كل هذه السنوات ..

أدهشني جمال القرية التي كان أبي يسكن فيها، ونحن سنسكن معه. كانت صغيرة وفيها شجرٌ كثير، وبيتنا فيها محاطٌ بكل أنواع الورود، استهواني ذلك المنظر، كان بالتأكيد سيعجب ريمي أيضاً، ليتها معي هنا. سمعتُ أصوات العصافير تختلط بأصوات غريبة، لم أعرفها.

«أمي، ما هذا الصوت»؟ وأجابتْ أمي: «لا تقلقلي لا شيء..». ورأيتُ في السماء تلك الطائرات التي تحدّث السائق عنها. قلتُ لنفسي: يا سلام ستلقُي

لنا الألعاب. هذا ما ظننته! طِيبةُ الطفولة تضاهي قسوة الحرب.

أدخلنا أبي سريعاً إلى البيت، وقال: انتظروني، سأخرج لأحضر لكم العشاء وأرجع. عادَ ومعه الأكل والبالونات والألعاب، فشعرنا بالارتياح رغم أصوات الحرب، التي لم نكن قد سمعناها في قريتنا.

لعبتُ وأخوتي حتى أنهكنا التعب، وذهبتُ للنوم. استيقظتُ في الليل على ظلامٍ دامس، حتى ضوء القمر مطفأ. ظننتُني في كابوس، أو أنّ عينيّ أصيبتا بالعمى. وأسمع أصواتاً كالرعود في ليلة ماطرة. فزع قلبي. سمعتُ أمي تصرخ: «هيّا لنهرب»! إنه ليس كابوساً إذاً، بل هو حقيقة.

امتلأ المكان بصوت بكائنا وصراخ أطفال الجيران، ولم أفهم. تتبعتُ صرخاتِ امي حتى اجتمعنا في زاوية واحدة.

لحظاتٌ وطُرِق بابنا. قال الطارق: أنا جاركم ابو محمد، افتحوا الباب بسرعة! كان هذا جارنا المسنّ، جاء ليأخذنا من بيتنا راكضين إلى قبوٍ تحت الأرض. كانت الطائرات تحوم فوق بيتنا؛ ليست أبداً الطائرات التي رأيتها في الأفلام تلقي هدايا وألعاباً..

لبثنا في القبو طويلاً، وأنا أرى الخوف في عيون عائلتي وجميع من حولي، حتى قالوا لنا: «هدأت العاصفة»، اختفت الأصوات كما تصمت أوراق الخريف بعد شتاتها. وصل أبي بعينين دامعتين، ضمّنا جميعاً كأنه يتأكّد من أننا أحياء. عدنا إلى البيت، قال لنا: غداً سنذهب لشراء ملابس العيد. رحتُ إلى النوم وفرحتي كبيرة، حالمة بالغد والعيد..

استيقظت مع زقزقة أول عصفور، وكانت أمي تجهّز الفطور بسرعةٍ لننطلق مبكراً. خرجنا من بيتنا وقلبي يخفق كعصفورٍ سعيد، فرحة العيد أنستني ما حدث البارحة، كأنه لم يكن. أخذت أتخيّل شكل الفستان الذي سأختاره: هل

لونه زهريٌّ ومزركش، أم أحمرُ مزيّنٌ بورود جميلة؟ صبّرتُ شوقي حتى وصلنا إلى محل ملابس الأطفال، رأيتُ تشكيلةً رائعةً تأسر الأنظار، وتحيّرتُ من أين أبدأ في الاختيار..

وأنا غارقةٌ في أحلامي، جاء صوت أبي من بعيد، وهو يمسك بكنزةٍ سادة، مزينة بخيوطٍ كشبكة عنكبوت: «هذه تناسبكِ!» قال وهو يبتسم. نظرت إليه بحيرة: هذه الكنزة لي أنا؟! لم أجادل أو أُبدِ اعتراضاً. ارتديتها وكانت أكبر من مقاسي، لكنها نالت إعجاب أبي فوضعها في كيس وناولني إياها قائلاً: «مبروك!» أكمل شراء الثياب لأخواتي وخرجنا من المحل. أجزم أن أخواتي أيضاً لم تعجبهنّ ثيابهن، لكننا اكتفينا بالصمت.

وصلنا إلى البيت، وضعنا ثيابنا الجديدة بأكياسها في الغرفة، وصرتُ كل عشر دقائق تقريباً، أدخل لألقي نظرة عليها بكلّ حب. ليس لأنني أحببت هذي الثياب، بل لأنها ثياب العيد. كل ما يرتبط بالعيد جميلٌ في نظري. عادةً، تجتمع العائلة بأكملها لتحضير الحلويات، وفي هذا العيد كنا وحدنا. أحضر أبي حلوى جاهزة، وكانت لذيذة، إلا أنني افتقدت رائحتها وهي تخُبزَ داخل الفرن..

انسابتْ تكبيرات العيد تعلن الفرح، كانت عذبة، هو العيد يطرق أبوابنا برفق. استيقظتُ وأختي باكراً، وذهب والدي إلى صلاة العيد. نظرتُ إليه بحب وهو يضع العطر على ثيابه؛ فقد مضت الأعياد السابقة وأبي بعيد، وكنت أشاهد أعمامي يذهبون إلى الصلاة، وأتخيّل أبي بينهم.. سألتُ عمي في أحد الأعياد الماضية:

«لماذا لا يأتي أبي ليعيش معنا»؟، وتمتم ضاحكاً: «الأخ لا يحب الأسد.. يا حبيبتي، إن شاء الله يرجع قريباً»!

واليوم، ومع ضآلة فرحي خارج ضيعتي وبعيداً عن جدّيّ وأصدقائي، إلا أنّ لهذا

العيد طعم خاص؛ إنه عيدي الأول مع أبي!

منذ صباحه بدأتُ أتخيل يومي مع أبي. ترى، هل سيأخذنا إلى الملاهي كما كنا نفعل سابقًا؟ أم سنتناول الغداء في مطعم؟ أم ستكون نزهتنا في الحديقة؟ وتلاشت تخيلاتي عندما أخبرنا أنه سيأخذنا هذا المساء إلى بيت صديقه. ليس هذا ما أريد. ومع ذلك، غمرتني السعادة لمجرد أننا سنذهب بثياب العيد.

«هل لدى صديقك أطفالٌ لنلعب معهم»؟

«نعم. هناك أطفال». انتظرتُ بفارغ الصبر حتى وقت الخروج. وأخيرًا، أخذنا أبي بالسيارة إلى منزل صديقه. ورغم طول المسافة، وصلنا في وقت قصير بسبب قيادة أبي السريعة. توقف أمام المنزل وأوقف المحرك استعداداً للنزول، حينها رنّ جوّاله!

كان أبي يجيب على الاتصال، بينما أتأمل جديلة شعري في مرآة السيارة، منتظرة أن ينهي مكالمته باختصار، كعادته، يحاول إلغاء كل مشاغله بوجودنا. لكنّ الخوف تسلّل إلى قلبي هذه المرة، مرّتْ دقائق وهو لم ينتهِ بعد. مع كل دقيقة تمضي، يزداد وجهه شحوباً ويغمر السواد ملامحه. أمسكَت أمي بيده وسألته لاهفة:

«برهومي، فيك شي»؟ قبض على يدها بقوة، وقد امتلأتْ عيناه بالدموع: «تكلمي مع أهلك على الهاتف..». قالها بصوت مخنوق، ثم غطّى عينيه بيده وكأنه يخفي ما لا يريد لنا رؤيته.

لم تصمت أمي أو يشحب وجهها؛ بل صرخت أشبه بطفلٍ أصابه جرحٌ أليم، وسقط الهاتف من يدها، وتدفّقتْ دموعها، كأنها فيضان نهرٍ مباغت. حاول أبي تهدئتها وهو يردّد: «حسبي الله ونعم الوكيل، إنا لله وإنا إليه راجعون»!

لم أفهم شيئاً مما حدث، لكنني سمعتُ تلك الجملة آخر مرة يوم وفاة جدّي.

صحيحٌ أنني لم أفهم، لكنّ جسدي بدأ يرتعش وأنا أسمع بكاء أمي؛ هل يبكي أحد في العيد؟!

بدأتْ أفكار غريبةٌ تتزاحم في رأسي، وقطعتها كلمات أبي: «هيا، لننزل من السيارة»

أمسك بيد أمي وهو يقودنا نحو منزل صديقه، والجوّ مشحونٌ ومضطرب، حتى إن هذا المشوار لم يبدُ لي زيارة عيد على الإطلاق! قال أبي بنبرة هادئة لكن حازمة: «ستنامون هنا. لا تزعجوا والدتكم، وكونوا هادئين عند الناس، تمام يا بنات»؟

استقبلتنا زوجة صديق والدي بابتسامة دافئة، مشبعَة ببهجة العيد. وحين رأتْ ملامح أمي وحالتها المزرية، ارتبكت ولم تفهم ما الذي جرى. أخذت تسأل مراراً، حتى تمالكت أمي نفسها بالكاد، وهمستْ بكلماتٍ متقطعة: «أخي.. أخي..» ثم أضافت بصوت متهدج: «توفيت ابنة أخي..»، وغمرتها موجة من الدموع.

جلس الجميع حول أمي، يحاولون تهدئتها أو دفعها لتوضح السبب، لكنها ظلت صامتة، تائهة بين الكلمات. الجميع في ارتباكٍ وحيرة، وأنا أجلس وأمامي صحنٌ كبيرٌ من العنب، آكل منه وحدي، وأتفرّج عليهم بصمت. منذ صغري كنت أبتعد عن أحاديث الموت، فلا شيء فيها كان يستهويني.

لكن، من هي ابنة خالي التي توفيت؟ وابنة أيّ خالٍ منهم؟. تابعت زوجة صديق أبي تسأل أمي:

«وهل تأذى أخوكِ أو أحدٌ من عائلته»؟ وردّتْ أمي بأسى: «إبراهيم لم يخبرني

بشيء، لم يسمح لي حتى بالتحدث مع أخي» ثم أردفت بصوت خافت:

«رحمها الله، ريمي.. وصبّر قلب أخي».

لحظتها انتفضتُ مذعورة، لا أعلم، هل قفزت روحي مني، أين هي؟! لم ألحق الإدراك حينها، أنّ الوداع قد تسلل ليجلس بجواري، ويشاركني صحن العنب. لم أدرك أني، رغم صغر سني، سأضُطر لمجاورة الفراق ومشاركته فاكهتي المفضلة. لعلّ الوداع حتميّ، يطرق أبوابنا دون استئذان..

علقتْ حبّة العنب في حلقي، وكأنها عبرّت عن اختناق روحي لحظة سماع اسمها..

هل يعقل أن تكون ريمي هي من ماتت حقًا؟

حينها فقط، استوعبت الحقيقة المرّة، وتابعت الأكل من صحن العنب بصمت، وقلبي يتمزق. هل تعرفون ماذا يعني أن نتألم بصمت؟

هكذا، انتهى العيد في أول أيامه..

...

خالي أمجد يروي بلسانه ما حدث..

الساعة السابعة والنصف، استيقظتُ مرتعباً من كابوس، تعوذتُ بالله ونهضتُ لأوقظ عائلتي، وأنا أخفي حزني على مغادرة منزلنا. الأرواح أغلى من المال والمنازل، سننزح من المدينة ونستودع الله على أملاكنا،

«هيا يا اطفالي، أفيقوا، سنذهب لزيارة عمّتكم في ضيعتها..»

«يا سلام!! بيتُ عمّتي.. كم اشتقنا إليهم..»، هتفتْ لارا وريمي معاً. بدأ الأولاد بجمع ألعابهم بلهفة. ونبّهتهم زوجتي، لينا، ألا يكثروا منها، فنحن نازحون، لن نستطيع حمل سوى الأغراض المهمة. قلت:

«دعيهم يأخذوا ما يشاؤون، فنحنُ لا ندري متى سنعود، هذا إن عدنا..» وانزعجتْ لينا، قالت: «كفَّ عن التشاؤم، إن شاء الله سنعود بعدَ فترةٍ قصيرة، وتعود حياتنا كما كانت..»

«وهل تظنين الحرب ترحم أحداً؟ هل أنتِ واثقةٌ أننا حقاً سنعود، وأنّ منزلنا سيبقى..»؟

أشارتْ لينا إليّ أن أصمت كيلا تسمعني البنات. ولم نكن الوحيدين الذين يغادرون منازلهم بسبب الحرب، فالروح أغلى من ذكرياتٍ نتركها خلفَ باب المنزل، وتتعلقّ أرواحنا بأمل العودة إليه.

أقمنا طويلاً عند أختي. قريتها هي المكان الوحيد والآمن الذي نعرفه، بعد أن قصفوا منزلنا وهدّموه.

وحين غادرت أختي قريتها والتحقتْ بزوجها، لم يعد لي ما يربطني بهذه القرية، أو يصبرني على البقاء فيها.

وكنت أعلم أن العودة إلى المدينة قد تشكّل خطرًا عليّ وعلى عائلتي، لكن الموت أهون من العيش كغريبٍ غير مرحب به. لملمتُ أشياءنا في عجالة، وألقيت نظرة على أهل صهري، ولم أرَ في عيونهم ما يعبّر عن رغبتهم في بقائنا، باستثناء نظرات الحجّة، الجدّة، التي كانت تغرغر بالدموع. أمسكَت بأيادينا وقبلت أطفالي. كانت قد تعلقتْ بريمي ولارا. مسحتْ ريمي دموع الجدّة بيدها الصغيرة، وأخبرتها بأنها ستعود قريبًا لتبقى معها. لم أتدخل لأحبط طفلتي إن أخبرتُها أننا لن نعود..

القدر وحده جعلها تنطق بأنها ستعود، ولو جثماناً!

2013.07.08، تاريخ يومٍ كان يمكن أن يكون سعيداً، لولا مشيئة الربّ أن يحرف مساره. قبله بيوم، أخذتُ لارا وريمي إلى السوق. قالتْ ريمي: «أريدُ فستاناً جميلا». أجبتها: «أنتِ جميلةٌ كالأميرة من غير أيّ فستانٍ جميل»!

وكانت تتخانق مع أختها لارا، فريمي أخذتْ منها لعبتها. قالت ريمي:

«ما رأيكم أن تبقوني عند جدّة هزار، وتذهبون إلى السوق وحدكم. لدي ثيابٌ كثيرة.. لا أريد ثياب جديدة»، واستغربتْ لينا: «ما بكِ يا ريمي ليسَ من عادتك ألا تحبّي الذهاب إلى السوق! هيا ومن دون نقاش، سنذهب جميعنا ونشتري الثياب»

لبّتْ ريمي رغبة أمها بصمت. ارتدت حذاءها وسارت معنا بخطىً ثقيلة، بلا شغف. اشترينا لها ما اختارته بنفسها. كانت مستعجلةً ومملولة. كل قليلٍ تسأل أمها: متى سنخرج من السوق؟ متى سنذهب إلى عمتنا في الضيعة؟ وأمها تهدّئها: سنذهب.. سنذهب في أيام العيد..

مرّ سربُ طيورٍ مهاجرة، قطعَ جواب أمها. ربما عبرتْ هذي الطيور لتبلغنا رسالةً ما!

طلبتْ لارا من ريمي أن تحمل عنها الأكياس، وريمي لا تريد، ركضت لتختبئ من أختها خلف سيارةٍ تصطفّ جانباً. اختفتْ عن أنظارِنا، ويبدو أنها نجحت في الاختباء، ففي تلك اللحظة انتهى العيد!

دوّى انفجارٌ وسطَ السوق، حيث عددٌ هائلٌ من الناس، علا الصراخ في كل مكان، الأحياء يستوعبون أنهم لا يزالون على قيد الحياة، ويتحسّسون خسائرهم من الأحبة، والكل ينادي للمساعدة. لكن كيف للجريح أن يساعدَ جريحاً؟

لم أسمع لريمي أنيناً، ربما تظنّ أنّ اللعبة لم تنته بعد، ولا تزال مختبئةً وراء السيارة.

تمسكتُ بشيءٍ ما كي أستطيع النهوض، جسدي محطَّم، يجب عليّ احتمال آلامي، فأنا أبٌ لعائلة. أين عائلتي الآن، أهيَ القيامة؟! هذا ما جالَ في بالي عندما ابصرتُ المشهد. بعجزٍ مشيت، والدماءُ تسيلُ من قدمي، أسير وأبحثُ ودمائي ترسم على الأرض شكل خطاي.. أينَ زوجتي وأولادي؟ هل هم أحياء، هل هم سالمون أم جرحى؟ هل هذه الأجزاء البشريةُ لأحدٍ منهم؟ أشلاء، أجزاء، انتثرت في كل مكان، وضاعت خطواتي بينها.

لم أعثر على أثرٍ لعائلتي. تمنيتُ أن أصرخ، لكن الأصوات حولي كانت أعلى من صراخي، لن يفيد..

«أبي، أبي، أنا هنا»! هذا صوتُ لارا.. يا الله! صوتها قادني إلى مكانهم، ركضت، رغم أنين جراحي وآلام جسدي كله، ركضتُ،

«هل أنتِ بخير يا بنتي»؟، سألتها وأنا أُنقّل عينيّ على جسدها الصغير طولاً وعرضاً، هل هي بخير؟ ردّت عليّ: «أنا موجوعةٌ يا أبي، وأمي لا تستيقظ وهي مغطاة بالدماء»! خلعتُ قميصي لأمسح الدماء عن وجه زوجتي، وأطمئن على أنها ما زالت حيّة، قلتُ: «لا تخافي، إنها جروح صغيرة..»، نطقت لينا، بإعياءٍ شديدٍ، باسم ريمي، وفتحت عينيها ببطء، رأتني أنا ولارا فهدأ روعها، «ولكن أين ريمي»؟ سألتني باستنكار، ثم صمتت عاجزةً عن الكلام.

كيف يمكنني إخبارها أن ابنتنا ضائعةٌ بين الجرحى والجثث؟

صاحت لارا: «أبي، أبي، وجدت ريمي، إنها هنا تختبئ بجانب السيارة..»

ركضتُ إلى طفلتي، كانت تستلقي على الأرض، بكل هدوء، بلا حراك، وقد

افترشت دماؤها المكان.

بدأتْ سيارات الإسعاف تفد وتملأ المكان، وعيون المسعفين حائرة: من أين يبدؤون؟ قلتُ للمسعف: «أرجوك، أتوسّل إليك قل لي: هل ابنتي حيّة»؟ قال لي أنّ إصابتها تبدو خطيرة، لكنها ما زالت تنبض. عسانا نتمكن من إنقاذها حين نصل إلى المشفى. وصلنا. رحتُ أركض حاملاً طفلتي وقد اكتستْ بدمائها. قلتُ للممرّض في صالة الاستقبال: «أرجوك، نادِ أي طبيب، ابنتي في خطر»! اعتذر الرجل بشدة، قال: لا نستطيع إنقاذ هذه الحالة في مشفانا، عليك الذهاب إلى مستشفى آخر. صعقني جوابه، كيف ستصمد هذه الصغيرة النازفة حتى نصل بها إلى مشفى آخر؟ انتقلنا بسرعة إلى مستشفى مجاور، مليءٍ بالمصابين. دخلتُ متردداً، أحاذر أن أسمع تلك الجملة المرعبة: «البقية في حياتك». لكنني دخلتُ، واستقبلها الطبيب بعينين قلقتين، قال: «نبضها ضعيف، أدخلوها غرفة الإسعاف فوراً، النبض ضعيف. صرختُ برجاء: «أنقذ ابنتي، أرجوك! قال: استعِن بالله، ولا حول ولا قوة إلا به.

أخذوها من بين أحضاني، نظرت إلى يديّ تسيل عليهما دماؤها، ما أثقل عجزي وأنا أراقب الدم ينزف من رأسها! قال لي الممرض: «والآن، هلّا جلستَ لأفحص قدمك؟ الدم يسيل منها». صرخت فيه بانفعال: «ابتعد عني! سأنتظر حتى تخرج ابنتي»، لكنّه أصرّ، «قد تكون هناك شظية في قدمك، ويجب علاجها فوراً. زوجتك أيضاً تنزف»!

كيف أشرح له أنّ ما ينزف ليس قدمي بل قلبي؟ أنا الأب العاجز الذي فشل في حماية طفلته!

سألتني صغيرتي لارا بصوتٍ مرتجف: «بابا، متى ستخرج ريمي؟ تأخرت كثيراً.. أريد أختي، أريد أختي»! وحاولت تهدئتها رغم انكساري: «إن شاء الله ستخرج قريباً. تعالي نجلس وننتظرها». وهمستْ زوجتي لينا بصوتٍ متهدّج: هل

ستموت ريمي؟ أجبتها بألمٍ مكبوت: «لا قدّر الله. ريمي بطلة، وستنهض من جديد».

فُتِح باب غرفة العمليات ببطء. خرج الطبيب، هادئاً، يجتنب لقاء نظره بأنظارنا. كان خلف هدوئه انكسارٌ ثقيل. من نظرة عينيه وصلني الجواب، شعرت بالأرض تميد تحت قدميّ، ولم أعد أقوى على الحراك.

ركضت لينا نحوه، تتعلّق بخيط أملٍ واهن، وكأنّ صوتها رجاءٌ أخير: «أرجوك، قل إن ابنتي بخير...». همس الطبيب بصوتٍ مثقلٍ بالتعاطف: «العمر لكم... مع الأسف، خسرنا الطفلة».

«لا، لا، هذا مستحيل! ريمي لم تمت»!. اندفعتْ لينا نحو الباب، متشبثةً بوهم أن الطفلة ما زالت تنتظرها: «دعني أراها، ربما تنتظرني حتى تعود إلى الحياة»! نهضتُ عن الكرسي الذي أثقلته أحزاني، وحاولت ضمّ لينا بين ذراعي، لكن حزنها كان أوسع من أن يحُتوى..

صرخت وهي تتمسك بآخر ذكرى: «كانت تمسك بفستان العيد... كيف أصدق أنها غادرت؟» وشهقتْ كمن يخنقه الندم: «لم تكن تريد الذهاب إلى السوق ولا شراء ثياب، لكنني أجبرتها. أنا قتلت طفلتي، أنا السبب، خذني يا رب، عاقبني!»

أمسكت بها أهزّها بقوة، أحاول منعها من الانهيار: «كفى يا لينا.. لا تعذبي نفسك، هذا قضاء الله، وقدَره لا يرُد. إنها حكمة الله، اختبارٌ لنا، وليس عقاباً، وعلينا الصبر».

تسلّلتْ لارا إلى غرفة العمليات، راحتْ تحدق في أختها المسجّاة تحت قماش أبيض، تحاول إيقاظها: «ريمي، قومي! استيقظي»، ثم تستدير إليّ: «أبي! ريمي لا تستيقظ! أيقظها، غداً العيد، سنذهب إلى حديقة الألعاب معاً»! اقتربتُ من لارا وهمستُ في أذنها: «ريمي ذهبت إلى الجنة، يا صغيرتي».

لطالما كنت أصف لطفلتي جمال الجنة وروعتها. ولكن لماذا ذهبت وحدها؟ كيف تذهب من دوننا؟ أنا أيضًا أريد الذهاب إلى الجنة! التفتُّ إلى زوجتي ولارا، ولم أستطع حبس دموعي أكثر. لم أعد ذلك الجبل الصامد. وفاةُ ريمي كسرت ظهري إلى الأبد.

أمسكت هاتفي بيدين مرتجفتين، ضغطتُ على الرقم، جاءني صوتها وخنقتني الغصّة..

ألو؟ أمي! ردت بصوتها الدافئ المعتاد: «وعليكم السلام يا بني. هيا، نحن بانتظاركم! أحضرنا المعمول، وقد تأخّرتم في السوق فانشغل بالي، اتصلتُ مراراً ولم تردّ».

حاولت النطق، لكنّ الكلمات خانتني: «أمي.. ر.. ريمي..»، ثم صمتُّ، وكأن الزمن توقف. ثم انفجرت الكلمات كجمرٍ يحرق قلبي: «ريمي ماتت في انفجار السوق يا أمي.. ذهبت طفلتي».

أخبرني أخي فيما بعد أنّ أمي أُغمي عليها، وأعدتُ عليه الكلمات، وكأنني أحاول تصديقها بنفسي: ريمي.. ماتت.. خرجت الكلمات مني كصوت طائرٍ مكلوم. إنا لله وإنا إليه راجعون، قال أخي. وطلبتُ منه أن تُجهّز أمي لزوم الدفن، وعزاء الشهيدة.

كيف سأتحمل فكرة أنَّ ابنتي رحلتْ إلى الأبد، وستدُفن تحت التراب. حملتها بين يدي، وجسدها الصغير مغطى بالقماش الأبيض. لا أدري كيف يستمر قلبي في نبضه، بينما توقف قلبها إلى الأبد.

حملناها إلى منزل أمي، انفجرتُ بالبكاء أمام الجمع الذي يرتدي السواد، وقالوا في صوت واحد: «صبّرك الله».

كان علينا تحديد مكان الدفن، وأنا وأخي نعرف كم أصبح من الصعب العثور على قبر. بحث أخي في كل المقابر المجاورة، وكلهم رفضوا بيع قبر دون سند إقامة.

«والأسعار! القبر الواحد يتجاوز الملايين! ماذا نفعل الآن؟»، سألني أخي. وصمتُّ بعجز أبٍ لم يستطع حماية طفلته، ولا يجد الآن قبرًا يليق بها، فسقطتُ أرضاً.

كنت أردد دائمًا أن المال ليس كل شيء، والآن فقط أفهم كيف للمال أن يغيّر حياتنا. أنا عاجزٌ عن شراء قبرٍ لابنتي، قبر صغير، لا يتجاوز متراً مربّعا، لكنه يتجاوز سعر أحلامنا في هذه المدينة.

انقضتْ أربعٌ وعشرون ساعة، وكاد عقلي ينفجر. كيف لي أن أدفع الملايين ثمناً لقبر؟ ولا يجوز أن تبقى طفلتي من دون دفن، فإكرام الميت دفنه. كم دعوتُ الله وأعدتُ: «لن أقنط يا رب، أعلم أنك قادر.. ارحم ضعفي وقلة حيلتي». وكان صوت دعائي يختنق بين شهقات البكاء.

رنّ الهاتف. وكان المتصل أخ صهري. يبدو أن أمي أخبرت زوج أختي عن حالنا، فبادرت عائلته لتأخذ الأجر وتترحم على صغيرتي.

فتحتُ الهاتف وتهيأت لسماع الكلمات التي أسمعها طوال هذا اليوم: «رحمها الله وعظّم أجركم، صبرّك الله يا أمجد..»، لكنه تابع: «أوصاني صهرك إبراهيم: إذا لم تجدوا قبراً بعد، فلتأتوا بها إلى ضيعتنا، لدينا قبور جاهزة».

لم يكن لدي خيار أفضل. دفنّا ريمي في ضيعة زوج أختي، على الأقل أطمئن أن عائلته ستكون قريبة من ابنتي هناك، ولن تبقى وحيدة، هي التي قالت للجدّة الحجة: سأعود، ووفتْ بوعدها!

عدنا إلى منزل أمي، لأول مرة من دون طفلتي.

كانت عائلتنا كبلدٍ جُرح في أضلاعه.

يوماً ما، ستنتهي الحرب، وستعود اختي وزوجها إلى بيتهما. وحينها، سأزور ابنتي كل حين، شوقاً. في غيابها، ستبقيني رائحة ترابها على قيد الحياة.

...

وأنا هزار، سأكمل القصة:

عدنا إلى قريتنا من دون والدي، فالحرب كانت أقوى من آمالنا، وما زالت حتى الآن لم تنتهِ.

عندما كنت طفلة، لم أدرك ما الذي دمّرته الحرب في حياتي. والآن، بعد أن مضت عشر سنوات من دون والدي، وكلّ منا في بلد مختلف، بدأت أفهم..

حين التقيت عائلة خالي أمجد ولم أجد ريمي بينهم، شعرت أن الحرب سلبت أجمل ما في حياتي.

أعرف أن غيابها لم يُثقل عمري كما أثقل خالي، ولم أحرم نفسي من السعادة مثل زوجته، ولم أعش في كآبة مثل لارا. لكني أيضاً لم ولن أنساها. وكل مرة ينفطر قلبي وأنا أستعيد حكاية خالي عن ليلة استشهادها.

أتممت عامي الثامن عشر وأنا أكتب هذه القصة، واخترت أن أبدأ نجاحاتي بالحديث عن ريمي، الروح التي تعيش أبداً في قلبي.

ربما أرغب أيضاً في أن أشارككم بعض ما عانيته خلال الحرب من قسوة، ولن

تكفيها عشرات الصفحات، وربما مئاتٍ منها. لكن، في كل صفحةٍ أكتبها، ينير بصيص الأمل طريقي، وكل تجربةٍ مررت بها كانت درساً في الصبر والقوة.

لقد أحببتُ ريمي دائمًا، وسأبقى أحبها. فالموت ليس إلا خدعة؛ الجسد هو من يرحل، وتبقى الروح خالدة. في كل لحظة تمر، أتذكر ضحكة ريمي، التي كانت تشُعل في قلبي شغف الحياة، وستظلّ تشعله!

2

خيوط الحرب

يسرى حيدر

الثامنة والنصف مساء كل يوم كنت أجلس خلف شاشة التلفاز أتابع نشرة الأخبار اليومية بعيون طفلة، متمنيةً أن تكونَ الحلقةَ الأخيرة منها، ويخيب ظني، ها هي تستمرُ إلى يومنا هذا.

أنتظرُ شارة الانتهاء بشغف، لأقضي وقتاً سعيداً مستمتعة وعائلتي بمسلسل السهرة اليومي.

ولو أنّ العالم بلا حروب وكوارث أو مجاعات، لما تجاوزت مدة الأخبار نصف ساعة، لكنّ الحروب لم تتوقف في بلادنا يوماً، ومعها تطول تقارير المراسلين وتحليلات المحللين السياسيين، وتستفزّني المذيعة بكلماتٍ من مثل: نذّد.. وهدّد.. وشدّد.. وتوعّد.. كلماتٌ تقع في أذنيّ كالسهام المسمومة!

منذ صغري كنتُ أتابع الأخبار، وأسمع تحليلات أبي عما يدور ويحاك في بلادنا، فأعي الحقائق أبكر مما يجب، أتوقف عن اللعب مع أخوتي وتصدّ شهيتي عن وجبة العشاء، وتفضح ملامح وجهي قلقي وخوفي اللذين لا يعلم بهما أحد، وأنام ورأسي ثقيلٌ بأخبار العالم: قصفٌ ودمار، جوعٌ وعطش وكوارث بيئيةٌ ونزوحٌ وتهجير.. تأتيني في الكوابيس ويستيقظ أهلي على صراخي..

...

ولم أتخيل أنّ ما قاله أبي من قبل، وما رأيته عبر شاشة التلفاز، سوف يصبح واقعاً في وطني.

منذ 2011/3/15 سوف تصير سوريا قضيةً تتصدّر نشرات الأخبار العالمية..

وسوف تتسارع الأحداث وتشتدّ، ولن تعود أيامنا روتينيّةً أبداً.. مظاهراتٌ تعمّ المدن السورية، واعتقالاتٌ تطال المشاركين فيها، واقتحاماتٌ ومجازر وموت العشرات يومياً ونزوح الآلاف.. وسوف ينحفر هذا كله في ذاكرتي ولن أنساه ماحييت.

كان أخي واحداً من الملاحقين. عمّموا اسمه على الحواجز الأمنية المنتشرة في المدينة، ما أجبره على التخفّي بعيداً عن عائلته التي كانت تسكن مع أهلي.

وفي يوم، كنت أنا وزوجي نزور عائلتي. أنا وأخوتي نجهز الفطور، وأخي الأصغر مشغولٌ باللعب على الكمبيوتر، وزوجي في غرفةٍ أخرى بابها على الطريق، ينتظر إعداد الفطور ليأكل ويذهب إلى عمله.

رنّ الهاتف، حذّرنا أحدهم من حملة اعتقالاتٍ في حيّنا. بالكاد وضعتُ سماعة الهاتف حتى اقتحم رجال الأمن بيت أهلي. لم ينتظروا الإذن لهم بالدخول ولم يعطونا فرصة حتى لارتداء الحجاب. كسروا الباب، وانتشر حوالي عشرة عناصر، بأسلحتهم، في كل أرجاء البيت.

سريعاً همس أحدهم بأذن زميله وانسحبوا. وبينما كنتُ قلقةً وخائفةً على أخي الصغير، تبيّن أنهم أخذوا زوجي ظناً منهم أنه المطلوب.

أعادوه حين عرفوا أنه ليس هو. وقبل أن نستعيد أنفاسنا، عادوا مجدّداً، وبعددٍ أكبر. أمسك أحدهم أخي الصغير يسحبهُ خارج البيت بقميصه الداخليّ، وحافياً.

قلتُ أحاول إفلاته منهم: «ما عامل شي لاتخذوه»، وصرخ أحدهم مهدداً: «سكتوها وإلا..»

التقطت قميصاً كان مرمياً على الأرض، غطّيتُ رأسي به وركضت إلى الشرفة أصرخ: «رجعوه ما عامل شي»، فأشهر أحدهم سلاحه في وجهي وصاح: «بتنزلي أو بقوصك»!

كنت أبكي بشدة وبقيتُ ثابتة. أجبته: «قوصني»، وعيناي على أخي الذي تبيّن أيضاً أنه ليس المطلوب، فأعادوه إلينا. كانت فرحتنا كبيرة بعودته، كأنه ولد من جديد.

مضتْ حياتنا مشحونةً بالخوف والتوتر، وبعد أشهر من تلك الحادثة، وعلى أحد حواجز النظام في الغوطة الشرقية، ألقوا القبض على أخي الكبير، فأضافوا كابوسًا إلى سلسلة معاناتنا.

بانتظار مصيره، ما كنا نملك سوى الأمل بأن يعود سالمًا. لم يكن أخي وحده من تعرض لخطر الاعتقالات العشوائية، بل طالت الكبار والصغار والرجال والنساء. تمرّ الأيام ثقيلةً على قلوب الجميع، مليئة بالرعب من المجهول. يتمسكون بأملٍ واحد، أن يعود أحبابهم إليهم.

أفرجوا عن أخي بعد شهرين، مرّا كأنهما سنة. كانت أعظم سعادةٍ في حياتي لحظة رأيتُ وجهه مجدّداً، كأنها انتصارٌ على كل ألمٍ وخوف.

...

ولم يتوقف الخطر، والألم زاد. حلّ الحصار الخانق على الغوطة الشرقية، عشنا في ظروف شديدة القسوة، أصبحت المواد الغذائية نادرة، وإن توفّرت فبأسعار جنونية. أتذكر كم اضطرنا للوقوف ساعات طويلة من أجل الحصول على رغيف

إلى كتل متفحمة، ووجوه لم يعد بالإمكان تمييزها.

تلك الكتلة كانت شاهدة على اللحظة الأخيرة لوالدي وجاره، ذهبوا ليجلبوا الوقود لكنهم عادوا كجزء من رماد المكان.

لطالما حلمت بعد بحثنا الطويل.. ليتنا عثرنا عليه حيّاً، أو على الأقل جثّةً واضحة الملامح، أو أي شيءٍ من مقتنياته، علاقة مفاتيح مثلاً، تقطع الشكّ باليقين، تُنبِئ أنه بالتأكيد مات، فنستسلم إلى راحة اليأس ونكفّ عن البحث والأسئلة..

حُرمنا من وداعه وحتَى من العثور على جثمانه لندفنه ونزوره في قبره.

...

ولم يكن ما مرّ هو الأصعب، فقد جاءت بعدها ضربة الكيماوي، الحدث الفارق!

بتاريخ 2015/8/12 كانت الليلة هادئةً على غير ما اعتدنا. ليلتها لم تنفجر صواريخ!

طرق رجالٌ بابنا بشدة: «أغلقوا الشبابيك والأبواب، اصعدوا إلى السطح، كيماوي كيماوي..»

أية شبابيك وأبواب علينا إغلاقها؟! كلّها تكسرت في القصف واستبدلناها بأكياس النايلون.

لم ندرك ما كان يحدث، ثم استوعبنا فيما بعد؛ قُصفتْ بلدة زملكا وما حولها بصواريخ الكيماوي، وعائلات أخوتي تسكن هناك، ونحن نبعد عنها مسافة 200 متراً.

خبز، أو أيّ طعامٍ يبقينا أحياء، وكان الحصول على الوقود أشبه بمعجزة، تقنّن العائلات في استخدام الغذاء والوقود وحتى الماء. صار امتلاكها يعادل امتلاك الذهب.

بتاريخ 2013/1/2، اتصلتْ بي أختي التي تسكن في بلدة المليحة:

- هل وصل أبوكِ؟

- ما بعرف؟ من وين؟

- مرّ لعندي فقط ليسلّم عليّ، قال إنه جاء هو وجاره إلى المليحة ليتزودا بالبنزين، استعجل بالذهاب ليحجز دوراً في الطابور، قلت له: لاتروح الطيارة حايمة بالسما.. فردّ عليّ: (ما بموت إلا يلي خالص عمره). وبعد ساعة ضربت الطيارة عالكازية، وأنا قلقانة على أبي..

ما كنا لنعرف بمصير أبي لو لم يمر في ذلك اليوم ليسلّم على أختي..

كان أبي يجلس يوميّاً مع جارنا الذي وجد طريقةً لتأمين قوته، يشتري من الكازية يومياً بيدونيّ بنزين، يوزّعهما في عبواتٍ صغيرة على طاولة صغيرة أمام منزله. يشتري بربحه القليل منها ربطةً من خبز الشعير، وبعض خضارٍ لا تكاد تسد جوع عائلته.

من أجل هذا كان جارنا يعاني كل يومٍ من الوقوف في الطابور الطويل لشراء البنزين. هو وجميع الواقفين هناك يدركون أنّ الموت قد يأتيهم من السماء في أية لحظة، لكنهم مضطرّون. وفي ذلك اليوم اصطحب جارنا معه والدي، وألقت الطائرة الحربية حمولتها من الجحيم على الطابور كلّه.

هرعنا إلى الكازيّة المقصوفة، وكان المشهد يفوق كل وصفٍ، تحولت الأجساد

صعدتُ إلى السطح. سمعتُ نداءً آتياً من المآذن، يدعو كل قادرٍ على المساعدة ليسرع إلى المراكز الطبية والمساجد، ليقدّم ما يستطيع، فلا كوادر طبية تكفي ولا أدوية.

كانت الإصابات بالمئات، وكل لحظةٍ يتكاثر الموتى. بعد ساعات عاد النداء يطلب من الناس الحضور ليتعرّفوا على ذويهم قبل دفنهم في المقابر الجماعية، فقد تتفسّخ الجثث سريعاً في هذا الحرّ الشديد.

أسرعت مع زوجي للاطمئنان على عائلات أخوتي. رجالٌ ونساء وأطفال مرميّون على الطرقات، كانوا يركضون بحثاً عن هواء يستنشقونه، ولا يعرفون أنّ الهواء مسموم، وأنّ أعصابهم تتشرّب غازاً، (سوف نعرف فيما بعد أنه السارين)، يُسقطهم على الأرض فاقدين القدرة عن الحراك.

بقينا أنا وزوجي نبحث لساعات، قبل أن نعرف أنهم نقلوا عائلتي أخي وأختي إلى بلدةٍ مجاورة.

ضممتُ أختي التي أصيبتْ بضيقٍ شديدٍ في التنفّس، وبدأت أشعر بالاختناق من الرائحة العالقة في ملابسها، وهي تصارع لتتعافى، بينما يرتمي أخي على الأرض بثيابه المبللة.

بعد القصف مباشرةً بدأ أخي بإسعاف المصابين في البلدة، غطّى وجهه بكمّامةٍ مضادةٍ للغازات السامّة، وحملَ ابنةَ صديقهِ يركض بها إلى المركز الطبي. أزال كمامته عن وجهه محاولاً إسعافها لكن الموت كان لها أقرب، وأصبح هو أحد المصابين..

نجا هو، وكثيرون ماتوا ضحايا جريمةٍ بلا دماء، جعلوهم يستنشقون الموت في ليلةٍ ظلماء. أما الناجين، فقصصهم وحدها كفيلةٌ بتحطيم ما بقي في قلوبنا.

حاولنا البقاء صامدين، لم نستسلم، خلقنا الأمل من قلب الدمار، حتى تاريخ 2018/3/24؛ في الساعة الثانية ليلاً من تلك الليلة الباردة جداً، أنا وعائلتي، وعوائل إخوتي الثلاثة وأمي، نسكن كلنا في بناءٍ واحد، ونلوذ في قبو البناء من قذائف الصواريخ وضرب الطيران.

تواصل القصف وتصعيد العمليات العسكرية لخمسةٍ وأربعين يوماً، حتى دمّر الحديد والحجر، فهل سيرحم أجسادنا نحن البشر؟ كان الأولاد نائمين وقتها، ونحن الكبار لا نستطيع النوم.

جاء أخي مستعجلاً يحذّرنا: «ضروري نطلع من المكان، النظام (الحكومة السورية) على بعد أمتار». ناحتْ أمي: (وين بدنا نروح)؟ يستحيل أن أنسى دموعها تلك..

وردّ أخي: لا يوجد حل ثاني.

وكنتُ قد جهّزتُ حقيبتي لمثل هذا اليوم.. فهل سأستطيع اليوم حملها؟!

أيقظنا الأولاد. ملأ ضجيجهم المكان ونحن نجهّزهم للخروج من القبو. حددنا مكان لقائنا في ساحة البلدة. هناك علتْ أصوات الناس ينبّهون بعضهم بعضاً من ردم الأبنية الذي يملأ الطرقات، وقد لا تستطيع السيارات عبورها. منهم من ركب سيارته وحشر فيها أكبر عددٍ تستطيع حمله من البشر، ومنهم من فرّ هارباً على قدميه، ويحمل همومه وحسرته في قلبه.

الدنيا ظلامٌ دامس، لا تكسره سوى شهب القذائف عند انفجارها. ولا نستطيع إشعال أية إضاءة لنرى طريقنا، سوف يراها الطيران الحربي الذي يحوم فوقنا، ويستهدفنا.

نمشي ولا نلتفت إلى وراء. كلنا نريد الخلاص، ولا نعرف مصيرنا، هل سنصل أم لا؟

تخترق رائحة البارود والجثث أنفاسنا، لأستذكر عائلةً حُرق جميع أفرادها جراء قصفٍ استهدف سيارتهم ليحرقها بمن فيها ، ولم يستطيع أحدٌ إنقاذهم. كانت راحلةً تبحث عن الأمان، ليكون موتهم هو الأمان المنتظّر.

مررت من ذات الطريق الذي مشيتُ فيه كل يوم، ولم يكن يوماً بهذا الطول، ملأ الخوف قلبي، صرتُ أسمع دقّاته بأذنيّ، خُدّرتْ قدماي وارتجفت يداي اللتان أحمل بهما إبني من شدة البرد..

اخترق اذنيّ صوتُ صاروخٍ سقط قريباً، أضاءت شعلتُه السماء، التفتُّ لأرى أين سقط،

وهل أخذ أحداً منا؟!

صاح أحد الرجال يحذّرنا: (كملوا لا حدا يلتفت)

تابعت المشي، أتعثر بالأحجار على الطرقات وأقع، وأولادي يمسكون بأطراف عباءتي، فيداي لا تتسعان لاحتضانهم وحمايتهم جميعاً..

وصلنا بيت أحد أقربائنا منهكين، لنطمئن لحظتها أننا كلنا بخير.

استيقظنا في الصباح التالي على هدوءٍ لم نعتده، لا قصف لا طيران ولا حتى طلقة رصاص.

أهي هدنة؟!لا أظن! فحتى الهُدن كان تُخترق وتُنتَهك..

قد تم الاتفاق على التهجير وسُلّمت تلك البلاد.

أوقفونا على مفترق الخيار بين البقاء والتهجير، وترك زوجي القرار لي، خيارٌ أصعب من كلّ ما يمكن أن أتخيل.

البقاء يعني احتمال الاعتقال في كل لحظة، والتهجير يعني الأمان، وكذلك يعني: الاقتلاع، ترك كل حياتنا الماضية خلفنا، والبدء من الصفر، بلا مالٍ ولا مأوى..

بعد تفكيرٍ عميق، وألمٍ بلا حدود، اخترنا التهجير..

...

بتاريخ 2018/3/29، وبعد سبع سنواتٍ من القصف والحصار والموت، هُجّرنا من بلادنا. اقتُلعتُ من غوطتي التي تربيت ونشأت وكبرت فيها، تركتُ قلبي في هوائها وعلى تربتها وأحجارها، وحملتُ ألمي وقهري وصعدتُ إلى أحد الباصات الخضر في تمام الساعة الرابعة عصراً، ليتَ الزمان توقف قبلها.. قبل رحلتنا التي انطلقتْ إلى المجهول..

سار بنا الباص وعيناي على بلدتي، يملأ الدخان الأسود سماءها، وأخاله وشاح الحداد لأننا تركناها، يعبر الباص شوارعها، شارعاً شارعاً، وكلها حزينةٌ على فقدِنا، أخيراً تختفي ملامحها، يغمرني الحزن وأشعر بروحي تفارق جسدي.

مررنا بشوارع دمشق، والمرور ليس سهلاً في شوارع لم نرها طوال فترة الحصار، ونعبرها يومها بقلوبٍ مكسورة، لا تزال آهاتها مسموعةً إلى اليوم..

...

وجدت نفسي أواجه عالماً جديدا. كنت في الغوطة مدربة خياطةٍ للنساء في إحدى المنظمات، أحوك الأحلام في كل غرزة، وأعيش في عملي سعادةً

ممزوجة بألم الحصار، يكفي أن نتشارك في المعاناة مع من نحب لنخلق السعادة.

كل هذا تلاشى حين غُصبتُ على الخروج إلى الشمال، شعرت أنني أمزق خيوط حياتي وأعيد ترتيبها من جديد، أتأقلم مع واقعي الجديد، وأتفاءل بغدٍ أفضل، لتبدأ نقطة تحول في حياتي.

بدأتُ من الصفر، عاملةً في ورشة خياطةٍ صغيرة، أنظف قطع الملابس من الخيطان العالقة بها. قبلتُ بهذا العمل، وأنا مدرّبةُ الخياطة السابقة، فقط حتى لا أقف مستسلمةً مكتوفة اليدين.

صرتُ أصعد شيئاً فشيئاً حتى استعدتُ عملي السابق، مدرّبةً للنّساء على الخياطة، متطوّعةً أولاً في إحدى المراكز، ثم موظّفة.

كان العمل مع النساء نافذتي نحو الأمل. ومع كل مرحلةٍ أقطعها أزداد قوةً ومحبةً لعملي ولمن حولي.

لم أكن وحدي في هذا الطريق؛ كنت محاطةً بنساء يحملن قصصهن على أكتافهن، ويكافحن رغم أوجاعها.

إحدى زميلاتي قالت لي يوماً مقولةً لم أنسها أبداً، زادتْ من عزيمتي ودفعتني إلى الأمام: «إذا لم تكوني في مكانكِ وتشغليه بشكلٍ صحيح، سيشغل شخصٌ آخر هذه المهمة بدلاً عنك»

شاركت في تدريباتٍ كثيرة، وكان كل تدريبٍ يطوّرني ويضيف شيئاً إلى خبرتي ومهاراتي، ويفتح لي أبواب عملٍ على نطاق أوسع، حتى وصلتُ إلى ما أنا عليه الآن.

هكذا، وجدت طريقي بين خيوط الحياة المتشابكة، أصنع من كل خيطٍ جديد نسيجاً لقصة نجاحي، وأحيا اليوم بقوة أكبر واستعدّ لنسج المزيد من الأحلام.

3

حكاية فنّ، أتقاسمها مع دمشق

راما تباب

عائلتنا صغيرة، أبي وأمي وثلاثة أخوةٍ شباب، وأنا الفتاة الوحيدة. أحبّ الفرح والضحك والمرح، وأرغب لو تحيط بي أجواء الإيجابية والتفاؤل. ورغم أنني خجولة، فأنا بنتٌ لا تجلس ساكنة، أسعى دائماً للنجاح والتميّز، بكل جديّةٍ وإصرار. وما بين هذين الحالين، وفي جميع أحوالي، لا يغيب عني شعور الانتماء والولاء لأسرتي. أهلي وأصدقائي هم ملاذي وسعادتي، أستمتع بالهدوء والسلام في أحضانهم، ويملأون قلبي بالدفء والحبّ.

ومدينتي دمشق. أحبّها ولا أحبّ فكرة السفر. بدلاً منه أفضّل استكشاف أصغر تفاصيل دمشق النابضة بالحياة والتاريخ والجمال، وكم تتنوع طرق الحياة فيها ما بين الأصالة والحداثة، ما يجعلها مكاناً مثاليّاً للتنوع والتعددية الثقافية. ووجودي فيها جزءٌ أصيل من هويتي وروحي، أعشق جمال شوارعها وصخب أسواقها، وأسير وسط أزقتها الضيقة، أتأمل ورشات الحرف اليدوية المذهلة والمتاجر التقليدية، كأنني أسافر عبر الزمن، في رحلةٍ فريدةٍ ومبهجة، تتلاقى فيها الألوان والروائح والأصوات والماضي والحاضر بتناغمٍ نادر.

الرسم أكثر ما أحبّ. منذ صغري كنت أعثر على راحتي وسلامي وأنا أرسم. يأخذني فنّ الرسم إلى عالمي الخاص، يبعدني هذا الإبداع عن ضوضاء الحياة اليومية، يحملني على التفاؤل، وبه أعبّر عن أفكاري ومشاعري وأحلامي، وأرسم مستقبلي بألوان الأمل. كلّ لوحةٍ أنجزتُها حملتْ جزءاً من روحي وتجربتي الشخصية.

وأتطلّع إلى يومٍ تشارك فيه لوحاتي في معارض بعيدةٍ وكبيرة، يشاهدها الناس في العالم الكبير وتعجبهم، بل وتدهشهم وتلهمهم. هكذا أتشارك موهبتي مع الناس، وأعرّفهم على جماليات فنّ الرسم.

أحياناً تتراءى لي الحياةُ كالمغامرة، إلا أنها مغامرةٌ جميلة، يمتعني أن أخوضها، بكل تفاصيلها.

في بداية الأمر، كنت أعتقد أنّ الحياة تجري بسلامٍ ويسر، وأنّ جميع الناس من حولي مثاليون، أنقياء الروح وطيّبو القلوب مثلي تماماً، أنا التي لا أملك أدنى شعور بالحقد على أحد، أمارس هوايتي باسترخاء، أجلس أمام أدوات الرسم والورقة أو القماشة البيضاء، وأبدأ في التخطيط المتمهّل والحذِر: كيف لي أن أرسم عليها لوحةً متناغمة الألوان كما عناق النجوم في سماء ليلةٍ صافية، كما ينسج الشاعر أبياته بإحساسه، أجسّد صورةً طبيعية نابضة بالحياة. وفي الوقت ذاته أكمل دراستي باستمتاع، وتمضي أيامي كالحلم الجميل، واعدةً ومشرقة.

وجاءت الحرب وغيّرت كل شيء. فقدت حياتنا معالمها الطبيعية، وساد من حولنا الرعب والموت. تسلّل الخوف بالتدريج إلى دواخلي، وبدأ يكبر محطّماً سلام قلبي. وقاومتُ؛ تعلّقتُ بخيوط الأمل الرقيقة، لعلّ الحياة تعود إلى مجراها، وتعود روحي إلى استقرارها وسلامها.

ولم يعد الحالُ القديم ولم نتأقلم مع الوضع الجديد، انكسر الأمل فينا حتى صرنا كلنا في ألمٍ وحزن، نواسي بعضنا بعضاً ولا نفلح. إلى يومٍ دخلت الحرب بيتنا، واختطفتْ من بيننا أخي الأكبر، محمد، فأكملت إنهاك أرواحنا.

كان محمد، بابتسامته الجميلة وقلبه الطيّب، نجمةً في سماء حياتنا، ومصدر إلهامنا، إذا دخل إلى البيتِ يضيئه كشمعة، وتملأ ابتسامته الغرفة، وتملؤني كلماته بالحنان، قبل أن تختطفه الأيادي الغادرة من بيننا.

بدأت رحلة البحث عنه، ثلاثة أيامٍ مليئةٌ بالقلق والحزن وانهمار الدموع واشتداد الألم. في كل يوم يمضي في غيابه، يصبح محمد أكثر حضوراً، ويعزف قلبي سيمفونية الحنين إليه. تفيض ذكرياتي معه؛ ضحكاته، حبّه للقهوة لأننا نشربها معاً، حديثه الدافئ، وثياب العيد هذه، التي بقيت بلا ارتداءٍ لأنه غاب، بينما يأتيني صدى صوته اللطيف يوم اشتريتُها: «أحب هذا اللون عليك، إنه

جميل».

ثم وصلنا خبر وفاة محمد، فتحطّمنا معه. ليست الصدمة في خبر الموت وحده، بل كيف قتلوه، تلك هي الصدمة الأكبر. كان يوماً مشمساً صافي السماء، وكأن الطبيعة لا تدري بحجم آلامنا أو تحاول تهدئة قلوبنا المحزونة. قد أصبح الهواء ثقيلاً من حولنا وتلبّدت سماؤنا، أثقل الحزن العميق قلوبنا وجمّد أرواحنا واجتاحنا الصمت. فقدٌ هائلٌ لا تفيد كل كلمات العزاء في تخفيفه..

لن تنمحي من ذاكرتي ملامح والدي المنكسرة عندما وصلنا الخبر المفجع، ولا حزنه ولا يأسه، ولا الألم الفظيع على وجه أمي، ولا شحوب وجوهنا، ولا الظلمة التي لفّتْ بيتنا. كان لدينا أملٌ أن يكون الخبر مجرد كذبة، أو حلماً سيزول عندما نستيقظ، لكنه كان واقعاً. أصبحت المأساة واقعاً مريراً وعلينا مواجهته والتأقلم معه. ها هو منزلنا يضجّ بالمعزّين، تمتزج على وجوههم هيبةُ العزاء وآلام الفقد وحومان الأسئلة. وكانت الأسئلة نفسها في صدورنا وأذهاننا: مَن الذي قتله، ولماذا، وأين؟ لم يتجاوز محمد الثانية والعشرين من عمره، كان في أحلى سنيّ حياته وذروة طموحاته، ما أقسى فاجعتنا في بلدٍ يُقتَل فيه الأبرياء ويتمجد الظالمون.

على هذه الأرض العزيزة التي نسميها بالوطن، حُرم محمد من حق الحياة، وأصبحنا نحن الأحياء نرقب الرصاص والقتل والدمار في كل لحظة. ومع ذلك، ما زلت أنتظر بصيصاً من العدل، ما زلتُ مصمّمةً على السعي لأستطيع مواصلة حياتي المضطربة، وكل ما فيها من تحديات. وكم من حروبٍ نفسيةٍ سأخوضها لأواجه اليأس والإحباط، وأعيد حياتي إلى طبيعتها وأستعيد إليها أحلامها!

صرتُ أستيقظ كل صباح، أبدأ يومي بشريط صغير من التفاؤل، أوقظ أحلامي، أتوقّع أيّ حدث يخفف من معاناتي المتزايدة يومًا بعد يوم. ولا يتغيّر شيء. صخبٌ واضطراباتٌ تجتاح البلاد، وتُلقي بظلالها السوداء على دراستي، فأُجبّر على إيقافها.

كنتُ أحبّ دراستي بكل جوارحي، وأحلم بالنجاح والتألق، وحوّل الواقع المرير أحلامي إلى رماد، وأجبرني على التنازل عنها. ومع ذلك، لم أفقد الأمل أو التصميم، بل قررت تأجيل حلمي إلى غدٍ يجلب معه الأمل والاستقرار.

ثم دخلتُ في طورٍ جديدٍ من الألم والمصاعب. قد أضحى أبي مريضاً منذ موت أخي الغالي، لم يحتمل فقدان ابنه الأول، أوّل آماله وسنده الكبير، وظلّتْ صحته تسوء وتسوء، حتى أتى اليوم المشؤوم الذي ودَّعنا فيه أبانا. في ليلته الأخيرة، جلست عند قدميه، أتلمّس دفء جسده المتعب، وأشعر بمدى الألم الذي تحمّله بصمت. أدلّك قدميه برفق لعلّي أمنحه الراحة، ظنّني تعبانةً فطلب مني أن أذهب للنوم، لأرتاح أنا وينام هو، لكنني لا أشعر بالتعب، ولا أريد الابتعاد عنه لولا أنه طلب مني أن أذهب للنوم.

لو كنتُ أعلم أنها كانت الليلة الأخيرة، لما تركته للحظة، ولبقيت أراقب تفاصيله وأُخزّن ملامحه. لو كنت أعلم، لقلت له الأشياء التي لم أستطع قولها، ولبقيت أقبّل قدميه طوال الليل، أحاول أن أخفف عنه وأبقى قريبة منه في كل لحظة، فلا شيء كان ليمنعني من أن أظل بجانبه حتى النهاية.

في يوم وداع أبي فاضت الدموع من عيون كل فردٍ من أسرتنا. تجمّعنا حوله في لحظات رحيله، احتضنتْه أيادينا لتشعره بالأمان والراحة، وكلنا نستشعر أنها نهاية حقبةٍ من الحبّ والرعاية، وبداية فراغٍ عميقٍ وشاسعٍ في قلوبنا. انغمست الغرفة في صمت مهيب، وكأن الزمان قد توقف في انتظار مغادرة روح عزيزة. وفي هذه اللحظة الفارقة، وفيما نحن نحتضنه بكل هذا الحبّ، غفتْ عيناه

الحزينتان إلى الأبد.

فارقَنا فارس حياتنا، تركَنا نتأرجح في متاهات الأسى والجراح العميقة وفجيعة الفقدان، وذكرياتٍ عنه لا يمكن نسيانُها، حيّةٌ ومشرقةٌ تضيء طريقنا، تعلّمنا كيف نواجه الحياة بصبر، فإن غاب جسد أبي عنّا، فكل ما عداه باقٍ فينا.

وفي غمرة صراعات الحزن والفقد، ترسخت لديّ حقيقةٌ لا مفر منها: لا تسير الحياة كما نرغب ونخطّط، بل تختبر صبرنا وإيماننا بعد كل فقْد، إن تخطّيناه بثباتٍ وإيمان، سوف ننال أجراً في الآخرة، ونطمئنّ إلى أننا سنلتقي مرة أخرى في روضة الجنة، حيث تتلاقى الأرواح بأمان وسلام.

بدأتُ رحلتي في مواجهة الحزن وتجاوزه، يحملني إصراري على تحقيق سلامي الداخلي والرضا بما قدّره الله. تسير الحياة وتتسارع وتتشابه الأيام، والعمر يمر سريعاً، وكأنّ ما عشته من آلام ليس سوى مشاهد من فيلمٍ رأيته في زمنٍ بعيد. وتعود إليّ مشاهد من طفولتي الباكرة، تأتيني منها مقولةٌ كانت أمي تردّدها: «يا ليتنا نعود صغارًا».

في البداية لم أفهم ما تقصد ولماذا تريد أن تعود صغيرة، فنحن نرى أن الكبار أجمل، وكان أكبر أحلامنا أن نكبر بسرعة ونصبح شبابًا. لكنني الآن أُشبه أمي، أحلم بما يستحيل أن يتحقّق، أقصى أحلامي هو أن أعود صغيرة. بدأت تتملكني رغبةٌ عارمة في الهروب، تمامًا كما لم تكف أمي عن ترديد: «أريد أن أهجّ» وكنتُ أسألها إلى أين تريد الهروب؟ فتجيب بحماس: «على الهفا».

كان (الهفا) هذا مكاناً غامضاً لا أعرف له عنواناً، ربما هو جنة عدن السرية، فكل الأمهات يحلمن بالفرار إليها. وربما هذا الهفا هو المكان الوحيد في العالم حيث يمكن للأمهات أن يعشن في سلام، دون أي إزعاج، وربما مع كوب من الشاي وكتاب جيد.

مضت الأيام على هذا، إلى أن في ليلةٍ باردة، أتذكرها بوضوح، وبكل دقة، الساعة تشير إلى الحادية عشرة ليلاً، والرعدُ يدوّي والمطر يتساقط بغزارة، وأنا أعاني من ذلك الشعور الغامض، غير المفهوم، جلب أخي قطع الكيك، وقمتُ لأحضر حلاوة السميد التي أحبها، ولم أنتظر لتبرد، بدأت بالتهام الحلاوة بشهية، وكانت بمثابة السحور لأنني نويت الصيام لغد، لكنني أحسّ بشيءٍ ما ليس على ما يرام..

ما حدث بعد ذلك غيّر كل شيء، حلّت اللحظة المأساوية تلك، اخترقتْ رصاصةٌ جسدي بلا رحمة، شعرتُ بحرارتها الحارقة تنبعث منها، كاللهب الملتهب، كما لو أنها تحمل بريق الموت نفسه، وتختلط رائحة البارود مع صوت المطر، وكأنها تتلاءم مع ألمي الحارق، بينما تتحفّز روحي للهروب من هذا الجسد الجريح.

شعورٌ يتجاوز الوصف، اجتاحتني موجة من الألم الشديد والخوف المتزايد. من لحظةٍ كان كل شيءٍ هادئاً، إلى لحظةٍ تلتها، دخلتُ في كابوسٍ مرعب. أنا أتأوه وأصرخ من الألم، وأصوات عائلتي تتداخل مع صرخاتي. أمي تبكي وتترنح بين رعبها وأساها عليّ، وصراخ أخي الصغير يتعالى، وأنا أرى ذعره على وجهه، وأسمعه يطلب المساعدة. وكلما زادت أصوات بكائهما، زاد إصراري على البقاء قويةً، فليس الموتُ ما يخيفني، بل فقدانُ من أحب.

وصلنا إلى المستشفى، وأخي لا يزال يتوسل ويردد: «لا أريد أن أفقدها، فقد فقدت أخي وأبي.» دخلتُ في لحظاتٍ ضبابية، وجدت نفسي محاطةً بأجواء الرهبة في غرفة العمليات، بجدرانها البيضاء وأضوائها الزرقاء تتلألأ في الظلام، وتلمع الأدوات الجراحية ببريق مخيف. وسط توتّري الشديد، مدّدوني على السرير البارد، وأنا أرقب كيف يسارع الأطباء لإنقاذ حياتي، وكل جزءٍ من جسدي يصرخ من الألم والخوف، إلى أن غيّبني التخدير عن الوعي، وأنا مصرّة على البقاء، لأنني أعلم أن عائلتي بحاجتي.

بـدأتُ أستفيق مـن التخديـر، ولا تـزال آثـاره تسـيطر علـيّ، لدرجـة أن أول شـيءٍ سألته: «أيـن جواربـي؟» كان اهتمامـي الوحيـد هـو: هـل أعـادوا الجوربين إلى قدمـيّ أم لا! كأنّ جواربـي كنـزٌ ضائـعٌ فـي عمـق المحيـط، كأننـي أفكـر بعمـق: مـا الـذي يمكـن أن يكـون أكثـر أهمية مـن الجوارب فـي هذه اللحظـة؟ أو كيف سـأخرج من المستشـفى من دون جوارب أرتديها، وكأنني أمشـي على السجاد الأحمـر في حفـل زفاف!

تلاشـى التخديـر وبـدأ الواقـع يتضح، كلّ ألمٍ سـابقٍ لم يكن سـوى بداية المعركة الحقيقية. أخبروني أنّ وجودي في المستشفى سيطول، وهذا يتطلب مني قوةً وصبراً لمواجهة ما هو قادم. وبدأتُ أدرك كم كنت أعيش في نِعمٍ لم أكن أقدر قيمتها. أصبح التنفس بحرية أكبر نعمة، وبلعُ الريق، الذي كان فعلاً تلقائياً، صار يعيقـه الأنبـوب الموصـول مـن أنفي إلـى معدتي، وأريـد المـاء ويمنعونه عني، ولا يخرج الكلام مني إلا بصعوبة، ويثقل جسـدي بأنابيب التصريف التي غرسـها الأطبـاء فيـه، وكل حركةٍ بسـيطةٍ تحدّياً، وأعاني لأسـتطيع الجلـوس بمفردي من دون مسـاعدة، وإن جلسـتُ لبضع ثوانٍ تكاد أنفاسي تنقطع..

وصلـت إلـى مرحلـةٍ أحسـد فيهـا من ينـام على جانبـه الأيمن أو الأيسـر، وأصبح النوم ترفًا لا يُطال، ولا أستطيع فرد ركبتيّ أو قدميّ بعد أن كان تحريكهما نعمةً يسـيرة. سـيمرّ أسـبوع مـن الألم والمعانـاة حتى أسـتطيع الوقوف علـى قدميّ وتعلّم المشـي من جديد.

سـاعدتني أمـي وصديقتها على الوقوف، وعلى السـير فـي خطواتي الأولى مثل طفلة تتعلم المشـي لأول مرة، وكأنني أعيد اكتشـاف الحياة من جديد. شـعرتُ بإرهـاقٍ بعـد خطوتيـن فقـط، ورغبـت فـي الجلـوس. لـم أكـن أتخيـل أن المشـي لمسـافة ثلاثة أمتار سـيتطلب كل هذا الجهد. وأنا التي كانت خطواتي سـريعة، ويُضجرني المشـي البطـيء، أصبحت خطواتي ثقيلـة وبطيئة..

وبفضـل الله وشـجاعتي وعزيمتـي الصلبة وإيمانـي ومثابرتي، تجـاوزتُ ضعفي وقاربتُ التعافي جسـداً وروحاً. لم يكن الانكسـار خيارًا بالنسـبة إليّ. فبعد موت أبـي وأخـي وإصابتـي وألمي وحزني، كان تحدّياً حقيقياً أن أسـتطيع دفن يأسـي، ثـم النهـوض وبدء رحلة الشـفاء التدريجيّ بكل إيجابيّة.

تعلّمـت قيمـة الصبر والتفـاؤل، وأدركت أن الحياة لا تتوقـف مع المصاعب، بل تعلّمنا دروسـاً جديدةً مع كل تجربة، وتمنحنا الفرص وتدفعنا إلى أمام لنخرج منها أقوى مما كنا، فرغم غياب أحبابي الجسـدي، كانوا مصدر إلهام لي لأكون أقوى وأكثر إيمانًا.

لم تكن رحلة الشـفاء سـهلة، وخلالها كنتُ ألوذ إلى الرسـم. إبداعُ اللوحات كان طريقـي لأتخطّـى الألـم والحـزن. عـدتُ أرسـم وعادت أحلامـي تتحقّـق، وها هي مسـيرتي تعود لتسـتكمل نفسها..

شاركت في معرض للرسم تحت عنوان: «إحياء الأمل»، جاءت مشاركتي بمحض الصدفة. لا زلت أتذكر أول مرة وطأتْ قدماي المركز، كان فيه جمعٌ من الآنسات ذوات الأخلاق الرفيعة. من بينهن الآنسـة نجوى، عرفت اسـمها حين ناداها أحد زملائها. جذبتني ابتسـامتها المشـرقة كالشـمس، وعيناها الضاحكتـان ببراءة، ووجهها الجميل المفعم بالتفاؤل. ولحسن حظي، كانت مشرفتي. في كلّ لقاءٍ معهـا، تدفعنـي بكلماتها إلى أمام، ويمنحني لطفها الطمأنينة، وكأنها تبثّ فيّ طاقتها الإيجابية.

فرّغتُ في الرسـم كلّ شـعورٍ يعتمل في داخلي. تمنيت لو أنني أسـتطيع رسـم مشاعر الفرح، إنما طغى الحزن على لوحاتي. سيطر اللون الأسود والفحم على لوحاتـي الأولـى، تجسّـدتْ فيها مشـاهد الحزن والحرب والقتـل والهجرة. كانت تنطق بحقيقة مشـاعري. ولكنها كانـت جميلة بطريقتها الخاصة.

كان هناك نورٌ يضيء خلف كل لوحة، يأتي من دعم أمي التي لم تفارقني لحظة واحدة. كانت دائمًا بجانبي تقوّيني حين أضعف، تراقب كل ما أرسم، وتلهمني بالأمل. كان وجودها بلسماً، وكوكباً يهديني في ظلام الليل.

علمتني أمي أن الإبداع لا يتطلب القدرة على الرسم وحسب، بل وأيضاً قوةً داخليةً وحبّا. وكنت أتواسى بحضنها وكلماتها لتدخل في لوحاتي مثل الألوان والمهارات، أبقتني مساندتُها على قيد الأمل، في حين كان العالم من حولي يذوي. بفضل دعمها صرتُ أستشعر الجمال حتى في لوحاتي الحزينة، كل لوحة تعبيرٌ عن رحلة مضنية، وكذلك عن حبٍّ لا ينضب.

اقترب موعد العرض، وبدأتُ في تعليق لوحاتي في الزاوية المخصّصة لي، وأنا مفعمة بالحماس. وحين بدأ المعرض أسرعتُ إليه بمشاعر متدفقة، تختلط ما بين الارتباك والتشوّق، وعيناي تراقبان كل زاويةٍ فيه، وابتسامتي تحاول إخفاء توتري..

هذا أول معرض أشارك فيه، وأكثر ما أرصده: نظرات الزوار..

سألني أحدهم: «كيف تستطيعين رسم وتجسيد آلام ومعاناة المرأة وأنت في عمر صغير؟» فقد ظنّ أنني امرأة كبيرة. وكان بودّي لو أجيبه: وهل تظنّ أنّ الأطفال والشباب لا يعانون؟! نحن جيلٌ نشأ على الحرب والقتل، لم نعش طفولتنا ولا شبابنا..

لكنني اكتفيت بجوابٍ بسيط: «لستُ امرأةً كبيرة، ولكن لديّ أم، وأعرف معاناتها جيداً»

كانت تلك التجربة مفصليةً بالنسبة إليّ، أخذتني في رحلةٍ شبيهة بمسار حياتي الشخصي. لقيت أعمالي إعجاب الإعلام والزوار، ورفعتْ ثقتي بنفسي، وأظهرتْ لي كم أنا قادرةٌ على تحقيق أحلامي.

كان اسم المعرض «إحياء الأمل»، كان حقاً جرعة آمالٍ أحتاجها بشدّة، ونقطة تحوّلٍ في حياتي. فتحت أعمالي الفنية أبواب الإيجابية في قلبي، وأعطتني القوة للمضي قدماً، ولا أتوقف عند ظلمة أيامي وشكوكي وقلقي.

وبدأتْ نجاحاتي تتوالى مع الأيام. سجلت في الجامعة وبدأت دراسة إدارة الأعمال، وحصلت على لقب (نيردة الدفعة). كما شاركت في معارض للفنون، ولاقت أعمالي إعجاباً كما في معرضي الأول، وكانت دمشق حاضرة فيها كلها، تنبض في كل سطر ومشهد.

حضرتْ أصداء دمشق العتيقة، مدينتي العريقة، وستظلّ حاضرةً في صميم لوحاتي، بشوارعها وأزقّتها الحيّة، بجمالها الذي لا يبهت، بروحها وألوانها، بقصص صبرها وأملها، بقوتها التي تحاكي ما تعلمته من رحلتي في الحياة..

4

صوت الموت

سماهر دياب

نعم، إنها الورقة والقلم حين نسكب أوجاعنا عليها، تخرج بطيب نفس، فيرتاح القلب وتهدأ الروح..

ليست الثورة جرحًا يندمل بين ليلة وضحاها، وليست كلمةً يتبدّد صداها على المدى البعيد. الثورة في بلدي فوهة بركان، تتناثر حممه لتطال كلَّ ما خلق الله، يحترق كما نحترق نحن كل يوم، بل كل لحظة، لتزهر الحياة فينا بعد ذلك..

يتربع بيتنا على هضبةٍ عالية، يحسدنا الآخرون على أمنها. وتفاصيل صباحاتنا فيه مرهفة، فوحُ زهر الياسمين، تناغمُ زقزقات طيور الكنار، رائحة القهوة التي أعدّها يومياً، ركضي من غرفة إلى أخرى وأنا أنادي أولادي: أفيقوا.. أفيقوا، متعتي بظفر جدائل ابنتي الصغيرة، عادة زوجي في اصطحابنا أنا وأولادي إلى مدارسنا..

في ذلك الصباح الخريفيّ الهادئ، ملكتُ وقتاً لأتأخر عن المدرسة، فأنا المديرة، ومعاوني سيسبقني ويسيّر العمل. لأول مرة لا نخرج معاً في السيارة. وقفتُ أرقبهم، وشام تنظر إليّ وتبتسم وتلوّح بيدها مودّعة، سمعتُ زوجي ينبّه الأولاد: «لا تصعدوا إلى السيارة حتى أتفقدها..» كنا قد سمعنا ليلاً جلبةً في الشارع، وصوت إنذار السيارة، وخرجنا ولم نجد أحدًا!

سمعته، فأقشعرّ بدني وتوقف الزمن. حاولت الالتفاف، ولكنها القيامة قد قامت. لحظتها أدركت أن الطيران والقذائف والكيماوي وكل أسلحة القتل الجماعي لن تضاهي لحظات رعبٍ عشناها أنا وزوجي وفلذات كبدي. انفجار ضخم، لا يوصف، ضوءٌ ساطعٌ ولهيب نارٍ اخترق بيتي. أحدهم زرع لغم دبابةٍ تحت سيارة زوجي، زرع الموت لعائلةٍ لم تقترف أي ذنب، لكنه الحقد الدفين في نفوس الأشرار..

قطع صوت ابني الذهول الذي لفني وهو ينادي: «ماما، أنا احترق..»

لم أعِ شيئًا، النار تأكل ابني وهو يتلمس الجدران متسربلاً بها يحاول إطفاءها. رحتُ أصرخ، والنيران تجتاح باب بيتنا، والرجال في الخارج يخشون الدخول خوفًا من مفخخةٍ ثانية قد تنفجر. قفزوا من أعلى السطح ليخرجونا. رأيتُ ابنتي عند الدرج، تتيتّم الحياة في وجهها، وتنال النار من جدائلها الذهبية، وساقاها تتشظّيان.. ظننتُ زوجي قد مات، فأنا لا أسمع سوى أصوات أولادي.

فجأةً شهقتُ لرؤية زوجي حيّاً، مذهولاً، ممزّق الثياب، ينزف من كامل جسمه. ركضتُ إليه أهزّه: «نحن بخير..»

لفوني بغطاءٍ يحميني من لهيب النيران وأخرجوني إلى بيت جيراننا. وابني أمامي، يسيل دمه على الأرض، كأنه قطعةُ قماشٍ تقطر دماً، وأحدهم يسعفه..

هو الموت، ربما اختار ابني.

تلاشت قواي التي عهدها فيّ كلُّ من عرفني..

«أريد رؤية تيم.. أين عمار؟ ماذا جرى لشام؟»

تصبرني الجارات وأصرخ: «أريد رؤية أولادي!»

لمحت ابني الكبير، عمار، تكاد عروق وجهه تتفتّق من شدة احتقانها. ثمّ؛ كأنّه يصرخ بأعلى صوته، أقرأ حروف أسمائنا على شفتيه، لكنني لا أسمعه! وعيتُ لحظتها أني أنا التي لا أسمع صراخه، كأنّ أذنيّ تمسّكتا بأصوات التفجير ولم تعودا تسمعان سواه!

ابني عمار يركض باحثا عن أبيه وأخته الوحيدة، عن أسرته، ليجد النار والدم والحديد، وكل شيء يبكي.

اندفع نحو ذلك الطفل الصغير الذي تحلق الناس حوله ليحملوه محترقا ونازفاً، واليأس يلفنا لهول ما نرى..

اندفع عمار نحوي يسألني، وعرف أنّ ذلك الطفل الذي حملوه إلى المشفى، كان أخاه الصغير.

أخذوني إلى المشفى، رأيتُ عينيه الخضراوين تختبئان تحت رموشه الذهبية، قد احترقت هي وشعره. كله ينزف، حتى قدميه، من شظايا حديدٍ غُرزتْ في جسده الصغير.

وإن طال الزمن، لن يفارق صراخه أذنيّ وهو يناديني: «ماما، ماما... ماما، أريد أن أخرج. خديني إلى البيت.»

بدأت أواسيه وأنا المتهالكة أمامه، تقويني أمومتي وتطفئ حرارة جروحه دموعي.

أخرجني أخي وانطلق بي إلى البيت لأرتاح، فإذا بي وجهاً لوجه مع ما كان بيتنا أو مسكننا. جدرانٌ متهالكة ونوافذ يختلط زجاجها بدماء أولادي. وماذا بعد؟ ماتت العصافير واحترقت الأزهار وتلاشت الضحكات..

سارت الأيام، بدأت الجروح تتعافى، والحروق تتشافى، لكنّ النفس ظلّت تعاني.. دخلنا في أسوأ حالٍ نفسيّ، يلفنا الرعب والخوف مع كل نقاشٍ وتحقيقٍ من الشرطة عن المشتبه بهم. لم يكن لنا أعداء. بدأنا نشكّ بمن حولنا، من يكرهنا إلى هذا الحد؟ ماذا فعلنا؟

من هذا الذي قُدّ قلبه من حديد حتى يحمل لغم دبابة لسيارة عائلة، ويراقب من بعيد ليكبس زر التفجير حين تتحلّق حولها؟

شهران أو ثلاثة، وحالة الدمار النفسيّ لا تفارقنا، زوجي شارد، ووجهه إلى النافذة طوال الليل، والكوابيس تلاحقني كل ليلة، أنهض بحلقٍ جافٍّ وجبينٍ بلّله العرق، أبحث عن أولادي.. وابني الصغير، عمره أحد عشر عاماً، يبكي من آلام حروقه وكسر عظامه، ينام بجانبي كل ليلة، يمسك بيدي ويلتصق بي، ويفيق من نومه مذعوراً: «ماما، شفتو، شفتو عم يحط اللغم؟ ماما، بدنا نهرب..». وأحتضنه لعلّه يهدأ..

وينتابني الهلع لمجرد التفكير بركوب سيارة. صرت أذهب سيرا على الأقدام. كذلك ابنتي الصغيرة، رفضت الصعود إلى سيارة الروضة قائلة: «ماما، ما بدي أموت، ماما، ما بدي..»

لكن بيتنا المعتلي تلك الهضبة المرتفعة، يصعب الوصول منه إلى مركز المدينة من دون سيارة.

كثيرًا ما ألح أهلي عليّ بضرورة العلاج النفسيّ، ولم أكن في البداية مقتنعةً بحاجتنا إليه.

أخيراً قررنا الخروج مما نحن فيه من فزع. تواصلنا مع طبيبٍ مختصٍ بالصحة النفسية والسلامة العائلية، وواظبنا على العلاج وتطبيق التقنيات، ودفعنا مالاً كثيراً، وأدهشني كم أثمر هذا العلاج!

نصح الطبيب زوجي بضرورة شراء سيارة، وإن اضطر لاستدانة ثمنها، أو انتقاها رخيصة، المهم أن يقتني سيارة من جديد لكسر هذا الحاجز. وقامت الدنيا ولم تقعد بيني وبين زوجي: «لاااااا، لن أركن سيارة بجانب بيتي..»، واستطاع الطبيب إقناعي بضرورة ذلك، واشتريناها بالفعل..

أنا الآن سعيدة لأننا اجتزنا مرحلة الرعب، لا أنسى تلك اللحظة ونحن نركب فيها. ربما يظن الناس أنني أبالغ، لكن لا.

الموت، الرعب، الشر، كل ذلك يحيط بنا، ولكننا تشجعنا لأجل أطفالنا، لأجل صغيرتي التي حُرمت من روضتها، لأجل ابني الذي ما عاد كسائر عهده.

وركبنا لأول مرة، منطلقين إلى ذات الأماكن التي قصدناها سابقًا. تسير السيارة بنا، ونحن ننظر إلى بعضنا، ثم أطلقنا ضحكة كبيرة، كلنا، حتى زوجي.

هههههههه

«يا سلاااااااام، سيارتنا الجديدة!»

هههههه

كانت أيام ما بعد التفجير صعبة جدًا، ولكنني استطعت احتواء أسرتي بثباتي، وعدتُ إلى دوامي كمديرة، وقد فجّر الحادث الفظيع في داخلي قوةً إضافية، لأحوّل مدرستي إلى منارةٍ يقصدها الطلاب من عفرين كلها. كذلك تغيّر أولادي وزوجي إلى الأفضل.

بعد ستة أشهر، وسلسلةٍ من التفجيرات كان آخرها بفعل طفلٍ يركن دراجة نارية عند تقاطع طرق، ألقوا القبض عليه وتفاجأنا، بل صُدمنا بأنه جارنا، تمّ تجنيده من قبل حزب معادٍ للثورة، ليضع المفخخات في أي مكانٍ لا على

التعيين. هذا الرجل الذي أتى بعد التفجير وتناول الطعام عندنا، كم هو وقحٌ وشرير، بل هو الشيطان لا محالة. كنا لا نزال تحت صعقة الخبر حين أتت زوجته البلهاء تعتذر. لم أقصد جرحها، غصباً عني صرخت فيها: «عمّ تعتذرين؟! عن موتي أنا وعائلتي، عن موت الأطفال؟»

ارتاحت سريرتنا بعدها. خرجنا من دوامة الخوف المترقب بأن أحدهم يريد أن يغتالنا شخصيًا. أكملت دربي إلى أمام، وحدثَ أن التفتُّ خلسة إلى الوراء، أتذكر ذلك المشهد، يحفر الدمع وجعه على جفوني ويبلّل خدّيّ..

إنها الحرب، حممها البركانية، تترك خلفها ضحايا على الأرض. ويمرّ الزمن وينبت زهر الحياة فوق تربتها الخصبة، ونكمل حياتنا بنشر الحب والسلام، ونقول لا للبغض والكراهية.

وها أنا اليوم أملك الشجاعة لأكتب..

نعم، إنها الورقة والقلم حين نسكب أوجاعنا عليها، تخرج بطيب نفس، فيرتاح القلب وتهدأ الروح..

5

حروبٌ وحب

زينب حنّا

كم حدثنا أجدادنا عن حروب يتقاتل فيها البشر منذ بدء الزمان، منذ كانت أسلحتهم الحجارة وبقايا عظام الديناصورات.. وقبلها، حين لم يكن على الأرض سوى الأخوين قابيل وهابيل، ووسوس الشيطان لقابيل بقتل أخيه بكل حقد، ودون أدنى رحمة ..

نزاعاتٌ امتدّت من جيلٍ إلى جيل، وظلّتْ تزداد عنفاً، حتى بلغت ذروة قسوتها أيامنا الحاضرة. إنما لم أتوقع أنّ دمار الحروب التي أشاهدها على التلفاز، سوف يصبح واقعاً يلفّنا من كل صوب..

دُقت طُبول الحرب، هبّ لهيبُ نارها ينذر بالموت القادم، ويرتسم الرعب منه على وجوه العباد.

جابت صافرات الإنذار شوارع مدينتنا، بينما أنا وأختي في السوق نشتري حاجات منزلنا.

«يا إلهي، ما هذا، ماذا يحدث»؟، قلتُ وأنا أرى بشراً يركضون حولي بوجوهٍ مرتعبة، يحاولون الاختباء من الموت..

ساعاتٌ قليلة، وبدأ الطيران يحوم في السماء، وتزحف الدبابات إلى الشوارع، وأنا ذاهلة!

شحب وجه أختي مع اشتداد الدويّ، بدتْ تحاول أن تتمالك نفسها كيلا تقع على الأرض من شدة خوفها، تنهمر دموعها مثل قطرات المطر. لحظتها تذكرت

أنني الأخت الكبرى وواجب الكبرى أن تخفّف خوف أختها الصغرى، علينا أن نكون أقوى من الظروف.

قلتُ بسرعة: «هيا بنا إلى القبو»! ظنّا أنها مجرد ساعاتٍ وتمرّ، ولم نتوقّع أنّ الحرب ستنتشر كأوراق الشجر في السماء، تنتقل من بلد إلى آخر، وأينما حلّتْ تترك خلفها قتلاً وتشرّداً وبشراً مفقودين.

سكن الرعب في قلبي حين جاء أخي إلى بيتي. سألنا: «هل ستبقون هنا أم سترحلون إلى القرية؟». نظرنا إلى بعضنا أنا وزوجي وأفراد عائلته، حصل جدالٌ خفيفٌ بيننا، بعضهم يريدون البقاء وآخرون الرحيل.

همستُ لأخي: «عائلتنا في خطر، لهذا سنغادر إلى قريتنا، هناك نكون آمنين، ثم إنّ قريتنا جميلة، وفيها ذكرياتنا وقبور أجدادنا». لكنّ زوجي ظلّ صامتاً، قلت له: «اذهب وأحضر أباك وأمك لنذهب كلنا إلى القرية، هما كبيرا السنّ ولا يحتملان كلّ هذا الخوف.»

تنهد زوجي وقال: «أعرف أهلي، لا يتركون منزلهم الذي عاشوا فيه لسنوات. أنتِ ضبّي غراضك وروحي مع أخوكِ للضيعة..» تطلّعتُ فيه مستغربة: «وأنت، ألن تذهب معنا؟»

تنهد مرة أخرى وهزّ برأسه.

فهمتُ أن قرّر البقاء مع والديه، وسيتركنا نحن للقدر المجهول.

جاء أخي وابنه يلهثان. قال ابن أخي: «أعطوا المدينة ثماني وأربعين ساعة لقصفها من جديد، خلينا نهرب للضيعة قبل بدء القصف، يلا بسرعة ضبّوا اغراضكم واركبوا السيارة»

لم يرد أخي المغادرة، فهو يشتغل هنا وهذه السيارة مصدر رزقه!

صعدنا وسارت بنا سيارة أخي، أوصلتنا مساءً إلى بيتنا القديم، إلى حيث اعتقدنا أنفسنا آمنين.

رفعتُ قاطع الكهرباء، وبدأنا نفرد أغراضنا. فجأةً سمعت صوت انفجار قويّ، لم أعرف مصدره ولا ماذا خرّب. هرعتُ بأولادي إلى غرفتنا الصغيرة وأغلقنا الباب حتى الصباح.

خرجنا أنا وأخي نحو بوابة البيت، وإذ بقذيفةٍ صاروخية اخترقت سيارة أخي ودمرتها، نظر إليّ غاضباً: «أنت السبب، لم أكن راغباً بالمجيء إلى القرية، وها هو مصدر رزقي قد دُمّر»

ملأ صوتُه اليائس عينيّ بالدموع، سكتُّ ولم أنطق بحرف. كل ما سأقوله سوف يزعجه أكثر.

قال لي بعد أن هدأ: «لا تؤاخذيني يا أختي، عصبت عليك.» أراحني اعتذاره، شعرتُ أنه أخيراً سلّم بالأمر الواقع الذي صرنا إليه.

لكنّ جارنا محمد جاء إلينا يتأفف من سوء الحال. قال: «أنا ما بدي ضل هون، انقطع نصيبي من ماء هذه القرية.». ودّعنا وصعد مع عائلته إلى سيارته، ومعهم عائلات أخرى، هاربين من القذائف هنا إلى بلدةٍ يظنّونها آمنة.

حاول محمد أن يسلك طريقاً ترابياً مختصراً، وهو لا يدري أنه آخر طريق يسلكه في حياته، وسوف ينقله إلى عالم آخر. انفجرت سيارته به وبأطفاله. قفز محمد إلى الأرض محاولاً إطفاء الحريق الذي شبّ في جسده.

تجمع الناس لإسعافه، فصرخ وعينه على أولاده: «بالله خلّصوهم أولاً..». ركضوا لإخراجهم من تحت النيران ونقل الأسرة كلها إلى أقرب مشفى، ومحمد يناظر أطفاله خوفاً عليهم من الموت، وهو لا يعرف أنه قريب جداً منه. وقع من طوله على الأرض، نقلوه إلى العناية المشددة، وفيها فارق الحياة بسبب نزيفٍ داخلي لم يشعر به أثناء التفجير.

مرت ثماني وأربعون ساعة، والمدينةُ بكاملها تُقصف بالمدفعيات والصواريخ. هطلت الأمطار، وساد الظلام، وانقطعت الاتصالات.

صعدت إلى سطح المنزل لأرى ما يحدث، يا للهول! الكلّ هاربون صوب الجبال، لا ضوء سوى من أرتال السيارات الكثيفة في طريق خروجها، قلتُ لنفسي ربما لم يبقَ هنا إلا العجّز وكبار السن.

رنّ هاتفي، جاءني صوت زوجي صارخاً: «ارجعي بسرعة مع أطفالنا، سنرحل إلى الطرف الآخر من المدينة، ولا نعرف متى سنعود». ردّ أخي عليه: «لا يمكنها الخروج من القرية، تمركزت الدبابات حول كل الجواجز، ستقصفنا، لن تتركنا نعبر أحياءً»

رحتُ أبكي، ودقات قلبي تتسارع، وشعرتُ بزوجي يبكي ويحاول أن يظلّ صوته متماسكاً ليقوّيني: «ديري بالك على اولادنا، وإذا الله كاتبلنا عمر، أكيد راح نشوف بعضنا.» وأغلق الهاتف.

شعرتُ بغمامةٍ سوداء تحتلّ قلبي، وشبح الموت يحاوطني. تطلّعتُ إلى صغاري وأفكاري تدور: كيف، لا سمح الله، سأمضي مشوار حياتي وحيدة؟

لم نستطع النوم ليلتها، كلنا ندعو بالسلامة والأمان للجميع. أشرقت شمسُ صباحٍ جديد، وكلنا مكتئبون. رأينا رتلاً من الدبابات وقاذفات الصواريخ تدخل إلى القرية. اشتدّ خوف أمي المريضة بداء القلب. أمسكت بيديها المرتجفتين:

«لا تخافي يا أمي، إنهم يعبرون فقط، لن يقصفونا..»

ورحل الجيش فعلاً بعد ساعات، لكن خوفَ أمي لم يرحل، وقعت على الأرض مغميّاً عليها. حملها أخي بين ذراعيه باحثًا عن أيّة وسيلةٍ لنقلها إلى المشفى. غاب أخي عدة ساعات، والقلق يأكلنا؛ هل أصبحتْ أمي بخير، ومتى ستعود هي وأخي؟

عادا من المشفى مساء اليوم التالي، وأمي أحسن حالاً، وقد نصحها الطبيب بالاهتمام بصحتها واتّباع غذاءٍ صحيّ كيلا تتعرض لأزمةٍ قلبية أخرى. نظرتُ إليها، نعم إنها تحتاج إلى تغذية، أقلّها الفواكه. وكانت جميع المتاجر في ذلك الوقت مغلقة، ولا طعام لدينا. خرجتُ وأنا لا أعرف كيف أتوجّه للبحث عن أيّ دكانٍ مفتوح، سأشتري أية فاكهةٍ أجدها.

على يميني رأيتُ دكاناً تضرّر بابه بفعل قذيفة، وفيه بضعة أنواعٍ من الفاكهة. قلت لنفسي: (يا ربي، بدي أخذ كم حبة مشان أمي ما تموت من جوعها، سامحني يا ربي).

عدت إلى المنزل أحملها وأبتسم. قدّمتُها لأمي فرفضتها. قالتْ لن أذوقها إن لم أعرف مصدرها! اضطررت للتحايل عليها كي تأكلها وإلا سيسوء وضعها. قلتُ: ذهبت إلى جارنا في الطرف الآخر، شرحت له وضعك وطلبت منه هذه الثمار. قالت: (إذا هيك، باكل)!

أنا أيضاً جائعةٌ ودائخة، وأطفالي ينتظرون الطعام، وليس عندنا شيءٌ يؤكل. أخذتُ سكين المطبخ، وهرعت مسرعة إلى الأرض لقطف حشائش منها. أشعلت النار، وضعت القدر فوقها، أقلّب الحشائش داخله لتصبح طعامًا شهياً ومفيدًا.

لكنّ صغاري يريدون الخبز مع الطعام، ولا قطعة خبزٍ عندنا. جلبتُ القمح من الخزينة، طحنته بحجر الرحى القديم الموجود عندنا، صنعت دقيقًا وخبزتُ وسوف أصنع منه بضعة مأكولاتٍ لذيذة.

إلى متى ستدوم الحرب، إلى متى سنظلّ نهرب من الموت؟ عيناي المليئتان بالدمع تناديان: «يكفي بكاءً» وأحشائي تنادي: «يكفي جوعاً» وجسدي ينادي: «يكفي برداً وتشرداً» ويخنقني اليأس.

بعد انقطاع أخبار زوجي لأسبوع، رنّ هاتفي باسمه. قال: «أنا قادم بعد يومين..» انعقد لساني من شدة فرحي بسماع صوته ولهفتي لرجوعه إلى أطفاله. كنتُ قد ظننتُ أن الموت دخل بيننا وفرق شملنا.

عاد إلينا سالماً، مع والديه المسنّين.

في ظروف الخوف والأوجاع والصراعات، يولد الحبّ أيضاً. قد يولد بين عاشقين صغيرين لم يعرفا من الدنيا سوى الحروب والهروب. سألت ابن أخي: «ما بك؟ لماذا تضطرب كلما نظرت إلى ابنة عمك الصغيرة»؟ ردّ عليّ: «لا أعلم. أعلم فقط أنّ قلبي يخفق عند رؤيتها، وأنني سأحارب الدنيا من أجلها».

كان يرتجف؛ فالحبّ جرمٌ فظيعٌ وسط أحكام العادات والتقاليد، وخاصة بين أبناء القرى. وكانت نظرات أحدهما إلى الآخر أكبر اعترافٍ بالحبّ. وقد لحظ كل أفراد عائلتنا حبّهما المتبادل.

أمسكتُ بيديه أطمئنه على حبه النابت بين الأشواك، وأنّه بعد كل دربٍ مرير لابدّ من استقرار قريب.

قلت له: أكتم ما في قلبك، وسوف أساعدك وأدعمك. وتوسّطتُ لدى الأهل لأجعلهما سعيدَين، فانتهى هذا الحب فعلاً إلى زواجٍ سعيد.

كنت أُصلي صلاة الفجر حين أحسستُ بالأرض تميد ورأسي يهتزّ، لم أُدرك للحظة ماذا يجري، كان زلزالٌ قويٌ يضرب الأرض، وتزداد شدته.. عمّ صراخ الناس المكان، طوّحنا الزلزال كلٌّ في اتجاه. رحتُ أصرخ: أطفالي، أطفالي، أين أنتم؟ لا أراكم في هذا الظلام، أين أنتم؟

وهم يصرخون: يا أمي، نحن هنا. في الزاوية. أشعلت القداحة لأرى أمامي، وركضت لاهثةً لأحضن صغاري الهلعين.

ياإلهي، أرحمنا برحمتك يا الله.. أهو حلم؟ أم أنه يوم القيامة؟

كنتُ قد ظننت أن الموت رحل عنا بعيداً، وها هو يأتي متنكّراً بلباسٍ جديد، يريد سلبَنا كل شعورٍ جميل. ربما لأننا نسينا للحظة أن الحياة ليست ملكنا، وأننا مجرد عابري سبيل. نسينا الرحمة، نسينا الأمانة، نسينا الصدق والوفاء. أصبحنا جامدين كالحجارة، تبلّد فينا الإحساس، فاستغل الموت طرائقه للوصول إلينا وإلى أحبابنا، عبر هزةٍ أرضية مدتها عشرون ثانية أو أقلّ، كانت كافيةً لتعيد الدمع إلى عيوننا بلا انقطاع.

هدأ الزلزال، وتوقفت الأمطار، وأشرقت الشمسُ، وانكشف وجهٌ جديدٌ للدنيا، يصعب تصوّره إلا في الخيال أو في الحلم.

بيوتٌ مدمرة، أسقف متراكمةٌ فوق بعضها، أطفالٌ يصرخون من تحتها، ورائحة الموتِ في كل مكان، بكاء الآباء والأمهات على أطفالهم، على أحبائهم، على جيرانهم.

صرتُ أركض كالمجنونة، يميناً وشمالا، أبحثُ عن جارتي المريضة جداً، وأطفالها. «أم أحمد، أين أنتِ»؟ بالكاد أسمع أنينها الخفيف تستنجد، تناديني: «أنا هنا، أنا هنا. ابحثي عن أطفالي، أرجوكِ». تلفتُّ يساراً إلى الغرفة المجاورة، أحمد يصرخ ويئنّ: «ساعدوني، أرجوكم»!. ركضتُ إليه أزيل عنه الأتربة والحجارة،

أمسكتُ بيده المرتجفة من الخوف، أطمئنه أن سآخذه إلى أمه، وهو يصرخُ بألم: «أمي، أريد حضنكِ يا أمي..»

دقائق معدودة، واختفى صوتُ أحمد، راح إلى جنات الخُلد، راحلاً بلا عودة، سينام فيها إلى الأبد.

بدأت رحلةٌ جديدة؛ رحلة البحث عن الموتى والأحياءِ تحت الرُكام.

والجرافاتُ قليلة، وأدواتُ الحفر يدوية. أين أنتم يا عالم؟ نريد المساعدة..

مرّت أسابيع، وأصبحت الأرض شبه مستقرة، لتبدأ الحياة بالعودة إلى طبيعتها، على أمل أن تكون الهزة الأرضية عبرةً للناس، ليعودوا إلى رشدهم ويكفّوا عن النزاعات والحروب والظلم. لكن للأسف، لا يتعظ البشر.

كان في حيّنا مجموعة شبابٍ فاسدين ومفسدين، زعران ينشرون الرعب في المدينة. وذات مساء، ونحن جالسون نشاهد التلفاز، ملأ صراخهم الحي، وهم يستعرضون أسلحتهم كأنهم في ساحة حرب، ونسمع أصوات قذائفها.

اختبأنا جميعًا في الغرفة الداخلية، لكنّ قذيفةً اخترقت جدار بيتنا، امتلأ غباراً، ولبثتُ أحضن أطفالي، أمسك بأياديهم وهم ينظرون إليّ، وأحاول التماسك كيلا يروني خائفة.

تساءل أطفالي: متى ستنتهي القذائف ونعود للمشي واللّعب بلا خوف؟

ولا أملك أي جواب. تمرّ الشهور، وأوقن أنّ الاعتياد على هذا الوضع يعطيني وأطفالي قليلاً من الاطمئنان.

حتى ذلك الوقت كان مئات الأهل قد استشهدوا، وتركوا أطفالهم يتامى وبلا تعليم. قررت دخول مجال تعليم الأيتام. أستيقظ صباحًا، أشرب فنجان قهوتي، التي أصبح طعمها مرّاً كما الحياة التي نعيشها. أجهز نفسي للذهاب إلى عملٍ سيعيد لهؤلاء الأيتام رغبتهم بالحياة، أجهز لهم مقاعدهم الدراسية. ألمس رؤوسهم بحنان، أضمّهم إلى قلبي، أكون لهم سنداً، أمدّهم بكل طاقتي لأُقصي مخاوفهم، أعلمهم معنى السير إلى أمام رغم الظروف القاسية، لعلّهم يستعيدون حياةً كريمة. أزرع فيهم بذرة الطموح.

أنظر إليهم، أراهم يتعلّمون، أرى الاطمئنان في عيونهم كأنهم في بيتهم الثاني.

وبدوري صرتُ أستمدّ من هؤلاء الأيتام قوتي وحيويّتي، حتى صغاري لاحظوا ذلك..

نحن الشجاعات نروي حكاياتنا

6

عسل الكسل

روز عبد القادر

أنا نيروز. هناك قصة سمعتها في صغري، لأنقلها إلى ابنتي جنى حين تكبر.

كانت هناك نملةٌ نشيطة، تعمل طوال النهار بجدّ، تجمع الطعام وتحفظه في خزائن ليكفيها مؤونتها في فصلي الخريف والشتاء. وجارُها الصرصور يراها بينما هو يمرح ويلعب ويعزف الموسيقى ولا يبالي.. يدعوها للّعب معه، وهي ترفض وتستمر في عملها دون توقف.

جاء الشتاء، ولجأ الجميع إلى مخائبهم. عاشت النملة على ما خزّنت، فلم تشكُ من جوعٍ أو حاجة، بينما عانى الصرصور من تأمين قوت يومه لأنه انشغل باللعب طوال الوقت ولم يحسب لشهور الشتاء حساباً. كاد الصرصور يهلك من الجوع، فأشفقت عليه النملة وأعطته بعض الطعام.

شكرها وعاهد نفسه ألا يعيدها ويقع في حاجة أحدٍ من جديد. حلّ الخريف التالي، وكان الصرصور قد تعلّم الدرس: تنظيم وقته بين العمل واللعب وعزف الموسيقى. أدرك قيمة العمل وقيمة اللعب وممارسة الهوايات. وحين رأته النملة يوفّق بينما، أدركت هي الأخرى أن الحياة ليست للعمل وحده، وعليها أن تمنح لهواياتها بعض الوقت.

وفعلاً، ذهبت النملة إلى الصرصور لتغني معه: «هيا نلعب.. هيا نعمل.»

وهكذا كانت حياة جنى، تلعبُ مرّةً، ومرّةً تلهو!

بدأ كل شيء في صفها السابع، الأول إعدادي.

حلّت الحرب في البلاد ونزحت عائلة جنى من مدينة حلب إلى عفرين، وسوف تتابع دراستها فيها.

مدارس عفرين مختلفة ومتعددة الثقافات، ولغة التعليم فيها هي الكرديّة، الأمر الذي لم تستوعبه جنى في البداية. لقد اختلف عليها كل شيء، حتى اللغة العربية التي كانت تتقنها، ليست لغة التعليم الأساسية هنا. عليها أن تتعلم اللغة الكردية.

بدأ كل شيء صعبًا، كل شيءٍ كان ضدها تقريباً، أو هكذا بدا لها. لم تلتحق بزملاء صفها إلا بعد شهرين من بدء العام الدراسيّ، سبقوها في الدراسة وعليها اللحاق بهم.

لم يكن الأمر في تعويض الدروس التي فاتتها وحسب، بل وأيضاً في أن تبني نفسها في غضون شهر أو شهرين، لتُجاري زملاءها. حصلت على علاماتٍ سيئةً جداً في امتحاناتها الأولى، أدنى من مستواها في أي وقت مضى. بدأت تستجمع نفسها بعد تلك الصدمات المتتالية.

تطلب الأمر أن تفهم حصة كاملة باللغة الإنجليزية (45 دقيقة)، من دون أية كلمةٍ عربية، بينما لم تكن تعرف من الإنجليزية سوى بضع كلمات، ولا تعرف كيف تبني بها جملةً واحدة. تطلب الأمر جهدًا مضاعفًا، أن ترفع مستواها بمقدار أربع أو خمس سنوات في أقل من نصف سنة! أيّ عاقلٍ سوف يسأل نفسه: «هل الأمر ممكن؟» ووفق مفاهيم العقل والمنطق، سوف يجيب حتمًا بـ «لا»!

لكنّ جنى وضعت نفسها أمام خيارين لا ثالث لهما: إما أن تبني نفسها وتنجح في ذلك، أو تستكين إلى ضعفها وفشلها.

كلمةُ (النجاح) لا تأتي بسهولة، وتحقيقها صعب. يحتاج النجاح إلى مقوماتٍ عديدة حتى يكتمل. هناك نجاحٌ في العمل أو في إنشاء مشروعٍ مربح، ولا ننسى النجاح في الدراسة. مجالات النجاح مختلفة، ولكن هناك قاسمٌ مشترك بينها جميعًا، وهو ضرورة الإصرار والثقة بالنفس من أجل الوصول إلى الهدف.

بدأتْ جنى تأخذ دروساً في الفنون والرياضة، وتتعلّم مهارات التحليل والاستنتاج، وكيف تفكر بطريقةٍ علميةٍ ومنهجية، ليس فقط لتستطيع اجتياز الامتحانات، ولا لأجل التفوق فقط، بل كأسلوبٍ في الحياة.

لم تصبح جنى تلك الطالبة المتفوقة في أوائل المرحلة الإعدادية، فهي تحب اللعب كثيراً أمام المنزل أو عند أحد أصدقائها، تقضي أغلب وقتها فيه ولا تشغل تفكيرها بأمر الدراسة. وكانت لديها قناعة بأنّ المرحلة الثانوية هي الأهم في حياة الطالب، لهذا السبب لم تهتم بالدراسة في مرحلتها الإعدادية إلا مع اقتراب موعد الامتحانات. ولحسن حظها، قدّمت امتحاناتها جيداً نسبياً، تمكنت من النجاح والالتحاق بالمرحلة الثانوية.

ولأنها كانت معتادة على اللعب واللهو، صعُبَ عليها الالتزام بمواعيد محددة للدراسة. وفي النهاية لم تنجح في امتحان الشهادة الثانوية، حصلت على معدلٍ ضعيف جدًا 3.7 من 10، وبالتالي لم تتمكن من الالتحاق بالجامعة التي كانت تريد الذهاب إليها.

قررت أن تستعد للعام الجديد بأن تضع جدولًا محددًا لأوقات الدراسة، وكذلك لن تحرم نفسها من اللعب. وسارت الأمور بالفعل على ما يرام، لكنّ جنى مرضتْ بشدّةٍ مع اقتراب موعد الامتحانات، فلم تستطع تقديمها.

بعد شهرين من موعد الامتحانات، تحسنت حالتها الصحية، ولكن حالتها النفسية لم تكن في أفضل حال. كانت تشعر بالحزن الشديد لأنها درستْ بجدٍّ طوال العام واستعدت للامتحانات، وسوف تضطر لإعادتها في السنة القادمة. ساعدها والداها وتمكنت من تجاوز هذه المرحلة الحزينة.

بدأ العام الدراسيّ الجديد، ولم يكن كأي عام، ففيه اندلعت الحرب في بلادها. وخوفًا على الطلاب من التعرض للأذى، قرر وزير التربية والتعليم تأجيل الدراسة للعام التالي، حتى تنتهي الحرب.

سقط الخبر عليها كرصاصةٍ استقرت في قلبها الصغير. أخذت تحدث نفسها: «مر عامان ولم أتمكن من الالتحاق بالجامعة، والآن عليّ الانتظار لعام آخر.» لم يكن ما أصاب جنى حزنًا عاديًا بل كانت حالة اكتئاب، لا تدري ماذا تفعل سوى الانتظار، فالبلاد في حالة حرب.

انتهت الحرب وعادت الأوضاع إلى ما كانت عليه. وفي آخر العام نجحت جنى بتفوّقٍ في امتحانات المرحلة الثانوية، وتمكنت من الالتحاق بالجامعة لتدرس الطب. فكرت في مدى تدبير الله لها، فلو نجحت في العام الأول، ما كانت لتحصل على الدرجات التي تؤهلها للالتحاق بهذه الكلية.

طوال فترة دراستها للطب، كانت تشعر بأن الله قد عوضها عن كلّ ما مرت به. ظلّت تدرس باجتهاد، لا كما كانت تلك البنت الصغيرة اللاهية. انقضتْ سنوات الدراسة وتخرجت من الجامعة، وصار جيرانها في الحي ينادونها: «دكتورة جنى»، وشعر والداها بالفخر الشديد بابنتهما، التي من بعد اللعب واللهو في صغرها، أصبحت طبيبة. وبدورها، كانت جنى شديدة الامتنان لوالديها على ما قدماه لها، وقررت أن تقدم العون والمساعدة لكل إنسانٍ ما زال في بداية طريقه، ترشده كي يستدلّ إلى الثقة بالنفس، فهي أقوى سلاح، وأن اليأس والإحباط هما العدو الأول.

ولدت جنى في سوريا في مدينة عفرين عام 2008. درست الطب في جامعة حلب، وتخرجت منها، من الأوائل على دفعتها. حصلت على ترخيص مزاولة المهنة عام 2033. عملت في سوريا لمدة سنة واحدة، ثم انتقلت إلى اليابان في نهاية 2034.

من اليابان بدأت رحلتها الجديدة. تعلّمت اللغة اليابانية، وشاركتْ في الأنشطة الثقافية لتعميق معرفتها باللغة والثقافة والأدب الياباني، وبادرتْ إلى تعريف اليابانيين بالثقافة العربية.

استكملت دراسة اللغة اليابانية حتى أعلى مستوى، وأتقنتها كأنها لغتها الأم، بما فيه المصطلحات الطبيّة. ثم اشتغلت متطوعةً في مجال الترجمة الطبية بين اللغات العربية والإنجليزية واليابانية، وظلّت تصقل مهاراتها. لم يكن الاستسلام خيارًا واردًا بالنسبة إليها، كان هدفها الواضح في اليابان: أن تزاول الطب. وبفضل عزيمتها وكفاحها ومثابرتها حقّقته، عدّلتْ شهادتها لتصبح الطبيبة السورية، وربما العربية الأولى، في اليابان.

تقول جنى: «في قصة نجاح كل طبيب، تجتمع عناصر كثيرة؛ العزيمة والإصرار، العمل الجادّ والمثابرة عليه، والتعلّم المستمرّ وتطوير المعرفة والمهارات،

وحُسن التعامل مع المرضى، ومداواتهم والاهتمام بصحتهم، ولا يوفر الأطباء أي جهد لكل هذا، من مبدأ الإنسانية والعطاء. ويواجهون التحديات والصعاب، ويظلون مصممين على تحقيق أهدافهم والارتقاء بها..».

وتضيف: «كانت اليابان بعيدة عن تفكيري كل البعد، كنتُ مثل زملائي، أفكّر باستكمال دراستي في ألمانيا أو أمريكا. درستُ اللغة الألمانية وكنتُ في طريقي إلى هناك، وكان للقدر رأيٌ آخر. احتاج الأمر مني شجاعةً لأغيّر وجهتي إلى اليابان، جذبني هذا العالم الجديد، بكل تفاصيله المختلفة عن حياتي السابقة، وأثّرت فيّ الثقافة اليابانية بقوة، فهذا البلد لا يعترف إلا بالجهد والعمل. كان مجرد تحصيل المعلومات عن التعديل أو الاستفادة من تجارب سابقة أمرًا في غاية الصعوبة، بسبب ندرة الأطباء الأجانب، والعرب خصوصاً، في اليابان. وكم قيل لي أن ما أحاول القيام به مستحيل. قد تكون بعض الأمور مستحيلة فعلاً، ولكن كيف لنا أن نعرف إذا لم نحاول؟ هكذا أفهم معنى التوكل على الله، وهو ما دفعني إلى المحاولة. أحببت هذا التحدي وقررت أن أخوضه. عزمتُ على تعديل شهادتي وواجهتُ عثراتٍ ومصاعب، ولم تكن خطواتي سريعة، إنما ثابتةٌ بفضل الله عزّ وجلّ، وأنا الآن سعيدة بوجودي في اليابان ولا أندم على عدم الذهاب إلى ألمانيا..»

تتذكر جنى بداية اهتمامها بالطب، لماذا حلمتْ بممارسة تلك المهنة النبيلة، تقول: «كان حلمي منذ نعومة أظافري أن أصبح طبيبة، فأنا أعشق التعلم وأحب التواصل مع الناس. تعلّمتُ من أبي ضرورة الاعتناء بالصحة، كان أبي يمارس الرياضة ويأكل أطعمةً صحية، ويثابر على قراءة المعلومات الصحيّة. وصرتُ أفكّر: كم سيكون الأمر أفضل لو استطعت مساعدة المرضى على الشفاء. لطالما آمنت أنّ الإنسان لن يكون حراً أو سعيداً إلا إذا استردّ عافيته..»

تختم جنى اللقاء معها: «في البداية كان حلماً، ثم أصبح طموحاً، ثم أصبح واقعاً بفضل الله تعالى. لا يسعني اليوم إلا أن أشكر من ساعدني ودعمني وشاركني هذه الرحلة الطويلة بكل تفاصيلها، عثراتها، حلوها ومرها. سنوات من التخطيط والصبر، ومرّتْ لحظاتٌ شككت فيها بنفسي، وظلّتْ أمي الحبيبة تشجعني وتدعو لي، وكذلك أبي الغالي الذي لطالما كان قدوةً أفتخر بها. لازلت طبعًا في بداية طريقي، فعسى أن يوفقني الله لعمل ينفع الناس وينفعني في الدنيا والآخرة».

7

كيماويّ

بشرى نعمان

في بداية الأمر كانت أصوات الاشتباكات والرصاص، التي تستمر لساعات، تفزعني وتجعل قلبي يرتجف ودموعي تنهال، لم أعتد ذلك ، كلنا لم نعتد ذلك، كان سماع خبر سقوط شهيد في إحدى المظاهرات يبكينا أيامًا وليالي، بكاء حسرةٍ وخيبةٍ، جيش الوطن؟! جيشٌ يقتل أبناء الوطن ..

أتذكر جيداً المرة الأولى التي استمعت فيها بصحبة أسرتي إلى أغنية سميح شقير:

(يا حيف .. زخّ رصاص على الناس العزل يا حيف)! كيف أجهشنا بالبكاء، أنا وأبي وأمي وأخواتي، بكينا طويلاً دون توقف..

مع الوقت أصبحت أصوات الاشتباكات أمرًا عاديًا وخبر سقوط الشهداء متوقعًا وأصواتُ قذائف الهاون التي تنزل بالقرب من بيتنا، كلها أمور متوقعة ونحن نعيش تحت ألطاف الله..

كل ذلك زادني قوةً وصلابةً، وصرت أفكر بما يتوجب عليَّ فعله، إنه وقت العمل!

بدأ الطيران الحربي بالقصف الهستيري على المباني السكنية والتجمعات البشرية في الأسواق، فأهداف القصف لم تكن عسكرية على الإطلاق ، بل مدنية بحتة، كل من يسكن الغوطة الشرقية يجب أن يموت حتّى وإن كان طفلاً رضيعاً، ولتفنَ الغوطة بمن فيها وليكن عدد الشهداء بالعشرات أو بالمئات، لا يهم؛ فالإجرام ليس له حدود.. والمجرم سفاحٌ يرى كل مَن حوله جراثيم ينبغي القضاء عليها.

اضطررت للنزوح مع عائلتي إلى قلب العاصمة دمشق، لكنني بقيت على تواصل مع أحد الناشطين في بلدتي يخبرني عن مستجدات ما يجري.

ذاتَ يومٍ، جلستُ على شُرفةِ منزلي، أحتسي فنجانَ قهوةِ الظَّهيرةِ، أنتظرُ

عودةَ صغيرتي من مدرستها، وأقرأ قصةً ..

وبينما أنا منهمكةٌ بالقراءة ويأخذني الشغف بأحداث القصَّةِ، تسربتْ إلى أنفي رائحةُ احتراقٍ قويّةٌ جدّاً انبعثت من منزلِ الجيران..

يا إلهي ما هذه الرَّائحة؟! وما الَّذي حلَّ ببيتِ أمِ خالد؟!

أخذتُ أصرخ بفزعٍ على ليلى ابنةِ الجيران، لأستفسر عن سببِ رائحةِ الاحتراق وأطمئِنَّ عن سلامتهم، بينما يلمعَ أمامَ عينيَّ شريطٌ من الذّكرياتِ المؤلمةِ، شريطُ ذّكرياتٍ يعودُ تاريخه إلى اللّيلةِ الحاديةِ والعشرينَ من شهرِ آب/ أغسطس من العامِ ألفين وثلاثةَ عشر.

لم تكن ليلةً عاديةً، ولا ذاك اليوم الذي تلاها عادياً ابدًا، كلّ ما جرى فيهما كان وكما يقولون: «ولا بالأحلام».

لم يكن ليخطر ببالي يومًا أن أعيش تلك التجربة الأليمة.

أنا التي سارت حياتي في أسرتي طبيعية، كبرت ودرست وتخرجت، ثم اشتغلت، ليس هناك ما يدعو للخوف أو القلق، إلى أن اشتعلت شرارة الثورة السورية في درعا وامتدت إلى دوما وباقي مدن وبلدات الغوطة الشرقية، ليبدأ عندها فصلٌ جديدٌ من حياتي، فيه من الخوف والألم والفزع ما لم أكن لأتخيّله!

بعد أن كان يوم الجمعة يوم الراحة والنزهات صار يوم الخوف والقلق مما يجري أو سيجري أصبحنا نحسب له ألف حساب، كيف لا؛

وعناصر الأمن تطوق بلدتنا قبل صلاة الجمعة وتنتشر بالقرب من المساجد تحسبًا لخروج مظاهرةٍ ضد نظام الحكم الفاسد في سوريا.

ذات مرة ٍقال لي:

«ما رأيك بأن تعودي إلى البلد؟ أنتِ معلمة والمدارس مغلقة وهناك الكثير من الأطفال بحاجة إلى التعليم، تعالي وسنتساعد في افتتاح مدرسة صغيرة في مكان آمن يتعلم فيها هؤلاء الأطفال»

راقت لي الفكرة وتحدثت مع والدي أنني أريد العودة إلى زملكا لأقدم شيئاً ما لهؤلاء الأبرياء، والدي هو الأخر لم يكن مرتاحًا ويشعر بالملل وخصوصًا أنَّ لديَّ أختان مازالتا تقيمان في البلدة.

عدنا وبدأ مشوار عملي في التدريس مع بعض المتطوعات هناك، وتزامن عملي مع اشتداد القصف واستشهاد زوج أختي، وبعض أقاربي والحصار، ومجزرة الكيماوي.

نعم مجزرة الكيماويّ التي أشرت إلى ليلتها بأنها كانت أشبه «بالأحلام».

إنها ليلةُ الموتِ بلا دماء،

إنها ليلةُ استنشاقِ الموت!

وأيُّ موت؟! إنَّه الموتُ الجماعي، الّذي أفنى عائلاتٍ بأكملها، وكأنَّها ما كانت ولا تنفّستْ ولا وُجدتْ.

نعم أيتها السيدات وأيها السادة إنَّها «ليلةٌ بألفِ ليلةٍ».

«الكيماويُّ يقتلُ الآلافَ في غوطةِ دمشقَ ، والصّواريخُ والمدافعُ تقضي على ما تبقى من بشرٍ وحجرٍ»

فالمجرمُ لم يكتفِ بنشرِ السُّمِ في الهواء، بل أتبعه بقصفٍ مكثَّفٍ جدّاً

براجماتِ الصَّواريخ.

كانت ليلةُ اليومِ الخامسِ من أيامِ عيد الفطّر المبارك، وكنَّا ما نزال نستقبلُ المهنئين بالعيد، ودّعنا الضُّيوف في وقتٍ متأخرٍ منها. أتذكّرُ حينها قولَ والدي : «يا لطيف على هالشوب، الجوّ ساكن ما فيه ولا نسمة هوا»

والآن أقول في نفسي: يا للإجرام لقد اختار المجرمُ ليلةً تخلو منَ الهواءِ ليقتل عددًا أكبر..

صليتُ العِشاءَ وخلدتُ للنومِ، جميعُ مَنْ في البيت يغطُّ في نومٍ عميقٍ، بعد يومٍ شاقٍ قضيناه في العمل وتوفيرِ الطَّعام والماء. في ذاكَ الوقت كانت الغوطةُ الشَّرقيةُ تعاني من حصارٍ خانق، تمشي في شوارعها لاترى سوى هياكلَ عظميةٍ من البشرِ والحيوان، هياكل لايكسوها سوى جلدٍ رقيقٍ. وجوهٌ شاحبةٌ، وأخرى كالحةٌ، والسَّعيدُ السَّعيدُ من استطاع إطعامَ عائلته أو أمّن الماء لها.

بابُ البيتِ يُطرَقُ بقوة، يتبعه صوتٌ مرتجفٌ، يحمل في طياته الكثيرَ من الألمِ والحزنِ والخوفِ، نظرت إلى الساعةُ، إنها الواحدة وأربعون دقيقةً بعد منتصف الليل، استيقظت أُمّي لتفتحَ البابَ بحذرٍ ونحن نترقَّب، ما الَّذي حدث؟ «مَنْ الطَّارق»؟

«أنا محمود مرت خالي افتحي بسرعة».

إنَّه ابنُ عمتي على الباب يرتدي قناعاً واقياً من الغازات السَّامة يقول: «اصعدوا إلى السَّطح، هيا بسرعة، النِّظام ضرب كيماويّ».

قفزنا جميعاً من فراشنا في حالة من الذُّهول والهلعِ. ليس

أمامنا متسعٌ من الوقتِ للتَّفكير، لابُدَّ من التَّنفيذ فوراً. قالت أُمّي والخوفُ يغطي ملامح وجهها : « كلّ واحد يأخذ منشفة يبلها ويحطها على أنفه وتمه واطلعوا عالأسطوح بسرعة» .

ثمَّ أردفت:«والله سمعت صوت صواريخ غريبة ما سمعت هالصوت قبل هالمرة». والجديرُ بالذِّكرِ أنَّه قد تمَّ الحديثُ على بعض القنوات التِّلفزيونية وبين النَّاسِ عن : ماذا لو ضربَ النِّظامُ كيماويّ؟! وجميعُ التوصياتِ جاءت ببلِّ قطعةِ من القماش بالماءِ أو بالخلِّ وتغطية الفم والأنف بها.

البيتُ شديدُ الظُّلمةِ ما خلا ضوء شمعةٍ صغيرةٍ يكادُ خيطَها ينتهي، قمتُ سريعاً لأبحث عن شيءٍ أبلّله بالماءِ وأغطي به أنفي وفمي. وكان والدي الكهلُ المريضُ بوزنهِ الثقيلِ يتكئُ عادةً على العكاز، ارتدى قلابيته (ثوبه) بشكلٍ مقلوب وكان أسرعَ من صعدَ إلى السَّطحِ، كيف تمكّن من صعود الدَّرج بهذه الخفّةِ؟ لا ندري.. أمّا أختي الحاملُ في شهرها الخامس، والتي كانت في عدّتها بعد استشهادِ زوجها قبل شهرين، فقد استجمعت قِواها المنهكةَ، وأمسكت بيدِ ابنها ذي العامين لتلحق بأبي.

جميعنا صَعدنا السَّطحَ ولا ندري ما سيكونُ مصيرنا.

أمسكتُ بيدي الهاتِفَ لأنشرَ خبرَ قصفِ الكيماويّ على بلدتي المدمَّرةِ من القصفِ سابقًا لمْ يكنْ الأمرُ بالهيّنِ كانت شبكةُ الهاتفِ ضعيفةً جدّاً وقد تأثّرتْ عينايَّ بالغازِ المنطلق جرّاءِ القصفِ والذي علمت فيما بعد أنّه «غاز السَّارين» . بدأتُ أبحثُ عن الأحرفِ لأكتبَ جملةً مفادها : «قصفٌ مكثَّفٌ بصواريخَ غريبةٍ شديدةَ الانفجارِعلى مدنِ وبلداتِ الغوطةِ الشَّرقيةِ، حملتْ في رؤوسها غازاً ساماً، والشُّهداءُ بالعشراتِ»، تاهت عني الحروف وما عدتُ أستطيعُ التَّركيزَ في شاشةِ الهاتفِ فتخليتُ عن الفكرةِ.

الجوُّ شديدُ الحرارةِ، لذا نام جارنا على سطح البناء، أيقظه أبي قائلاً:

«قوم يا أبو محمد النِّظام ضرب كيماويّ»

ردَّ جارنا الذي بدا مشوش الوعي: «لا أستطيع رفع رأسي .. جايتني نوبة شقيقة». تبرعت بالنُّزول إلى شِقتنا في الأسفل لأحضرَ له حبةَ دواء (مسكن). وبعدما صعدت شعرتُ بالغثيانِ، وأفرغتُ كلَّ ما في معدتي لأنني استنشقتُ القليلَ من الغازِ، فكثافة الغازِ في الأسفل أعلى.

كانت أصواتُ الإنفجاراتِ وشظايا القذائفِ تحاوطنا من كلِّ جانب. جلستُ بجانب أختي الحامل لنتحاورَ، قلتُ لها بيأسٍ: «هل سنبقى أحياء؟! يبدو أننا في السَّاعاتِ الأخيرةِ من حياتنا». قالت: «اصبري وتماسكي، وخلي ثقتكِ بالله كبيرة، الله معنا وما رح يضيعنا».

كلماتها رفعت من عزيمتي وأشعرَتني بالقوّةِ من جديد.

أمضينا ثلاثَ ساعاتٍ على سطحِ البناءِ، مرت وكأنها عمرٌ بأكمله، عمرٌ من الاختناق والمعاناة، عمرٌ من الخوفِ والضَّياع، ليلةٌ وكأنَّها يومُ القيامةِ. أصيبَ خلالها جارنُا بالإغماءِ، وبدأنا ننادي على المسعفين في الحارة، عسانا نتمكنُ من إنقاذِ حَياته، صعدَ أحدهم إلينا وقال: «خليكم هون ولا تنزلوا لتحت».

سألناه عن أخبارِ الجيران والسُّكان؟
قال : «الوضعُ مأساويٌّ ومئاتُ الشُّهداءِ في الشَّوارع»، حتَّى المسعفون قد تحول الكثير منهم إلى شهداء .
أيُّ كلامٍ يقال قد يخرج عن نطاقِ التَّصديقِ، أو استيعابِ العقل، كيف يمكن لهذا الكمِّ الهائلِ من البشر أن يموتوا في ليلةٍ واحدة؟!

عِندَ السَّاعةِ الخامسةِ صباحاً، تمكَّنا من مغادرة مدينة زملكا باتجاه

مدينةِ سقبا. أعان الله أبي واستطاع قيادةَ السَّيارةِ، فقد كان في وضعٍ جيد ولم يتأثربالغاز لحذره الشديد وتفكيره بنا وبمهمة إنقاذنا. لا أستطيع أن أصف لكم ما رأيت في الطريق «المشهدُ في غاية الألم»، جثثٌ ملقاةٌ على قارعةِ الطَّريقِ تنتظر من ينتشلها، ربَّما كانت حيَّةً لا ندري؟!

تبدو للناظر أنَّها فارقت الحياة، ولكنَّ الكثيرَ منها دُفِنت تحتَ التُّراب وربّما كانت حيَّةٌ، هكذا عَلِمنا فيما بعد أنَّ عضلةَ القلبِ توقفت لفترةٍ مؤقتةٍ فقط بسبب تأثير الغاز. أحدهم حدَّثنا أنَّ الطُّيورَ على سطح منزله صباحَ مجزرةِ الكيماويّ كانت ملقاةً على الأرض دونَ حراكٍ فظّنَها ميتةً، ليصعدَ صباح اليوم التَّالي ويجدها تحلّقُ في السماءِ. لهذا كَثُرَ الحديثُ آنذاك عن دفنِ الكثيرين أحياءً.

لا كوادرَ طبيّة مؤهلة، ولا خبرةً سابقة لأحدٍ بحالاتٍ مشابهةٍ، والمحظوظ الّذي مازال على قيدِ الحياة يركض محاولاً إخراج عائلته من هذا المكان المسموم، أو يبحث عن أحد أفراد عائلته بين الجثث علَّه يجده حيّاً أو ميتاً.

في الطريق كنت لا أزال أشعرُ بالغثيان، ووضعي يزداد سوءاً، وبدأ الزّبد يخرج من فمي، وهو أحد أعراض التسمم بغاز السَّارين، لكنني بقيتُ مستيقظةً ولم يغمَ عليَّ. صوتٌ خفيٌّ هتف بداخلي :» إنَّه الموت .. فيا مرحبًا به».

ظهرَ الخوفُ جلياً على وجه أُمّي بعدَ أن رأت الزَّبد يخرج من فمي وفمِ أختي.

استنفارٌ تام، كل الشَّوارعُ في كل البلدات من حولنا مكتظةً بسَّيارات الإسعاف، وسيارات المدنيين الناجين، وسيارات المتطوعين بالمساعدة.

أدخنةُ الدَّواليب (عجلات السيارات) تتصاعد في السَّماء.

أُخبِرنا أنَّ الدُّخان يقلّلُ من كثافة الغاز في الأسفل، وهذا ما دفع النَّاس لإشعالِ الدَّواليب القديمةِ في الشَّوارعِ.

بعد نصف ساعة وصلنا إلى أحدِ المراكزِ الطّبية الميدانيةِ في مدينة سقبا، أدخلونا بسرعة، المئاتُ من المصابين على الأَسِرَّةِ وعلى الأرْض، هرعَ إلينا أحدُ المسعفين، سألنا: بماذا نشعر؟ وما الأعراض التي نعاني منها؟ ليعطينا الجُّرعة اللازمة من الدَّواء (حقنة الأتروبين) . أردف قائلاً : «طالما أنَّكِ لم تصابِي بالإغماء فأنتِ بخير لا تخافي». تنهدتُ وقلتُ: «الحمد لله، نجونا بفضلِ الله أنا وعائلتي من هذه المجزرةِ البشعةِ».

وعاد الصوتُ نفسه في داخلي من جديدٍ ليقول: «لم يكن الموتُ، بل شبحُ الموتِ مَنْ طرقَ جدرانَ جسدك».

استقبلتنا إحدى العائلات في بيتها وأكرمتنا وخففت عنا وقع ما جرى، ومضى اليوم الأول وكأنه حلمٌ ثقيل.

في صبيحةِ اليومِ التَّالي بدأنا نستوعبُ حجمَ الكارثةِ ونسألُ عن أحوالِ أقاربنا، ومعارفنا، وأصدقائنا، وتنزل الأخبار على رؤوسنا كالصَّاعقة.

فلانٌ وعائلته ماتُوا..

عائلةُ كذا وكذا جميعهم ماتوا، وجدوهم مختبئين في الحمّام.

كلُّ سكانِ البناءِ رقم كذا ماتوا..

ثلاثةُ معلمين وعشرةُ طلابٍ من المدرسة التي كنت أعمل فيها ماتوا أيضاً..

زميلتي في العمل كانت حاملاً في شهرها الثَّامِن تنتظر مولودها بفارغ الصَّبر، ماتت هي وجنينها وبناتها الثّلاث وزوجها أيضاً، ناموا ولم يستيقظوا.. نعم ماتت! لم تكن تدري أنَّها عندما أوت إلى فراشها وودّعت طفلاتها لتلقاهنّ

على خيرٍ في الصّباح، أَنَّهُ الوداعُ الأخيرُ، وأنَّ القبلةَ التي طبعتها على جبين كلّ واحدةٍ منهن هي القبلةُ الأخيرة.

يا ربّ لطفكَ بعبادِكَ! يا ربّ ما كلُّ هذا الإجرام؟! يا ربّ كيف لنا أن نستوعب هذا الكمَّ الهائلَ من الموت؟! رُحماكَ يا الله.

قيل أنَّه بلغ عدد شهداء مجزرة الكيماويّ تلك الليلة ما يقارب الألفَ وخمسمئةِ شهيد.

كلهم ماتوا معاً وصعدت أرواحهم الطّاهرة لتنعم بالخلدِ عند بارئها.

أخذتِ الدُّموع تتساقطُ من عينيَّ بسخاء. وإذا بصوتِ ليلى ابنة الجيران يوقظني من ذكرياتي .

قالت ليلى : «لا يوجدُ شيءٌ يا خالة اطمئني ،أُمّي أشعلت بعضَ قطع البلاستيك، والألبسةِ الباليةِ لتتخلص منها. لا تقلقي نحن بخير» قلتُ لها: «الحمد لله ، حماكم الله، أردتُ الاطمئنان عليكم فقط» . في هذه الأثناء دخلت ابنتي الصغيرة فرحةً من باب المنزل ، تنادي: «ماما .. ماما لقد أخذتُ العلامةَ التّامة في الإملاء».

عاودتني ذكرياتِ مجزرةِ الكيماويّ، تذكرتُ منظرَ مئات الأطفال الّذين اختنقوا بهواءٍ مسمومٍ اخترق صدورهم الصّغيرة، ذنبهم الوحيد أنَّهم تنفسوا، أخذوا شهيقاً مسموماً وما استطاعوا إخراج الزّفير من بَعده. كانت أجسادهم الغضةَ الطّريةَ تنتفض وتنتفض تطلب ذرةَ أوكسجينٍ نقيةٍ تعيدها إلى الحياة ولا تجد، تصارعُ الموتَ علّها تنجو. جميع المسعفين عاجزون عن المساعدةِ، كلُّ ما بوسعهم هو سكب الماء على هؤلاء الصّغار.

دموعٌ ، عجزٌ، ألمٌ، خيبةٌ، خيمت على المكان.

سألت نفسي : ما الّذي حلّ بالعينات الّتي جمعها وفدُ الأمم المتحدة؟ فقد دخل إلى المدينة المنكوبة في صبيحة اليوم التالي من المجزرة وفدٌ من الأمم المتحدة ليجمع عيناتٍ توثق الحدث ويجمع الأدلة ويستمع إلى شهادة بعض الناجين الذين التقاهم. ضحكتُ بألمٍ : «إنَّه العَالمُ المتخاذلُ، هو نفسه الّذي يرى كل ما يجري في غزةَ اليوم، من قصفٍ وموتٍ وجوعٍ وتشريد، ويقفُ صامتاً مكتوف الأيدي ينتظر فناء شعبٍ بأكمله، لا تحركُ أشلاءُ الأطفال مشاعره المتجمدة، ولا دموعُ النّساء، ولا قهرُ الرجالِ».

دَخلتُ المنزلَ احتضنتُ ابنتي بقوة، وتذكرتُ الأمَّ الّتي خسرت أبناءها الخمسة دفعةً واحدةً في تلكَ الليلةِ، حاولت أن أتخيل مشاعرها وأحاسيسها ولمْ أجرؤ، ليس بإمكاني، وهل هناكَ أغلى من الولد. تنهدتُ بحرقةٍ وبكيت، دعوتُ الله ورَجَوتُه أن يحفظ لي أولادي وكلَّ أولادِ العالمِ.

اليوم وفي الذكرى الثانية عشرة على هذه المجزرة البشعة، والتي راح ضحيتها الآلاف، أصبحت مهجرة إلى الشمال السوري، ولدّي ثلاثة أطفال، ما زلت أعمل في التدريس وأنشط في المجتمع المدني.

وها أنا ذي أكتب هذه السطور علّي أستطيع أن أوثق جزءاً صغيراً مما مرَّ على رؤوسنا نحن السوريين التائهين في أصقاع الأرض، الذين ضاقت علينا الأرض بما رحبت.

آلامنا كبيرة ومواجع قلبنا أكبر ولا أحد يدري بحجم همومنا إلا الله، نسأله عز وجل الفرج القريب لنا ولكل مظلوم في هذه الدنيا.

8

نيرانٌ لم تحرق

رندة عثمان عبد الله

أنا أمٌّ لولدين وابنةٍ جميلةٍ جداً، نسكن في حلب نحن وأهل زوجي، وأنا وزوجي نعمل معاً لتأمين حياةٍ أفضل لعائلتنا. كنت أشتغل في عدة مهنٍ تدرّ عليّ دخلاً مقبولا، أدرّس بالوكالة في المدارس الابتدائية، وفي الصيف أستثمر مهاراتي الرياضية في تدريب السيدات في أحد النوادي الرياضية للتخفيف من أوزانهن.. وهكذا تمكن ابني الكبير من الوصول إلى المرحلة الجامعية.

قبل أن يتخرج ابني بسنة، اشتعل لهيب الثورة، ثورة الربيع العربي، وأمطرت السماء قذائف ألقت الناس بين صرعى جرحى مرعوبين وخائفين.

نزحنا إلى قريتنا التي تبعد قرابة خمسةٍ وثلاثين كيلو متراً عن حلب، وكان لنا فيها بيتٌ وقطعة أرض تمكنّا من زراعتها بعد أن توقف عملنا أنا وزوجي. عشنا أياماً صعبة من الفقر والتعب، لم نستطع تأمين حوائجنا الضرورية للعيش إلا بشق النفس. لا غاز ولا كهرباء هناك، وقد نفدت المؤن التي كنا قد اشترياها للأيام السوداء، صرتُ أطبخ على الحطب، وأخبز، بالكاد أستطيع فرد العجين بالنشّابة على الصاج. أعمال لم أقم بها في حياتي، ولم أتوقع القيام بها أبداً، ولكنني فعلتها ولم أستسلم. كنتُ أكافح من أجل البقاء.

بعد كل تلك الأعمال، حرصتُ على أن يفرح أبنائي بقليل من الحلوى التي يحبونها؛ أُقلّد جدتي التي صنعت لنا الحلوى أيام كنا أطفالاً نزورها في القرية. أشوي عجينة الخبز على الصاج، أرش عليها الزيت والسكر، وأقلبها لتصبح قطعة حلوى مربعة جميلة الشكل لذيذة المذاق، ثم أقدمها إليهم بوجه بشوش ضاحك، لأنقل ابتسامتي إلى وجوههم، وأسعد لأنني تمكنت من رسم الفرحة والبسمة عليها. كنت أضعف أحياناً، أرى جيراني يشترون ويأكلون، فتشتعل نار الحزن في داخلي على أبنائي. إلا أنني كنت أصحو وألوم نفسي على ضعفها، أقول لنفسي: ما بعد الضيق إلا الفرج ولابد أن يعوّض الله صبرنا وحرماننا خيراً..

في يومٍ ذهبتُ إلى السوق، وليس معي سوى مبلغ ضئيل من المال، اشتريت قليلاً من التفاح الذي تشتهيه ابنتي. فور عودتنا جاءت إحدى الجارات تزورني ومعها أولادها. انشغلتُ مع الضيفة فيما كان أولادها يأكلون كل حبات التفاح التي اشتريتها، من دون إذني. حزنت ابنتي كثيراً وبكت، واعتصر الحزن قلبي، لكنني طبطبت عليها ووعدتها أن أشتري لها مرة أخرى، ولم أنسَ. بعد مدةٍ أمّن جارنا عملاً لزوجي في أحد الحقول، وساعدناه أنا وأبناؤنا لننجز العمل بسرعة ونجني ثمرة تعبنا. حينها أخذتُ ابنتي إلى السوق واشتريت لها التفاح الذي تحبه لأعوضها عن ذاك الذي لم تأكله..

بدأ العام الدراسي. أصررت على أن يتابع ابني البكر دراسته في الجامعة. كان وضع جميع الطلاب متشابهاً، كلهم في ضيق. استأجر ابني مع بعض أصدقائه شقةً صغيرة، ليكملوا دراستهم.

كرّت الأيام، وعاد زوجي إلى العمل في المدينة كسائق سيارة أجرة. وفي يومٍ سقط عليّ خبرُ قصفٍ على الجامعة، وكنت قد تحدثت مع ابني في الصباح وأخبرني أن امتحانه اليوم. انهرتُ، دارت بي الدنيا وسقطت مغشياً عليّ من الخوف عليه. التمّ الجيران حولي يسندونني، إلى أن اتصل زوجي وطمأنني أنّ ابننا بخير، لكنه بقي للبحث عن ابن أخيه. بحث زوجي عنه بين المصابين والجرحى، وكذلك بين الجثث ولم يعثر له على أثر. عاد حزينا لا يعرف كيف سيخبر أخاه بهذا الخبر المفجع. طرق الباب مطأطئ الرأس يفكر فيما سوف يقول، وإذا بابن أخيه يفتح له. احتضنه وبكى، ثم عاد إلى البيت بصحبة ابني، لم أصدق عينيّ أنني أراه أمامي سليماً معافى، صرت أدور حوله لأرى إذا كان قد أصابه أذى، وهو يقصّ عليّ ما حدث معه، أنه لولا لطفُ الله به، بأن بقي مع صديقٍ ليشرح له فقرةً من المقرر للإمتحان، لكان مصيره مثل الشباب الذين قضوا في تلك المجزرة. وتابع زوجي يخبرنا بأحداث يومه الحافل بالمشاهد المروعة، وحزنه على أولئك الشباب الذين لقوا حتفهم في الجامعة، ولا ذنب

لهم سوى أنهم أرادوا إكمال دراستهم فيها.

مرّ وقتٌ وظننتُ محنتنا انتهتْ. استيقظتُ صباحاً على صوت العصافير الجميلة والسماء الصافية، والشمس ترسل خيوط أشعتها الذهبية لتجعل كل شيء من حولنا جميلاً. حضّرتُ القهوة وفاحت رائحتها في أرجاء المطبخ. رحتُ لأوقظ زوجي ونحتسيها معاً على الشرفة، وإذا بنا نرى سيارات كثيرة تحمل متاعاً وأشخاصاً يمرون أمامنا مسرعين. خفق قلبي من الخوف، أوقفنا أحد معارفنا ليشرح لنا ماذا حدث. أخبرنا أن الطائرات رمت قذائفها على منطقة قريبة، قتلتْ أبرياء كثيرين، وها هم الباقون ينزحون. اضطُرتْ عوائل كثيرةٌ للعيش في منزل واحد، وبدأت المشاكل. صار الأخ لا يحتمل أخاه، والابن لا يحتمل أباه، والكنة لا تتحمل كلمة من حماتها، والسلايف لا يستطعن العيش مع بعضهن. وبدأ الناس بالهجرة إلى الدول الأوروبية، وصاروا يعملون هناك ويرسلون المساعدات للماكثين في أرض الوطن.

وأنا، وبعد مضي عدة أشهر، وصلني أجمل خبرٍ في حياتي، جعل قلبي يرقص فرحاً في صدري: لقد تخرّج ابني من الجامعة، أصبح مهندساً. واكتملت فرحتنا بالمعدّل العالي الذي حصل عليه. ثم انصدمت بقرار ابني بالسفر والعمل في بلدٍ قريب، ليعيننا على وفاء ديوننا المتراكمة. جهّز أمتعته وغادر. حزنتُ حتى كاد قلبي ينفطر لفراقه وبعده عني، دعوت الله كثيراً ليسدد خطاه ويفتح له أبواب الخير والرزق. وهدّأني زوجي بأن سفره لن يطول. بعد طول بحثٍ تمكن ابني من العمل في فندق، ساعدته دراسته ومعرفته بعدة لغات على نجاحه في عمله وترقيته ليتولّى صالة الاستقبال، يأتي إلى الفندق زبائن من عدة جنسيات، ويتفاهم ابني معهم جميعاً بلباقته وحُسن حديثه. وارتفع راتبه الشهري أيضاً، وظل يعمل بجد، ويجمع نقوده حتى صار مبلغا محترماً، أرسله إلينا ووفينا جميع ديوننا وعشنا عدة سنوات مرتاحين، وتمكن من أخذ أخيه ليعمل معه، إلى أن جاء يوم أحس فيه بالاشتياق لأهله ووطنه، فقرر العودة،

وليته لم يفعل. بعد فترة وجيزةٍ حامت الطائرات في سماء منطقتنا وأمطرت وابلاً من النيران. قُتِل من قُتِل وبدأنا رحلة نزوح جديدة. تركنا منزلنا خلفنا، وتركنا معه ذكرياتنا.

كان نزوحنا هذه المرة أشبه بنزوح الفلسطينيين في تغريبتهم. حملنا أمتعتنا، بعضنا مشى على رجليه وبعضنا على الدواب، وآخرون على الجرارات، وفي السيارات.

يا له من منظر مأساوي، لا يحتمله عقل، فاضت عيناي بالدموع وأنا أرى المدينة فارغةً إلا من أبنيتها التي لم تهدم، أتحسر على بيتي، للمرة الثانية أتركه بما فيه وأنزح. وبعد مسيرة دامت يومين شاقّين متواصلين تحت الأمطار الغزيرة، وكأنّ السماء ترسل غضبها إلى الأرض، وصلنا إلى قرية آمنة، اسمها الباسوطة، تبعد سبعة كيلومترات عن عفرين..

ليلتها، وقد أنهكنا التعب، نمنا في شرفة منزلٍ لم يكن أصحابه فيه. استيقظنا صباحا على يوم ربيعيٍ جميل، تغمره الشمس بأشعتها ودفئها. جلسنا نفكر: ماذا نفعل؟ هل نكمل نزوحنا؟ إلى أين؟ إلى المجهول؟

ولأننا لا نعلم ماذا ينتظرنا، مكثنا في قرية الباسوطة الجميلة، وصرنا نتقصّى أخبار منطقتنا. علمنا أن بعض الناس عادوا إلى بيوتهم، فَقَرّرنا العودة أيضا. كنتُ أشعر بالغبطة وأنا أجهز أمتعتنا لننطلق، وصار قلبي يرقص بين ضلوعي فرحاً كلما اقتربنا من ديارنا، وينفتح صدري لرائحة هوائها المنعش، أتوق للوصول إلى بيتي والجلوس على شرفته. صحيحٌ أنني لم أغادره لفترةٍ طويلة، لكنني مشتاقةٌ إليه كأنني غبتُ عنه دهراً. وصلنا وتفاجأتُ بوجود غرباء كثيرين في قريتنا، لكنّ بيتي لم يُمَسّ، وأسعدني أنّ متاعه سالمٌ من النهب.

لا نـزال خائفيـن، لكـنّ الحيـاة بـدأت تعـود شـيئا فشـيئا إلـى طبيعتهـا، فُتحـت المـدارس وعـاد الـطلاب يسـتكملون دراسـتهم، والتحقـتُ بعمـلٍ خـارج البيت، وكذلك عمل ابني مع صديقه في ورشة ميكانيك. فجأةً اعتقلوه بتهمةٍ لا علاقة لـه بهـا، خبـرٌ جعـل قدمـاي لا تحملانـني وسـقطتُ مغشـيّاً عليّ. حملنـي زوجي وأولادي إلـى السـرير وقامـوا بإنعاشـي. فتحتُ عينيّ أبكي وأصـرخ: «ابني.. أريد ابنـي، لـم يذنـب بشـيء، يا رب احفظـه لي مـن الظالمين..»

لم يكن أمامي سوى النهوض، لأقف بجانب زوجي وأُآزره في بلائنا.

وكّلنا محامياً قديراً أمّن لنا إذناً لزيارته. رأيتُ ابني في السجن فاخترق اللهيب قلبـي. أنـا أمّ لا أحتمـل رؤيـة ابنـي مطأطئ الرأس! ومـع هذا تماسـكتُ وكلمته بالهاتف من خلف زجاج. قال ابني: «أخرجوني من هنا، أنا لم أفعل شيئاً..». كان واضحـاً كم عذّبوه جسـدياً ونفسـيّاً. سـقطتُ طريحة الفراش. كـدتُ أنهار وقوّت ابنتـي عزيمتـي، وثقتـي بربـي، قالت لـي : «أمي، ألـم تكوني دائما مـن يزرع فينا الثقـة بـالله، لعلّه يجعل لنا من هـذا الضيق مخرجا..»؟

عثرنا على شخص يستطيع مساعدتنا، لكنه طلب مبلغاً كبيراً من المال، وتخبّط زوجي يميناً وشـمالاً، بحث بين جميع معارفه عن أحدٍ يسـتقرضه منه. أسـعفنا صديق زوجي منذ أيام دراسته، أرسل لنا حوالةً بمبلغٍ أكبر من المطلوب، حتى تمكن المحامي من إطلاق سـراحه بعد شهرين من العذاب والألم.

خرج وقصّ علينا مآسي المعتقلات ومصائبها، وما ناله منها..

وابنتـي، التـي قـوّتْ من عزيمتـي أيام اعتقـال أخيها، كبرتْ وأصبحـتْ صبية. راح أحد المسلحين يلاحقها أينما ذهبت، وهي تتجاهله. وفي يومٍ كانت ذاهبةً إلى المدرسـة، دخلـت شـارعاً خالياً من الناس وهجم يحاول الاعتـداء عليها ويُمزّق ملابسـها، وهـي تصـرخ وتصـرخ، وما من مسـتجيب. سـقطتْ علـى الأرض تدعو

الله، وملائكتـه، أن يُنجّيهـا. رأتْ حجـراً علـى الأرض قريبـاً مـن يدهـا فضربته على رأس ذلـك الوحـش الآدمي، وخرّ صريعاً من قـوة ضربتها. تجمّع المارة وغطّاها أحدهـم بمعطفـه. أخبـروا الشـرطة، ثم أدلـوا بإفادتهـم لصالحها، وحيـن وصلنا طمأنونـا أنها لم تتأذّ.

حضنتها وبثثت فيها كل عطفي وحناني.. ورفعتُ يديّ إلى ربي أشكره.

وتابعـتُ دربـي بإصـرار واجتهـاد، أسـاعد صديقاتـي وتلميذاتـي علـى قـدر مـا أستطيع، ماديا ومعنويا، واشتغل ابني في إحدى المنظمات براتبٍ جيد، وعمل الثانـي فـي ورشـة تطريز. أمنّا معيشـتنا وتحسـنت أحوالنا وزوّجنـا أبناءنا كلهم.

رُزِق ابنـي الكبيـر بطفـلٍ ذكـر سـمّوه علـى اسـم والـده، والأصغـر بابنـة جميلـةٍ كعمتهـا، ابنتـي.

وتزوجـت ابنتي بشـابٍ وسـيم خلـوق، كان صديقاً لأخيها في العمل، اشـترى لها كل مـا تتمنـاه، ذهـبٌ وملابـس وغرفـة نوم، وثلاجـة، وملأ لهـا الثلاجـة بالخضار واللحوم والفاكهة، وخاصةً التفاح الذي كانت تحبه، ليعوضها عن تلك التفاحات التي فقدتها عندما كانت صغيرة.. وقبل هذا كله، منحها الحب والاحترام، وهي تبادله مشـاعره، ويعيشان بهناء.

هي ونحن، لم ننس نيران الحرب، لكن لهيبها لم يحرقنا، ولم يجعلنا رماداً.

9

زهرتي الوحيدة

فريال

وليس حولنا أطباء، ومدينتنا شبه خاليةٍ من سكانها، فكان علينا أن نعالجه بأنفسنا. ذلك المشهد سيبقى عالقًا أمام عيني، لم أستطع نسيانه حتى الآن. قد استعاد خالي صحته بفضل الله، لكنّ جرحه سيظلّ ذكرى مؤلمة لن تمحوها الأيام.

بعد أيام قليلة من حادث خالي، كانت ابنتي الوحيدة، وعمرها تسع سنوات، تلعب قرب مخزن المساعدات الغذائية. رأت جموع الناس أمام المخزن، ركضت لتحصل مثلهم على أيّ شيءٍ يؤكل.. وبدل أن تعود بقطعة حلوى، أو عصيرٍ لها ولأخوتها، سقطت على رأسها سجادة، أحضروها إليّ بجرحٍ عميق في مقدمة رأسها..

الأطفال في عمر ابنتي يعيشون بين ألعابهم ودُماهم. ما ذنبها لتنال نصيبها من مآسينا التي نعيشها كل يوم؟ ولم يعد في مدينتنا لا طبيب ولا ممرض. لم أعثر سوى على مطهّرٍ قانونيّ. ضمّد جرحها وهي تصرخ وتبكي من الألم، وأنا أبكي من آلام قلبي عليها. شعرتُ أنّ الحياة أغلقت أبوابها في وجهي، لا شيء يسير كما نريد، ننام على مصيبةٍ ونصحو على مصيبة، وليس بيدنا شيء إلا الدعاء. ضممتها بقوةٍ لأشعرها بالأمان، كنت أدرك أنها تحتاجني، لكنني في الواقع كنت أحتاج ذلك الحضن أكثر منها.

مرت الأيام والتأم جرح ابنتي، إنما بقي أثره على رأسها وفي تفكيرها. كلما وقفتْ أمام المرآة تقول: «يا ليتني لم أذهب، ليتني بقيت معك يا أمي..» عادت حياتنا لطبيعتها تقريبًا، إلى أن جاء ذلك اليوم المشؤوم..

كانت ابنتي ذاهبة لحضور دورة تعليمية. وهي تنزل على درج بيتنا الطويل، وقعتْ عند الدرجة الأولى. استعادتْ قواها ووقفت، فسقطتْ من جديد. تحاملتْ على نفسها وجرّت رجليها حتى باب الجيران. دقّت بابهم، رأتها جارتنا مرمية على الأرض، نادتني، حاولنا إسنادها لتقف، لكنها لم تستطع ذلك. لم

لطالما كانت الحياة طريقًا مجهولًا لنا جميعًا، لا نستطيع توقع ما سيحدث لنا، لا الآن ولا مستقبلاً..

كنت أعيش مع أطفالي، ككل الأسر، في مدينة عفرين الساحرة. عفرين التي تخطف القلوب قبل الأعين، بروائحها الزكية كأنها عطر المسك، بسهولها كلوحةٍ أبدع الخالق في تصويرها، بزيتها وزيتونها الذي لا يوجد مثله في البلاد، وما كنت لأتوقع أن توصلنا الحياة إلى ما صرنا عليه.

لحظة قصفت الصواريخ فوقنا واخترقتنا أصواتها، توقف الزمن بنا ونسينا أنفسنا. لم نعد نعلم أين نحن، هل هذه عفرين التي اعتدنا عليها أم إنها أصبحت خرابًا علينا الهرب منه؟ لم نعرف حقاً هل علينا أن نرحل عنها أم نبقى!

قررنا البقاء. وطالت علينا ليالي الحرب. كنا ننام معًا خوفًا من أن يصاب أحدنا بمفرده، وأنا أمسك بأطفالي الصغار، لم يلحقوا بعد أن يتعرّفوا على الدنيا، ما ذنب هؤلاء الأطفال الأبرياء ليواجهوا الحرب ويكبروا قبل أوانهم ولا يعيشون طفولتهم؟

كانت فترةً صعبة، حُرمنا من أقل الاحتياجات، حتى من الخبز والماء. أشفق خالي علينا فقرر الذهاب لشراء الخبز للأطفال من أي بيتٍ من الجيران ليُسكت جوعهم بلقمتين. خرج وحده، خفنا عليه وعلى أنفسنا، فلا أحد يجرؤ على الخروج من المنزل بسبب القذائف. فجأةً سقطتْ قذيفةٌ بالقرب منا، وكان خالي من ضحايا شظاياها. أصيبت ساقه، صرخ يطلب المساعدة، النجدة، ولم يستجب أحد. الكل يحاول إنقاذ نفسه، أو مشغول بنقل الأموات أو المصابين المرمميين على الأرض بحالةٍ أخطر من حالة خالي.

بقي وحده في الشارع، سحب نفسه على الأرض حتى وصل إلى المنزل. دخل علينا ماسكًا بإحدى يديه خبزاً، ويضغط بيده الثانية، المليئة بالدم، على جرحه.

أفهم. لا أستطيع وصف شعوري. أطبق الضيق عليّ وأنا أرى ابنتي عاجزة. تملّكتني حيرةٌ وخوف. بدأنا بلومها: «أنت نحيلة جدًا، لا تهتمين بصحتك، ولا تأكلين جيدًا، ربما أنت متعبة..»

بعدها بدأت أعراض مرضٍ غريب تظهر عليها: تنميل في أطرافها، وبطءٌ في حركتها وضعفٌ يزداد كل يوم، ولم تعد تستطيع المشي ولا حتى الوقوف. لم نترك طبيباً اختصاصياً إلا وعرضناها عليه، وكلهم لم يشخّصوا حالتها. شكّوا بنقصٍ في الفيتامينات، أو ما شابه، لكن وضع ابنتي لم يتحسن، بل ويزداد سوءاً يومًا بعد يوم.. لم تعد ابنتي تستطيع الوقوف بمفردها. وأراها في هذا الحال ويتقطّع قلبي عليها. هي قطعةٌ منه، أراها تتألم ولا أستطيع مساعدتها. صارت تصلّي على سريرها وكأنها عجوزٌ في السبعين، وكلنا نزداد توتراً واكتئاباً، وندعو الله أن يصبرنا ويشفيها.

نصحونا بطبيب في مدينة إدلب، مختصٍّ في الأمراض العصبية، قالوا عنه أنه واسع العلم وحكيم. من أجلها ذهبنا في طريق إدلب لأول مرة في حياتنا أنا وزوجي. أنا مستعدة أن أقطع النار لتشفى ابنتي وتمشي بمفردها وتعود البسمة إلى وجهها.

أدخلها الطبيب إلى المستشفى للمراقبة والتحاليل والمتابعة. بقينا وحيدتين، أنا وهي، وعاد زوجي إلى عفرين. حاولت دائمًا إشعارها بالطمأنينة، «كل شيء سيكون على ما يرام..»، كنتُ أقول لها. لكنها تعبتْ وساءت حالتها النفسية. كان جوّالها طوال الوقت في يدها، تبحث في الانترنت عن اسم مرضٍ بالأعراض التي تعاني منها، وتقنع نفسها أنه السرطان.. وأنا أقوي من عزيمتها وأقنعها ألا تستسلم للمرض. تملّكها اليأس من كل شيء، وشعور المرض والألم وقلة الحيلة. لكنها كانت متيقنة بأن الله لن يتركها. تضحك وتريني أسنانها ليطمئنّ قلبي، بينما هي مكسورة في داخلها.

بعد شعوري أنا الأخرى بالعجز، استجاب الله لدعائي، شخّص الطبيب لابنتي مرضاً نادراً: الوهن العضليّ. أعطاها الدواء وبدأت تستعيد عافيتها وتغمرني بالفرح. استعادت نشاطها. تنهض كل خمس دقائق لتتدرّب على المشي بمفردها في المشفى، ثم تعود لترتاح. بدأت تتفتح كوردةٍ أمامي، وأنا أحسّ بطمأنينة لم أشعر بها من قبل، كأنّ ابنتي تعيد الحياة إلى روحي المنهكة منذ شهور.

أكرمنا الله وشُفيتْ. وتيقنت بعدها أنّ كلّ مصابٍ نمرّ به لا بدّ ويحمل بعده خيراً لنا لا نعلمه.

الآن، وبعد مرور سنة على مرض ابنتي، وست سنوات على الحرب التي عشناها، لا أعلم ما قد يأتي مستقبلاً، أجهل ماذا سأواجه في هذا الطريق، هل سيأتي ما هو أسوأ أم أنّني اجتزتُ كلّ سوء؟

لا أحد يستطيع تخمين قدره. لكنني على يقين بأن الله سوف يعوضني على كل ضيق مررت به، وعليّ أن أكون ليّنةً مثل الماء، يتحمل أثقل الأحمال على سطحه، ويحتوي على أثمن الأشياء في باطنه. وإذا نزل على أرض ميتة، أحياها. وإذا اعترضته صخرة، دار حولها، ولا يتأثر بالمظاهر سواء قُدم في أكواب من ذهب أو أكواب من فخار، فإنه لن يتغير. كذلك حياة البشر..

10

نجونا بأعجوبة

دلال الحراكي

دمشق، يا جميلة الجميلات، ياسمينة القلب والأمنيات.

كنت أعيش في ركن الدين، حيٌّ شعبيٌّ في دمشق. بيتنا من طابقين؛ الأول لأهل زوجي، والثاني لنا، يطلّ على دمشق بأكملها. أنا وزوجي نربّي أطفالنا ونفكر معاً كيف نؤمّن دراستهم ومستقبلهم، وننشغل بتحصيل قوت يومنا. حياةٌ بسيطةٌ مستقرّة، تملؤها الآمال..

فجأةً تغيرت الحياة والأحلام. قامت الثورة السورية، وانقلبت حياتنا رأسًا على عقب.

عبرتْ حيّنا مظاهراتٌ تناهض النظام السوري، شبابٌ يهتفون وينتفض قلبي مع هدير أصواتهم:

«حرية... حرية».

ها هي أصوات الحرية تغرد في حينا، ويقول زوجي: «حان وقتُ الحرية..»، ويركض مسرعًا إلى المظاهرة..

التحقنا به، نحن والكثير من العائلات السورية، نشارك في مظاهراتٍ في كل المدن، ونسمع أصوات القصف وإطلاق النار كل يوم.

من طابقنا العالي أرى الغوطة الشرقية، بقعة مظلمة تنهال القذائف عليها وعلى سكانها، ويتصاعد الدخان الأسود في سمائها..

أيامٌ قليلة مرّت، وفي صباح باكر، طُرق الباب بقوة، ليس بالأيادي وحدها، بل وبالأقدام أيضًا، ويتبعها صراخ: «افتحوا الباب، افتحوا الباب!»

خلعوا الباب قبل أن تلحق أم زوجي فتحه. كانوا عناصر أمن. ثمانية عشر عنصراً دخلوا..

وقفت أم زوجي بقوةٍ أمامهم وصرخت: «ما هذا؟ ماذا تريدون؟ لماذا تدخلون بهذه الهمجية؟»

اقتحموا المنزل بأجسادهم الضخمة ووجوههم الغاضبة، يحملون في أياديهم أسلحةً مرعبة وقضباناً حديديّة، قالوا لها: «نريد محمد» انتشروا في كل الأرجاء وصعدوا الدرج. دخلوا عليه الغرفة وأخذوه من فراشه.

لم أستوعب ما حصل؛ بكاء ابني فراس وصراخه: «بابا... بابا... بدي بابا!»

لم يرحموا ابني. أخذوا أباه وذهبوا به وهو يصرخ: «بدي بابا!»

إنه كابوس، أليس كذلك؟

لا... للأسف، إنها الحقيقة.

اعتقل الأمن زوجي.

ثلاثة عشر يوماً مضت بلياليها الطويلة والمؤلمة، خرج زوجي بعدها بوجه متعبٍ منهك، ولكن بإصرار لم أره من قبل.

قال: «سأكمل، سنكمل، إنها ثورتنا.»

استمرّت المظاهرات، ولم تعد سلميّةً وحسب منذ استخدم النظام السوري السلاح بكافة أنواعه في أغلب مناطق سوريا. لم يوقفنا هذا عن مسيرتنا وإصرارنا على الثورة. صار الخوف والشعور بعدم الأمان يلاحقنا في كل لحظة. بعد كل مظاهرة، تطال الحملات الأمنية أغلب أحياء دمشق لاعتقال المتظاهرين. كنا في كل مرة نضطر لمغادرة بيتنا والهروب من بيت إلى آخر. كان زوجي يضع قناعاً ويخرج متخفيًا في كل مظاهرة، ومع ذلك انكشف أمره وزادت الملاحقات الأمنية علينا أكثر. حاوطتنا الدائرة الحمراء وضاقت من حولنا. صرنا في وضعٍ لا يطمئن، لم نعد نشعر بالأمان نهائياً، وحتى عائلته أصبحت في خطر.

تداولنا الأمر فيما بيننا وقررنا الخروج من بيتنا غداً، ولم نلحق. استيقظنا في صباحٍ باكرٍ على أصوات رصاص، من شبّاك غرفتي سمعتُ جيراني يقولون إن الأمن يطوق حيّنا بالكامل، وأن الاعتقال يطال أغلب الشباب. شعرنا بالخوف. أوصاني زوجي: «اذهبي مع أهلي إلى بيت أختي، وأنا سأذهب..». هرب زوجي من سطح منزلنا إلى منزل الجيران واختبأ في غرفة مستودع. نزلتُ إلى بيت أهله، سألتني أمه وهي تبكي: «هل ذهب محمد؟» قلت لها: «ذهب، لا تخافي، سيكون بخير..»

خلعوا باب المنزل بطريقة مرعبة، كالثيران الهائجة، انتشر عددٌ كبير من عناصر الأمن في كل مكان باحثين عن زوجي فلم يجدوه. قال الضابط لنا وهم خارجون: «إن لم يسلم نفسه، سنعتقلكم كلكم بدلاً منه..»

وسط حملة الاعتقالات تركنا بيتنا، لم نأخذ سوى ثيابنا بحقيبة صغيرة، وخرجنا من حيّنا آملين أننا سنرجع بعد بضعة أيام.

بعد وصولنا إلى منزل أخت زوجي، جاءني خبرٌ مؤلم: اعتقل عناصر الأمن أخي في الجامعة، كرهينةٍ تُجبر زوجي أن يسلّم نفسه إليهم. يا الله، نجا زوجي ولكن.. لم ينجُ أخي. يا إلهي، خبرٌ صاعق، كأن أحدًا انتزع قلبي من مكانه. لا أستطيع البكاء، ولا حتى الكلام، أنا عاجزة. دخلت أم زوجي تهوّن عليَّ وتقول لي: «سيخرج، لا تخافي يا ابنتي، احتسبي أمرك عند الله، وسيكون بخير إن شاء الله.»

بعد مرور شهرين على اعتقال أخي، خرج مصابًا بقدمه، مارس عناصر الأمن عليه كل أساليب التعذيب.

هنا زاد إصراري على الثورة، وزاد يقيني بأنها ثورة حق ضد الظلم. ومعه زاد الشعور بقلة الأمان. طال الأمن أخي بسبب زوجي الذي اضطر لدخول الغوطة الشرقية هربًا من الاعتقال، وقد أكون أنا طريدتهم في المرة القادمة. بعد تفكيرٍ طويلٍ قررت مساندة زوجي واللحاق به إلى الغوطة الشرقية، تلك المنطقة التي أصبحت ملاذًا لكل من فرّ من بطش النظام. أخبرت أهلي: «أنا ذاهبةٌ إلى زوجي في الغوطة، وكلهم عارضوني بشدّة:

قالت أمي: «كيف ستدخلين إلى مكان القصف والجوع؟ هل ستغامرين بأولادك؟»

انهمرت عينا أبي بالبكاء وهو ينصحني: «لا تذهبي يا بنتي، ابقي هنا..»

وقال أخي: «أنتِ مجنونة، لستِ في وعيك!»

وواجهته: «لا تقل هكذا! هل هؤلاء الذين هناك مجانين أم مظلومون قاموا ضد الظلم؟ سأذهب مهما كلّفني الأمر، هذا قراري ولا رجعة فيه..»

وردّ أخي: «اذهبي إلى الجحيم! أنتِ مجنونة!»

وكانت معارضة أهل زوجي أشد، وكلامهم أقسى: «لن تذهبي بأطفالنا إلى الموت! زوجك هو من اختار طريقه وأنتِ لستِ مضطرة للعيش وسط الرعب والقصف، ولا توجد في الغوطة أيّة وسائل للحياة. أنتِ مجنونة!»

لكنني متأكدةٌ من قراري، أريد حريتي وحرية عائلتي. لن أتراجع ولو كلفني الأمر حياتي. سأدخل وأكون بجانب زوجي، وهناك سأهتف باعلى صوتي: «حرية للأبد غصبًا عنك يا أسد!»

كنت قد أعددت حقيبة فيها ملابس لأولادي. في صباح اليوم التالي ودعت أهلي وأهل زوجي، ومضيت في طريقي، لا أعلم ما الذي ينتظرني. ركبت السيارة ومررت على حواجز عدة، ولم يوقفني أحد حتى وصلت إلى الحاجز المفصلي بين دمشق وريفها. هناك أخذوا هويتي، وشعرت برجفة وخوف شديد، كنت قد سمعت أنّ نساءً اعتُقلن هناك أو اغتُصبن أو قتلن، ولم يستطع أحدٌ معرفة مصائرهن منذ أوقفوهنّ على هذا الحاجز.

بعد أخذ الهويات، جاء العسكري وقال: «من هي دلال الحراكي؟»

أجبت وأنا أمسك بيدي أطفالي، فراس وإيناس، أحاول أن أكون قوية. أتذكر كلمات أخي: «أنتِ مجنونة، ستذهبين إلى الهلاك بقدميكِ»

أمرني العسكريّ بصوتٍ غاضب: «انزلي إلى الخيمة، لعند الضابط»

في الغوطة الشرقية، شاهدت الدمار الكبير في أبنيتها وبنيتها التحتية، كان شكلها كئيبًا للغاية. سكنت في بناءٍ متطرّف، ولا يزال قيد التجهيز، لم يكتمل سقفه وجدرانه بعد، ولا ماء فيه ولا كهرباء، ولا أدنى مقومات الحياة، وأصوات القصف تملأ المكان.

أقبلتْ ليلتي الأولى في هذا المكان. لا ضوء سوى شمعةٍ تضيء الغرفة. تمرّ القذائف فوقنا، تنهال قربنا وأسمع أصواتها المرعبة، يصيبني خوفٌ شديد. أضم أولادي ويضمّني زوجي لأشعر بالأمان. مضت الساعات الأولى من الليل، وحان الوقت لنطفئ الشمعة وننام على أصوات القصف والعتمة الدامسة. ما هذه الليلة المرعبة! الوقت يمضي ببطء. أضم أولادي وأغمض عينيّ ليغلبني النوم، وأستيقظ على صوت الطائرة والقذائف في قصفٍ لا يهدأ.

هل يعقل أن هذا المكان لا يبعد إلا نصف ساعة عن دمشق؟

لا أعرف كيف أشعل الحطب لأطبخ لأولادي، ولا كيف يطبخون على الحطب. لم أجرّب من قبل، ولا بديل هنا عنه، أنا مضطرةٌ للتعلم. بعد محاولاتٍ عديدة بكيت وبكيت من صعوبة وقساوة هذي الحياة. حتى إشعال النار للطبخ يحتاج إلى التعلم والصبر. لكنني لن أضعف. واسيتُ نفسي وقوّيتها: لستِ وحدكِ يا دلال، انظري إلى آلاف العائلات حولكِ هنا. بقيت أحاول حتى اشتعلت النار وطبخت لأطفالي، وغمرتني السعادة لأنني تعلمتُ اليوم شيئًا جديدًا.

شهورٌ مضتْ على هذا الحال، واشتدّ الحصار على الغوطة. اشتغل زوجي في الدفاع المدنيّ، وحصلت على فرصة عمل في إحدى منظمات المجتمع المدني. أحسست بالفرح والقوة، أنني سأصبح امرأة عاملة، سيكون لي علاقات جديدة، سأثبت لأهلي وأهل زوجي أنه رغم كل الظروف السيئة في هذا المكان، سأشتغل وأحصل على دخل. بدأتُ أقدّم أنشطة ترفيهية للأطفال وأتعلق بهم؛ بألوان ثيابهم، بأصوات ضحكاتهم، بحركات أيديهم، بنظرات عيونهم

يا الله، أعطني القوة كي تحملني قدماي إليه، فأنا لم أعد أحس بهما..

سألني الضابط: «هل أنتِ دلال الحراكي؟»

أجبت بكلمة: «نعم»

قال: «هل تسكنين بمنطقة الحراك؟»

والحراك هي مدينة في ريف درعا، من أوائل المدن التي هبت ضدّ ظلم النظام، وأوجعته بقوة مظاهراتها، وقدمت الكثير من الشهداء في طريق الثورة.

قلت له: «لا، أنا من الحراك، ولكنني أسكن في دمشق، حيّ ركن الدين»

سأل: «إلى أين أنتِ ذاهبة؟»

أجبت: «إلى هنا بعد الحاجز لزيارة أختي التي أنجبت طفلاً»

سأل: «وماذا تحملين في حقيبتك؟»

أجبت: «لا شيء سوى أمتعتي وأمتعة أولادي»

أعاد إليّ بطاقة هويتي: «اذهبي، ما شفع لك سوى أنك لست من سكان الحراك»

عدتُ إلى السيارة، وقلبي مليءٌ بشعور نصرٍ داخليّ، أنني نجحت في تجاوز الحاجز. نجوت من مناطق النظام الظالم، شعرت حينها بالراحة والأمان. أكملت طريقي، ليستقبلنا حاجزٌ للجيش الحر، يرحب بنا ويدلني إلى مكان زوجي في الغوطة، وتبدأ رحلةٌ جديدة.

البريئة..

كانت حولي أكثر من عشر نساء، كلنا نعيش الحصار مع أولادنا، نشتغل لتحسين معيشتنا، نطبخ على الحطب، نأكل خبز الشعير، نحتمل طعمه السيء ومغص البطن بسببه، نشتاق إلى مضغ قطعة سكر، إلى استبدال الشمعة بضوء الكهرباء، إلى التلفاز، إلى شبكة إنترنيت لنتواصل مع أحبتنا متى رغبنا. باتت الفواكه حلماً لأطفالنا. ويتوقون لبضع ساعات من دون صفير الطائرات ودويّها، ومن دون القصف بالبراميل، ويحلمون بفك الحصار واللعب في الشارع من غير خوف.

جميع الناس كانوا سواسيةً في حصار الغوطة الشرقية!

في بداية كانون الثاني عام 2018، وفي منتصف ليلةٍ ماطرة باردة، رزقتُ بطفلة جميلة أسميتها أسيل! لا أستطيع وصف شعوري بكلمات: رغم كل هذا القصف والجوع، ستكون طفلتي بداية النجاة. أشعر بالسعادة لوجود هذا المخلوق اللطيف، يداها الصغيرتان، جسمها الرقيق، شعرها الأسود الناعم.. يهتف قلبي بحبها: «أسيل، يا قبلة حياتي ودنياي..»

بعد أيام من ولادتي، بدأ نظام الأسد حملته الجنونية في سياسة الأرض المحروقة؛ لم يهدأ القصف الجنوني لا ليلًا ولا نهارًا. يهرب الناس من مكان إلى مكان، يتنقّلون بين الأقبية بحثًا عن الأمان، يهربون من موتٍ يلاحق الجميع. تحوم الطائرات فوق رؤوسنا تمامًا. من أسفل البناء الذي نسكن فيه، نادانا شباب الدفاع المدني: «أبو فراس، انزلوا، البناء سيستهدف الآن!»

حملت طفلتي الصغيرة وركضنا أسفل البناء، منعنا صفير البرميل من إكمال النزول، ودمر جزءًا من البناء. كاد قلبي يتوقف. نظرت إلى زوجي وأطفالي وكأنها آخر لحظةٍ تجمعنا. لذنا إلى حائطٍ إسمنتي مسلح، هو أفضل الموجود

للنجاة من القصف. ابنتي إيناس تتمسك بشدةٍ برِجل والدها وتبكي وتصرخ: «لا أريد أن أموت، بابا، بابا، لا أريد أن أموت»

ثواني قليلة غيرت المشهد، بدل أن يسقط البرميل علينا سقط بجانبنا! امتلأنا غباراً حتى لم نعد نسمع أو نرى بعضنا. بالكاد سمعت صوت زوجي: «هل أنتم بخير؟» نجونا بأعجوبة. وكان علينا الخروج من المبنى بالكامل. نزلنا، وجدنا الردم قد ملأ المكان وأغلق باب البناء. ماذا نفعل؟ قال زوجي: «اهدؤوا.. سنحفر لنستطيع الخروج..». كل هذا والقصف المدفعي يستمر ولا يرحم..

استطعنا الخروج من فتحة صغيرة وركضنا مسافةً لا تتجاوز مائة متر، لكنها الأطول في حياتي. كاد قلبي يتوقف. أركض ولا تنقص المسافة، أطفالي يصرخون، الموت يحيط بنا من كل مكان. إنها النهاية يا دلال، لا تركضي، ستموتين الآن! لكنّ خوفي على أولادي جعلني أقاوم.. وكان رجال الدفاع المدني يصرخون من الجهة الأخرى للمبنى: «لا تخافوا، وصلتم. ادخلوا هنا إلى القبو..» كان القبو مركزًا للدفاع المدني، دخلناه أنا وزوجي وأولادي، جلسنا على الحجارة. ورغم ظلمة المكان وتآكل جدرانه، شعرت ببعض الارتياح. كانت السلامة من القصف أسمى هدفٍ لي في تلك اللحظة.

مضى حوالي شهر ونحن نتنقّل بين الأقبية، لا نعرف ليلنا من نهارنا. الأقبية لا تصلح للعيش، أحاول تهدئة أطفالي وأتحمل المسؤولية الأكبر، ففي حين يبقى أغلب الآباء بجانب عائلاتهم للتخفيف عنهم، ينهمك زوجي في عمله في الدفاع المدني، وعمله يحتاج الكثير من الجهد والكثير من الشجاعة والصبر. يُمضي أغلب وقته خارج البيت، في أماكن القصف. المكان الذي يهرب منه الجميع يهرع رجال الدفاع المدني إليه لإنقاذ العالقين تحت أنقاض منازلهم. لا يملكون الوقت ليأكلوا أو ليرتاحوا أو ليروا أطفالهم. يكفيهم الاطمئنان على عوائلهم لدقائق، يعودون بعدها إلى عملهم المجهد، بل يتسابقون فيما بينهم

لإنقاذ أرواح المدنيين الأبرياء.

كنتُ مليئةً فخراً بزوجي وبعمله، وفخورة بنفسي أيضًا وبصمودي بجانبه. صمدنا طوال الحملة المرعبة التي لم تتوقف، إلى أن جاء اليوم العصيب؛ يوم التهجير إلى الشمال السوري. لم نكن نتوقع أن تنتهي أقدارنا إلى التهجير. لكن، بعد كل ذلك القصف والحصار والشهداء، لم يكن لنا خيار آخر. التهجير كان وسيلتنا الوحيدة للحفاظ على كرامتنا. خرجنا بلباسنا وحزننا.

وصلنا إلى الشمال السوري، وبدأت معاناة جديدة، مليئة بالتحديات والصعوبات. بدأنا من الصفر، كان علينا تأمين المسكن والأشياء الأساسية لبدء حياة جديدة. استمر زوجي في عمله، لكنني خسرت عملي في المنظمة، فليس لديها فرعٌ في المكان الذي انتقلنا إليه. وبعد بضعة أشهر من التهجير بدأت معاناة من نوع آخر. تدهورت صحة زوجي وأخطؤوا في تشخيص مرضه، وتعرّض لسلسلة عمليات في البطن. زادت أعباؤنا وعشنا في قلق دائم. ما زالت الحياة قاسية، ولا تقل الأوضاع الأمنية والاقتصادية قسوةً عنها.

مرّت ثلاث سنوات، ورزقت بطفلة. لم أكن مهيأة لهذه المسؤولية الجديدة، ولكن إرادة الله فوق كل شيء. أسميتها شام، لأرى الشام كل يوم في عيني طفلتي الصغيرة البريئة.

يا شامي يا حبيبتي، يا ياسمينتي الصغيرة، ستكبرين ويكبر صمودنا وأملنا معكِ، في وجهكِ أحيّي نفسي وعائلتي، وكل النساء اللواتي كنَّ معي وعانين مثلي وربما أكثر، وأترحم على الشهداء، وأرجو من الله نصراً قريباً لسوريا الحبيبة..

11

غربة الروح

شورشفانة معمو

كان وطنًا.. لا ربيع ولا ضحك أو حب من دونه، ولا غناء من دونه ولا وزيتون.. مهما علا الدخان فوق سمائه، لن يغيب الجمال عن طبيعته! قريتي صغيرة، تسطع في أعلى التل، على بُعد بضعة كيلومتراتٍ عن المدينة. سكانها، كباراً وصغاراً، يعرفون بعضهم بعضاً، معيشتهم بسيطة، أيامهم متشابهة، يستيقظون باكرًا، يعشقون شرب الشاي، يرسلون أغنامهم إلى المراعي، ثم ينطلق كلّ منهم إلى حقله أو كرم زيتونه، يرويه ويرعاه ويغني له، يحبه مثل أولاده، كأنّه فردٌ من العائلة. يحصد مواسمه حين تأتي ويعيش من غلالها.. وكلهم يرفعون شعار: العمل كفاح!

حلّ يومٌ مشؤوم، أواخر شهر شباط 2012، كما لم يعتده أهل القرية. قرصُ الشمس يتوسّط السماء، ترسل أشعتها الخافتة إلى الأرض، كأنها شمس الربيع بدفئها الخجول، ودويّ أصوات الطائرات والقصف يصم الآذان. غطى الضباب الأسود سماء قريتي، وأمطرت قنابل دون انقطاع، والناس تشق طريقها بين أعمدة النار والدخان المتصاعد، ومعه صراخ الأطفال، وصيحات الأمهات والأبناء، طالبين النجدة. انقطع أنفاس بعضهم وارتفعت أرواحهم الصغيرة إلى السماء، ولا يزال بعضهم يهربون من الموت، ويعلو عويل الأمهات على جثث أطفالهن، ويغطي الآباء فلذات أكبادهم بصمت. يا للمشهد المهول! صدمةٌ لم تترك لأحدنا أن يصدّق ما يرى، أنّ الأمور آلتْ إلى حرب. لم نتوقع حربًا ولا قصفًا، لم نعتقد أن الأخبار التي سمعناها على التلفاز وعلى مواقع التواصل ستصبح حقيقة. تلتها لحظة إدراك، أن عالمنا لن يعود إلى حاله!

تساقطت الصواريخُ ودمّرتْ بيوت قريتي، كلها تقريبًا، وبعضها دُمّر نصفه، كجسم إنسان بُترت أطرافه. كانت ضيعةً آمنة، والآن يهجرها أهلها، يهربون من الموت، يتشرّدون في بقاع الأرض. ازدحم طريق المدينة بالناس، على أقدامهم أو بوسيلة النقل المتوفّرة. ذكرني هذا المشهد بمقطع من مسلسل (التغريبة الفلسطينية): لا تسل عن سلامته روحه فوق راحته. وما توقّعتُ أننا سنعيش

المشهد ذاته. أنا وعائلتي والآخرون ننوء بحقائب صغيرةٍ ومهلهلة، ليس فيها سوى بعض الملابس، وملامح الإنهاك والخوف والقلق والأمل. نمشي صامتين، على الطريق تارةً، وتارةً بين الحقول على طرفيه، بوجوهٍ بلا ملامح، لا يصدر عن أحدنا صوت، ولا تجد الابتسامة إلى وجوهنا سبيلا.. وفوقنا الأمطار الغزيرة وأصوات القصف والطيران معًا. تعب أطفالي في طريقنا الطويل، حاولنا إيقاف سيارةٍ تحملنا مع ركابها، عبثًا! كأنه يوم القيامة، كلهم يريدون الهروب والخلاص، لا أحد يفكر إلا بإنقاذ عائلته..

اختلط بكاء ابنتي الصغيرة المتعبة ببكاء وصراخ أمي. تناوبنا أنا وزوجي على حملها هي وأختها. وضعها زوجي على كتفه وقال: «هيا، اسرعوا، اسرعوا نقطع الحاجز». بعد أقل من دقيقةٍ من عبورنا الحاجز، سمعنا صوت صاروخٍ ضربه، علا الصراخ والعويل والبكاء. ركضنا خوفًا، لم نشعر بالتعب وقتها، لقد تلاشى تمامًا. إنه حب الحياة والتمسك بها. ابتعدنا عن القرية، وشريط المشهد يجول في ذاكرتي، أسأل نفسي: هل سنعود يومًا؟ هل هدم بيتي الذي عملنا سنين لشرائه؟ حيث ماضينا وحاضرنا وذكرياتنا! احتلّ هذا الوضع تفكيرنا بينما تتتالى الأيام، لا نفرق بين الجمعة والسبت، كلها كانت كابوسًا طويلاً، نحاول عدّها فلا تبدو إلا تواريخ مبهمة. حاولنا البقاء على قيد الحياة في أقبيةٍ كانت مستودعاً لعمال البناء، غير آمنة، جدرانها من البلوك المبنيّ بفوضويّة، وقد يسقط على أحدنا في أية لحظة. وهذه الأقبية غير مخدّمة، لا ماء فيها، ولا كهرباء سوى بطارية سيارة أخذنا منها شريطًا ليضيء القبو، نورٌ يكاد يضيء الظلام..

كنا عائلاتٍ لا نعرف بعضنا، افترشتْ كلّ عائلة زاويةً من القبو، نحذر من بعضنا في أيامنا الأولى. لدى بعض العائلات أطفالٌ استبدلوا المدرسة ومقاعدهم بالخوف والاختباء والحزن، أو رضّعٌ، أو امرأةٌ حامل، أو كبار السنّ. آلمني ذاك المسن المريض بالشلل النصفي، مرّةً يعتني أولاده وبناته به كأنه طفلٌ صغير، ومرّة يرفعون أصواتهم عليه إذا لم يستطع الوصول إلى بيت الخلاء، البعيد عن

الأقبية.. إنها الحرب التي تُنسي الإنسان إنسانيته، وأنا خائفة وأفكر بمصير أمي وأخي وأولاده. أدعو الله أن يكونوا بخير.

قلتُ لنفسي: سأفعل شيئاً للأطفال، لعلي أخفف عنهم بعضًا من الخوف. أرسلت ابني إليهم: «هيا، اذهب وقل لهم: سنسمع قصة ممتعة ترويها أمي لنا..» جاء بعض الأطفال، تحلّقوا حولي، تعرّفتُ على أسمائهم، ولم يلبث باقي الأطفال أن تشجّعوا وانضمّوا إلينا. سردت لهم قصة «الفيل والنملة». أحبوها كثيرًا، فقد حاولتُ تلوين صوتي بين الحدة واللين حسب الشخصيات. عندما كنت أقلد الفيل، أسمع صوت قهقهة الأطفال واستمتاعهم بالقصة. في اليوم التالي جاؤوا بأنفسهم إليّ: «خالتي، ألن تروي لنا اليوم قصة؟» قلتُ: «بلى، تعالوا». خلال ثلاثة أيامٍ اختلف تعامل العائلات، صرنا نتحاور حول حالنا ومصيرنا، ويستعير بعضنا من بعض أدوات الطعام.

في يومٍ اشتدّ القصف حتى تراقصت العواميد من حولنا لدويّه، استمر حتى الفجر، تلاه هدوءٌ لم نعتده منذ أيام، عادت معه شبكات الإنترنت والكهرباء. تواصلت فورًا مع أخي لأسأل عن أمي. قال إنهم بخير وقد غادروا القرية. الحمد لله. استجمعتُ قواي بسماع الخبر المحزن لدرجة القهر، لفراق أمي وأخي اللذين كنت متعلقة بهما كثيرًا. هو شعور بالألم الذي لا يوصف، هل انطفأ قلبي أم انطفأ جزءٌ منه؟ ساعدني زوجي على تخطي هذا الشعور. تقبلتُ الوضع، فأن يكونوا بعيدين أفضل أن يصيبهم مكروه لا سمح الله.

صباح الإثنين، وأنا أعدّ لأولادي فطورهم من سندويشات المرتديلا والحلاوة التي وزّعها فريق من الشباب المتطوعين، قال زوجي: «سنعود إلى القرية». فرحتُ، تلهفتُ لعودتنا، وكنتُ أيضاً خائفةً على نفسي وأطفالي من الخطر، فربما بقيتْ في القرية بعض مخلفات الحرب القابلة للانفجار. لكن أحد رجال القرية أخبرنا بأنه تم تمشيط القرية من الألغام. حزمت أمتعتنا، ليستْ سوى قطع من

اللباس التي جاءت معنا. استقللنا سيارة (بيك آب)، عائلة السائق تجلس بجانبه، وأنا وأولادي في الخلف. سار بنا باتجاه قريتنا، تمرّ مشاهد الطريق أمام عينيّ بسرعة السيارة، أشبه بلوحاتٍ فنيةٍ أتقنها رسّامُها، أشجار ومرتفعات وسهول وأنهار وبساتين. لكن الطبيعة حزينة. أشجار البلوط والزيتون تبكي بلا حدود، بساتين يبستْ أوراقها وهاجرت منها عصافيرها، أراضي زراعية أصبحت جبهات قتال، تحاول جاهدةً فهم المنطق وراء خسارة غير منطقية. آلام تراكمت في الطريق، سكونٌ يقتل، كأنه سباق على الغالب والمغلوب. يمضي الوقت ونحن في الطريق، والألم لا يتغير ولا يختفي..

وصلنا قريتنا، شممتُ فيها رائحةً غريبة، رائحة الموت. هل هذه قريتنا؟ أين ملعب الأطفال الذي كان هنا؟ تحول إلى مقابر. أين هي الفسحة التي طالما جلس أهالي القرية عندها وتسامروا وأقاموا سباقات عليها؟ والبيوت تغيرت، كأنما مرّ عليها دهرٌ من الهجران والنسيان. من صدمتي بكيتُ بلا دموع، ناداني ابني: «أمي، أمي، لقد وصلنا». ترجلنا من السيارة، هرول أحد رجال القرية باتجاهنا، والابتسامة تعلو وجهه وعينيه الطافحتين بدموع الفرح بعودتنا، كأننا الأمل الذي كان ينتظره.

«أهلاً بعودتكم». قال لزوجي: «هنا القرية خالية تقريبًا»، وكان ينظر في الأرجاء ويشير بيده حتى غصصنا معاً، فال: «لم تبقَ هنا إلا قلةٌ من الناس، ذكر أسماءهم، وها أنتم تعودون..الحمد لله على سلامتكم». شعرت بإحساس المغترب العائد. هل هذه قريتنا؟ لوهلةٍ تذكرت مشهد القرية قبل الحرب، أصوات لعب الأطفال، أجراس الأغنام عند عودتها من المراعي، نساء يرتدين الأثواب المزركشة مع أغطية الرأس المزهرة والمزيّنة بخرزٍ ملون من صنع أيديهن، رجالٌ كبار السن من الرجال يلفون التبغ ويمضغونه، أصوات السعال تخنق حناجرهم، شواربهم التي تصبغت بلون التبغ الأصفر. مشاعر متضاربة تخللها الألم العميق..

أرخيتُ حقيبتي وركضت إلى بيت أهلي. لم أرَه، إنه مدمَّر كليًا. لم يبقَ حجر على حجر، بقيتْ أغطيةٌ ووسائد طرزتها أمي بيدها، مركونةٌ تحت الركام. حمدت الله على رحيلهم ولم يصبهم مكروه، فأن تفقد من تحب، هو أسوأ كابوسٍ جميعنا يخشاه. تابعت المسير إلى مقابر القرية لأزور قبر أخي الشهيد، حتى المقابر تغيرت، كأن الأموات أيضًا رحلوا.

(جوان) ارتميت على القبر وأجهشت بالبكاء. كنا ندلّعه باسم جانو، ليس لي هنا من عائلتي سواك يا أخي الشهيد! استشهد أخي في بدايات الثورة السورية، كان في خدمته العسكرية الإلزامية. قال قائده إنّ ملثمين داهموه، وتبيَّن لنا فيما بعد حقيقة استشهاده. أخبرنا رفاقه في الخدمة أنه قُتل على يد ضابطٍ بسبب عدم امتثاله لأوامره في قتل الأبرياء وعزمه على الانشقاق من صفوفهم.

رجعتُ إلى بيتي المدمَّر، حاولت إيجاد سبيل لمقاومة هذا الشعور الذي لا يفارقني، شعور الغربة. بقيت لنا من بيتنا غرفة. نظّفناها من الغبار والتراب والأحجار المتساقطة. مضت أيام وأيام ثم سنة، ولم أستطع التعايش مع الوضع، كنتُ أواصل الاتصال مع أمي وأخي عبر الهاتف بالمكالمات المرئية، لا ترتوي أمي ولا يشفى حنينها إلا برؤية وجوهنا ونحن نتكلم. كانت كل مرةٍ تسألني عن البيت، وأكذب بأن البيت بخير.

من بين القصص المؤلمة في وطني، كانت قصص الأمهات أكثرها ألماً، طامةً كبرى. قطعتْ أمي حدوداً بين دولٍ برّا، بدخولٍ غير شرعي، طلباً للأمن وهرباً من جحيم حرب مجنونة لا ناقة لنا فيها ولا جمل. وقد بلغت من العمر عتياً، ثمانين ونيّف من السنين، قضتها كلها في قرية صغيرة في الشمال السوري، دون أن تفكر يوماً في مغادرة بيتها الريفي المتواضع، زيّنته بشجيرات الزيتون وحيواناتها الأليفة، وما كانت تريد الرحيل منه إلا على نعشٍ على أكفٍّ إلى مثواها الأخير.

لكن للدهر نوائبه التي تأتي على حين غفلة ومن حيث لا نحتسب، تقلب أعالي الأمور أسافلها، كما تقتلع الأعاصير الهائجة الأشجارَ المتشبثة بالأرض من جذورها وترميها، ممزوجة برائحة الدم. قذفت العاصفة بأمي العجوز إلى ما وراء الحدود لتقضي أول عيد لها خارج قريتها، بعيداً عن شجرتها، التوتة، التي زرعتها قبل أربعين سنة، والتفّتْ أغصانها وتفرَّعت حتى غطّت مساحة واسعة من فناء البيت، نستظل كلنا بفيئها ونحن حول وقت الأصيل في أيام الصيف، نحتسي الشاي ونتحدث. كم كنتُ أشتاق لتلك الشجرة!

ما إن سمحوا بالزيارات خلف الحدود لمناسبة عيد الأضحى حتى أسرعتُ لزيارة أمي. كانت سنةٌ مضتْ على فراقنا. ضمتني إلى صدرها وضممتها، شمّت رائحتي وشممتها، قبّلتْ وجنتي وقبلتُ يديها، بكت عليّ وبكيتُ عليها. شرعت تشكو لي عن حالها وحنينها إلى ما خلفت وراءها من حجرٍ وشجر، قالت بصوتٍ أقرب إلى النشيج: لا أدري كيف حال شهيدي، هل يزوره أحد؟ هل يسقي قبره أحد؟ ليتني متُّ معه، ونجهش بالبكاء معاً. تعود لتسألني: من يسقي شجرتي، هل ما زالت حية أم يبست؟ ليتها هاجرت معنا إلى هنا، متناسية أن الشجرة الأصيلة تذبل وتموت إن اقتُلِعت من تربتها الأم وزُرِعت في تربة غريبة، وتجهش بالبكاء فأطيّب خاطرها وأحاول أن أنسيها مأساتها، ولكنها تعود وتسأل: هل من خبر عن البقرة، هل ماتت؟ أم أن هناك من يعلفها ويسقيها؟ أجهد في ثنيها عن التفكير بما يؤلمها، ويرفع ضغط دمها بشيء من الهزل والهرج: فيدان خانم، خبريني شو ها الحلا، صايرة أصغر من بنتك، حتى لون بشرتك صاير أفتح، ليكون عم تحطي شي على وشك، عطينا الوصفة.. إلا أنها سرعان ما تقاطعني وتقول: وماذا عن دجاجاتي، ماذا عن بيتي؟ تتذكر كل التفاصيل التي تحبها، بل تعشقها، مثل أولادها.

أصابني سلوك أمي باضطراب عقلي وتخليط ذهنيّ: هل كنت أتعامل مع أمي الحقيقية أم مع عجوز من فلسطيني النكبة، اللواتي أُجبرن على ترك بيوتهن والتشرد في المجهول؟ كانت تسأل أخي كل يوم عن مفتاح باب البيت وضرورة الحفاظ عليه. أخي الذي لم يكن في حالٍ أفضل من أمي، كان يجالسها ويسمع ما يجول بخاطرها، وتنهمر دموعه حبّة بعد حبّة من بين جفونه، كأنما يُكمل ما يدور في مخيلتها. كنّا أنا وأخي ملوّعين مثل أمي، ومع ذلك نحاول كلانا تطييب خاطرها..

قضيتُ معهم خمسة عشر يوماً، ودعت أمي وأخي، وداعاً لا أستطيع وضع له عنوان ولا كتابة حروفه.. بعد شهرين اتصل أخي بزوجي يخبره بوفاة أمي. لا أتذكر شيئاً بعد الخبر الصاعق، أفقتُ وقد نقلوني إلى المشفى، أبكي على أمي التي توفيت بالسكتة القلبية. هل أصابتها السكتة بسبب الاشتياق والحنين، أم القهر والوجع، أم كلها معاً؟!

دفنتْ بعيدة عن بيتها كما كانت تتوقع؛ بأنها ستموت ولن ترجع إلى أرضها وبيتها وحبيبها الشهيد.

بعد وفاة أمي، قرر أخي العودة إلى القرية مع أولاده وزوجته، كنت في غاية السرور لعودته كأخٍ، سند لايميل في زمن الغربة وفقدان كل شيء: الأمن والأمان وأدنى مقومات المعيشة. وكان أخي ضجراناً ويائساً من وضع (حارة كل مين إيده إله)، الذي وصلنا إليه.

بعد ثلاثة أشهر من عودته إلى القرية، طرق أخي باب بيتي: «أختي العزيزة، أريد أن أتحدث معك بأمر». آه يا أخي: هل أنت غريب حتى تكلمني بهذه اللهجة التي لم أعتدها منك؟! لا بدّ أنك جائع، لقد طبخت كرمي نيسك (مجدرة) التي تحبها بزيت الزيتون اللذيذ مع البصل الأخضر. أختي أرجوك، اجلسي واسمعي، أريد أن أحدثك بأمر مهم.. كان في عينيه دموع، وفي حلقه غصة. الأمر كبيرٌ

إذاً! قلت: تفضل أخي. قال بعد تنهيدة وصمت: لقد قررت السفر إلى أوروبا!

ماذا؟ أعد ما قلته للتو، هل أنت جاد؟ لا، أنت تمازحني فقط مثل عادتك. لا أختي، لقد اتفقت مع السمسار؛ أرجوك، هل لك أن تعيد ما سمعته؟ كأني أصبحت لا أسمع جيداً، لقد سمعتِ ما قلته أختي. اختل توازني ودارت الأرض حولي، هي السقطة التي سببتها الكلمة! اتكأتُ وأنا ارتجف على كتف أخي؛ أجلسني بالقرب من النافذة الصغيرة، حيث يطلّ ضوءٌ يكاد يغطي فسحة الغرفة. طوقني الصمت، وأحاط بي كالشبح، وأنا مليئة بالحزن والريبة.. وبين الصمت والحقيقة والأمل، تنهمر دموعي، لا أستطيع أن أتمالك نفسي، كان ضجيج العالم كله يتصارع في داخلي!

كيف تتركني يا أخي ولم يبق لي من عائلتي غيرك؟ لقد وعدتني بأن تكون معي، ولن نفترق أبداً. كان جالساً ينظر إلى الأرض لا يتحرك، كأنه جسد بلا روح، لا أرى سوى قطرات تنهمر على أرض الغرفة، على إسمنتها الأسود الذي أصبح داكناً. تقدّمتُ منه أشده وأهزّه وأصرخ، لمن تتركني؟ هيَّا.. هيَّا اذهب، لقد تأخَّرتَ على السمسار، لا تمتّني بوجودك هنا، إن لم تبالِ بترك هذا التراب، وقبر أمي وقبر أخينا الشهيد. يا أخي اذهب ولا تلتفت إلى خلف، عجباً منك! هل أحببت هذه الأرض يوماً؟ لماذا تنظر إليّ وأنت صامت؟ قُل شيئاً، احتفظ بنظرات عينيك في جيوبك لعلك تحتاجها يوماً، هل نسيت وصية أمي؟

ثم تركته واستدرتُ إلى نافذة الغرفة، وانفجرتُ كقنبلةٍ موقوتة، كأن أخي وحده سببُ آلامي كلها:

«اذهب، لستُ مستعدةً لذرف الدموع عليك! سأبقى هنا، أنت اذهب، سأجلس بجانب قبر شهيدي، سأحمي بستانك وقريتك وبيتك، وسأنتقم لأخيك. لمن تترك زوجتك وأولادك، كم من السنين ستنتظر أكاذيبك؟ احمل صرة خيالك على كتفيك وأنت تتوجّه صوب البحر، لا تترك شيئاً خلفك، ذكرياتك لا تصلح دواء

لهذه الأرض، ولا وجودك يعطي الأمل للربيع. أو اذهب وأترك ذكرياتك أرجوك، ونور شمسنا التي ملأ دفئها عينيك.. لنرَ أي ثياب ستلبسك الغربة، أنا لست أختك، انسَ أمك وأختك، وأننا كبرنا سوياً، وأن أمك هزت سريرك يوماً، انسَ أنها أرضعتك. ماذا أقول؟ أخي: يا بن أمي وأبي؛ لو أن الأوطان بنيت بالغربة لكنت أول الهاربين، لكان الشهداء يهربون من قبورهم.. يا لك من مسكينٍ جائعٍ يا أخي، هل تعبت أسنانك من تقطيع الخبز اليابس؟ آه أخي، أصرخ هناك، امدح نفسك، تخيّل نفسك بطلاً.. أبواب الإنترنت مفتوحة، وأنت حر فيما تفعل، لكن إيّاك أن تكتب على صفحتك اشتقت ياوطني!! دع هنا واصنع لك وطناً من سياج الهجرة، اذهب لعلّ سفينتك لا تتوه في البحر، ولا تتوه أنت في الغابة؛ عسى لا تأكلك الضباع!! ولا يخدعك السماسرة، اذهب أنت وحظك. ابنِ كل أحلامك الماضية والحاضرة على الحظ، لكن إياك ثم إياك أن ترجع إليّ ميتاً!

آه أمي، الحمد لله إنكِ متِّ قبل أن تري وتسمعي ما أسمع..»

حين هدأت، التفتُّ فلم أَرَ أخي، علمت أنني لن أراه مرة أخرى. تمنيت لو أحضنه كما تحضن الأمُّ ابنها. ها أنا وحيدة مرة أخرى، قد تغيَّر كل شيء. عدتُ إلى انكساري، أَمُرُّ بجانب بيت أمّي ولا أرى سوى الركام!! هل كل هذا جرى حقاً؟

تحمّلنا ظروف المعيشة الصعبة في القرية لأسابيع، لشهور، لا فرص عمل ولا مؤسسات تعليمية أو صحية، فقررنا الانتقال إلى مركز المنطقة. هناك توعّكت صحتي لشهرين كاملين، لم أتأقلم، حالتي النفسية في الحضيض، شعرتُ بروحي مريضةً كما جسدي. وخرجت منها، والحمد لله، بفضل مساندة زوجي وأخي.

لم ينقطع تواصلي مع أخي، نقضي ساعتين وأكثر على الهاتف، يتابع وضعي ويخبرني عن حاله وبما يشعر. كان يقول:

«رغم الأمن والاستقرار والعيشة المرفهة هنا، سأعود! أنا أشتاق لوطني. للأسف لم أتأقلم، أكثر ما يفتقد إليه المهاجر في الغربة هو الشعور بالروابط البيئية الاجتماعية، أفتقد إلى عاداتنا. اشتقت للأحباب والأقرباء الذين فرقت بيننا الأيام والمواقف والأحداث.. أشد ما أصابني من الهجرة يا أختي، هو ما يشبه الاستسلام، لم يعد في داخلي اعتراضات أو موافقات، لا مُسير ولا مُخير، كل شيء يُشبه اللاشيء، لا فرق بين التوقف أو الاستمرار، الشعور واللاشعور، خاوٍ من كل مظاهر الحياة وكأنها لا تعنيني. لا فرق بين نهارٍ وليل. أشتكي همّي لنفسي القديمة، كنت أضحك من قلبي ولا أقول: الله يجيرنا من هذه الضحكة. اشتقت لسجدتي القديمة بين يدي الله تعالى، لا لتفريغ ألف همٍّ وهمّ، بل لأتلذذ بالسجود وقول: سبحان ربي.. هو وقت يمضي من عمرنا ولا نعرف إلى أين يمضي بنا..»

بعد أيامٍ من انتقالنا إلى مركز المنطقة، عُرضتْ على زوجي وظيفةٌ في مجال التعليم، وقبل بها رغم أجرها القليل، فلم تتوفر فرصةٌ سواها. والتحق أولادي بالمدرسة. وبدوري بحثتُ عن فرصة عمل، وبعد مضي وقت قليل، وجدتها والحمد لله. كان بعض القائمين على ملف الأيتام في المنطقة، ومن دول الجوار، قد موّلوا مشروع روضةٍ لتعليم وترفيه الأطفال، وكفالات تساعد الأمهات على معيشتهن. افتُتحت الروضة وعرضوا عليّ تعليم أطفالٍ أيتام، استشهد آباؤهم في الحرب. سعدتُ لأنني سأقدم شيئاً للأطفال. وأحببتُ عملي، وبذلتُ له كامل جهدي.

كان عددنا أربعة، بدأنا من الصفر: تأمين المبنى والأثاث وكل ما تحتاجه الروضة.. اشتغلتُ حتى وقت متأخر، وتواصلتُ مع الأمهات لاستكمال البيانات والجولات.. كانت البداية صعبةً لي وللأطفال، هذه نقلةٌ محوريةٌ في حياتهم؛ انفصالهم عن الأهل، بيئة جديدة، أصدقاء جدد، بكاء متواصل، مشاعر غير مستقرّة.. وكم واجهنا تحدياتٍ في التعامل معهم وتقديم الدعم العاطفيّ

لهم! كنا نحتضنهم حتى يهدؤوا، نشجعهم، نساعدهم على الاندماج مع الآخرين دون خوف، ونسمح للأم بالجلوس في غرفة مجاورة أو مقابل باب الصف..

وكانت النتائج ممتازة. تعلقوا بي وتعلقت بهم. صاروا حين أدخل إلى الروضة، يركضون إليّ ويحتضنوني، وأشعر أنني أنا التي تحتاج إلى حضنهم وشمّ أنفاسهم العذبة. وقعت في حب تلك المخلوقات الصغيرة. ليس أجمل من العمل مع الأطفال! ما أعذب قلوبهم؛ طاهرة، صافية، صادقة، مرهفة، أحاديثهم مشوّقة، كأنها قصة حلم وقصيدة أمل..

في عالم الطفولة المخمليّ، وبعد ما كان فكري تائهاً وآلام وآهات تعتصرني، صرتُ ألمح بريق أمل في متاهات الحياة. بدأتْ سعادةٌ تحتضنني وتحتويني، لأتحوّل تدريجياً من شخصية ضعيفة مكتئبة، غير متأقلمة وحيدة منعزلة، إلى شخصية قوية مساهمة ومهتمة بالقضايا الإنسانية ومساعدة الآخرين، ومتوازنة فعّالة في المجتمع.

نجح المشروع، ولاقى نجاحاً واسعاً. وتوسّع مشروع هذه الروضة إلى سلسلةٍ من الروضات، أشرفتُ على إعدادها وافتتاحها مع أصحاب المشروع. دفعني حب العمل إلى الاجتهاد والإصرار على الاستمرار. كنت مقتنعة بأن النجاح ليس نهاية الرحلة، بل هو بداية جديدة، ولا تأتي الفرص من تلقائها، عليّ صنعها..

ومن مغتربه، لا يزال أخي يبتغي ويود ويأمل العودة! يخبرني عن حنينه وذكرياته، كعاشق يتغنى بالوطن، يعيد جملته الشهيرة: اشتقت للوطن، سأرجع ذات يوم. لم يكن هذا حال أخي فقط، بل كل مغترب رأى في الهجرة غاية لتحقيق ذاته وأحلامه التي فقدها في وطنه، فحاول رسم وطنٍ يليق بتطلّعاته..

أما أنا، وفي بلادنا المنهكة، التي تودّع محبّيها وعشّاقها، ورغم ما فيها من انعدام الأمن والاستقرار، ورغم أنها تحتضن المنافقين والانتهازيين، وذوي

النزوات المريضة، والذمم التي تشترى وتباع، الذين يطلقون حرب الأخوة، ويحاربون المبدعين والأقلام الشريفة، ويرفعون شعار الوطن من أجل بطونهم العفنة؛ فقد قررت بكل إصرار: أنا ووطني سنتحدّى الصعاب، وسوف نصل يوماً وترونا في الأفق البعيد.

هذه القلوب الصغيرة، قلوب الأطفال، أعادتني إلى حضن الوطن..

12

بروح طفلة

أريج بنيان

- عمي! يا عمي! إلى أين أنتَ ذاهب؟ أما وعدتني أن تلعب معي اليوم؟

- ويحكِ يا صغيرتي! أنسيتِ أن اليوم هو الجمعة؟

تبسّمتُ حتى ظهرت أسناني وقلت: «إنه الجمعة، وأنتَ اسمك جمعة! أتحب هذا اليوم؟»

طبع قبلة دافئة على خدي وقال: «حان موعد الآذان.»

سألتُ جدتي: «ألم يعد عمي؟ أنا أنتظره لنلعب سوياً»

قالت: «بلى، عاد، لكنه يكلّم خطيبته. لن يتأخر، فهو يحبك»

وما هي إلا لحظات حتى جاء ليعانقني من الخلف ويغمض عينيّ، كأنه يلاعبني (الطمّيمة).

قلت بدهشة: «من أنت؟ من أنت؟ افتح لي عينيّ!»

قال مبتسماً: «لن أفتح قبل أن تبتسمي وتلعبي معي»

قلتُ: «كنت حزينةً قبل أن تأتي، إلا أنك جئت، فلا وقت للحزن معك.. هيّا لنلعب قبل أن تتصل محبوبتك مرة أخرى»!

ورغم الضرب الذي لم يتخلَّ عنه عمي أثناء اللعب، باعتقاده أنه يداعبنا، وكان أولاد العائلة يخافون منه ويبكون؛ كنت أصدّق أن عمي يداعبنا حقاً، وتغمر السعادة قلبي معه، فقد اعتدت على قواعده في اللعب، كان كل شيء معه جميلًا ومختلفًا..

ذات يوم، أغمض عينيّ كعادته ليلتقط صورة للذكرى، وحينها سمعنا صوت ابنة عمتي تقول: «وأنا أيضًا!» كانت أول وأجمل صورة لنا، أنا على يمينه وهي على يساره. علت أصوات ضحكاتنا حتى سمعنا جدتي تنادي: «جمعة، جمعة..»

ارتسمت ملامح الحزن على وجهي، ولكنني عندما رأيت صورتنا الجميلة، غرّدتُ فرحاً كطائر الهزار.

عمي جمعة جزءٌ من طفولتي التي لم أعرف فيها سوى الدلال، ولم أَخبر سوى الفرح. كنت، حين أخاف، أنام بجانب أبي، وقبلةٌ منه قبل النوم تغنيني، ويغمرني الأمان حين يغطّيني في الليل.

عوّدنا والدانا ألا نرتدي أنا وأخواتي سوى فساتين الأميرات. كنتُ أمشي كأميرةٍ بفستانٍ ورديّ، من الفساتين التي كان يجهّزها لنا بنفسه، أجملها كان فستان الروضة، بلون شجرة التفاح. وتشتري أمي لنا الإكسسوارات والأحذية. ولا أنسى كيف فاجأنا أبي ذات مرةٍ بهدية، غرفة الأحلام؛ ثلاثة أسرّةٍ فوق بعضها، ومكتبة لكتبنا، وكمبيوتر.

كنا نرى أبي بطلاً يفوز بقلوبنا الصغيرة، خصوصاً في نزهة يوم الجمعة، نذهب إلى مطعمٍ فيه نافورة، أدور حولها ويضحك أخوتي عليّ. ونلعب في الطابق السفليّ كما نشتهي، وما زال في ذاكرتي مذاق السكالوب فقط كما أكلناه في مطعم «البالون». وكنا نزور جدّتي يوم السبت، ونلعب مع ريم ولارا ونداعب القطة، منذ صغري كبر فيّ حبّ الحيوانات الأليفة..

في أواخر عام 2010 وبداية عام 2011، تغيّر عمي جمعة. صار يتحدث بجديّة ونادرًا ما يضحك، ولم يعد يصلّي الجمعة وحسب، بل يؤدّي صلواته الخمس، وأصبح أكثر قرباً من والدي. لم يتوقف عن مداعبتي، إنما ليس كالسابق.

قالتْ له جدتي: «كم تغيرّتَ يا جمعة. لم تعد كما كنت. الحمد لله الذي هداك وأرشدك إلى طريق الصواب»

وجاءت الثورة، انتفض البركان، هبّ الشباب يهتفون: حرية، كرامة! وصل النداء إلى قريتنا الهادئة، واختلفت الآراء والمواقف بين أبناء البلد، ما بين مؤيد ومعارض. نهض شباب ورجال عائلتي من أجل كلمة حقّ. اشتغلوا في الخفاء، بعيدًا عن أعين أهل القرية. أبي وعمي الشجاعان كانا في الصفوف الأولى.

حين رأت جدتي عمي جمعة قد جهز حقيبته للالتحاق بركب الثورة، علمتْ أنّ شعورها بالخوف عليه أصبح واقعاً. لم يتحمل قلبها الخبر، فهي تعلم أنّ الاعتقال قد يطاله كما طال الشباب في أحداث الثمانينات، بينما هي تنتظر

أن تفرح بيوم عرسه؛ لكنها لم تمنعه بل شجّعته، رفعت يديها تدعو له ولرفاقه: «اذهب، وسوف ترافقك دعواتي دائمًا..لكني خائفة عليك». واستجاب الله لدعائها. عاد لها من جديد. ربما جاء ليودعها. قبّل يدها بحزن وقال: «الموت حق، وأشعر أنه قريب مني، فلا تخافي عليّ ولا تحزني.»

قد جاءت الحرب. ما زلتُ طفلة في العاشرة من العمر، زهرةٌ تكاد أن تذبل، فلا شيء يبقى على حاله مع الحرب. اقتحمت الحرب عالمنا البسيط، دخلتْ بيوتنا فاقتطعت جزءاً من رونق الضحكات ولمّة الأحباب، وجلبت معها قسوة الفراق. لم يخبرني أبي شيئًا عن الفراق، أو أنّ للحياة لوناً آخر، وأني سأفتقد طعامي المفضل يوماً، وسأبكي في الليل اشتهاءً لمربى المشمش، وأنني لن أستطيع الاتصال بأبي حين يغيب عنّا إلى عمله.

حتى عمي جمعة الذي لم أبكِ خوفاً منه مثل باقي الأطفال، بل كنت أضحك وأقبّله قبلة اللقاء، وكان يهمس في أذني دائمًا: «الحياة جميلة، وتحلو باللعب معك»، وكأنّ لا ألم فيها ولا فراق. لم يخبرني كم تتقلّب الحياة، وأنه سيفلتُ يدي يومًا ولن يعود ليمسك بها أو يلعب معي. ولم يخبرني عن الموت الذي سينال منا جميعًا حتى وإن كنا في أحضان من نحب.

لكنني عندما اخترق الفراق جسدي، وعصر قلبي، وهاج البحر وخرق أشرعة سفينتي، فهمتُ وحدي كل شيء.

منذ جاءت الحرب وذهب والدي، ذهب الأمان، ورافقني الخوف حتى نام معي في فراشي.

حتى المرح واللعب والضحك لم يعد ينبع من قلبي.

حتى بيتنا الذي ألفته، وكان في نظري أجمل منزل، صرتُ أنظر إلى الغرف، ما زالت الأشياء في مكانها، لكنّ البيت غدا سجناً مقفلاً لا يرى ضوء الشمس،

ومقبرةً للذكريات. كنتُ أسمع من جدي عن حرب تشرين وعن الجولان وفلسطين، وتمرّ أحاديثه عابرةً في ذاكرتي. كنت أصغر من أن أعي معنى الحرب.

ظننتها فترة وتمر، ستعود أشيائي التي افتقدتها، لكنها دامت وزاد افتقادي مع مرور الأيام. امتلأت قريتنا بأناس غريبين، وأحضر والدي إلى بيتنا ثيابًا جديدة، ولكنها لم تكن لنا، فخزانتنا كانت مليئة بالثياب، كانت هذه للنازحين، ولكن عقلي الصغير لم يفهم يومها.

في ليلةٍ شتويّةٍ باردة، انضم فرد جديد إلى عائلتنا، وردة اسمها شام. كان أبي يرغب في تسميتها «ياسمين الشام»، لكنه قرر أن يترك اسمها شام فقط. جاءت قبل رحيل أبي، وأنا أسميتها «طفلة الحرب»، فبعد ولادتها في ظروف قاسية، سوف تكون شام طوال سنواتها الأولى مختلفة، صبورة، تقبل بالقليل، فقد حُرمتْ من دلال والدها، بينما ترى أبناء عمي وباقي الأطفال في أحضان آبائهم.

حاول عمي أن يحلّ مكانه، إنما لا أحد يعوّض مكان الأب، حتى حضن أمي لا يعوضه. تذكرتُ أبي ينتظرنا نعود من عند «أبو عبدو» نحمل إليه سلطة الفواكه التي يحبها كما كان يحب العم أبو عبدو. أذكره في الصيف والشتاء، أذكر المدفأة التي لم تعد موجودة، فرقعة الكستناء وأبي يشويها، وأنا أضحك بينما يطعمنا بيديه. في هذا الشتاء القاسي، لم يعد لنا سوى اللحاف غطاءً، وحجر أمي كان منزلنا. كان بيت جدي، الذي انتقلنا للعيش فيه، جميلاً إنما من نمط البيوت العربية الواسعة، يملؤه الضجيج نهارًا بثماني بنات وسبعة شباب، وأراه في الليل مخيفاً وموحشا.

عاد الحنين والشوق إلى قلبي ألمًا من جديد في تلك الليلة، غطى الليل كل مكان، وحينها قررت أن أواجه الحقائق. فقد استحضرت ذاكرتي كل الذكريات

الأليمة، وتخبطت في أسئلتها التي لم تجد لها إجابات.

دائمًا ما أسأل أمي عن غياب أبي الطويل، وأذكر كيف ودعنا، وقبّلنا، ووعدنا أنه سيعود قريبًا. لكن، أهذا هو القريب؟ لقد سافر إلى تركيا، ولم نشعر بغيابه، لكنني أشعر الآن أني يتيمة. فهو يتصل بنا مرّةً كل شهر، ولا يتحدث إلا قليلاً.

هل ما تركنا لأجله أهم منا؟ أعرف أنه يحبنا، لكن ما حدث عكس ذلك، فقد تخلى عنا حقًا.

لطالما وعدنا أنه سيبقى معنا، ويوقظنا باكرًا من أجل المدرسة، ويشتري لنا ثياب العيد، مثلما يشتري عمي لبناته.

ولطالما حاولت أمي تعويض الفراغ الذي تركه أبي، لكنها لم تنجح. كانت أمي قد نشأت في بيئة المدينة، في هدوءٍ ونعومةٍ ودلال، وهي الكنة الوحيدة الغريبة التي جاءت إلى ضيعتنا، لم تعتد على أهل أبي، ولم يعتادوا عليها بسهولة، لكن أبي كان يمنع الجميع من إزعاجها. بعد غيابه، لم تعد قرارات بيتنا في يدها، صار الجميع يتدخّلون، وصارت أمي تُدعى «أم البنات».

أخبرتني أمي أن الصبر هو ما يجعلنا نستمر في الحياة. وكان الصبر يشق عليّ، يسألني أصدقائي كثيراً عن والدي، وأجيبهم بابتسامةٍ كاذبة وعيونٍ ذابلة أنّ أبي في تركيا ويتحدث معنا. وأعود إلى البيت، وتتجمّع الغيوم السوداء في سمائي وتنهمر عليّ كماء المطر.

في إحدى الليالي، وبعدما أسدل الليل ستاره الأسود، وغطت ظلمته كل شيء، ذهبتُ وحدي إلى غرفة والديّ. فتحت النافذة ونظرت إلى السماء بعيون حزينة وذابلة. تذكرت الأيام الماضية والضحكات التي طُبعت في قلبي حتى لن ينساها. ها نحن في بيت والدي، الذي هو جزء من بيت جدي الكبير، ومعنا أيضًا بيت عمي الأصغر الذي تكفل برعايتنا. أحببنا جدي وجدتي؛ فقد

وضعا ملحًا على جراحنا واحتضانا بعيدًا عن الجمع، فنحن بنات حبيبهم.

بعد بكاء طويل، جاءت الذكريات لتنسيني الأسى. نحن في نزهة، وارتفعت أصواتنا نتسابق على إخراج رؤوسنا من شباك السيارة، بالطبع كنت أنا، لكن الآن أشعر بأنني كنت أنانية، وأن إخوتي كانوا مساكين.

فجأة، عُدت إلى الواقع ورأيت أمي تبكي على الحال الذي وصلنا إليه، وهي عاجزة. احتضنتها بعمق، كما كانت تعانقني حين أبكي، وقلت لها: «أحبك يا أمي، لا تبكي».

حين كنت صغيرة، كنتُ أقول ما يحلو لي، أخبر أمي دائماً أنني أحب أبي أكثر منها. ما زلت صغيرة، إنما لم يبقَ كل شيء على حاله؛ بدأتْ صورة أبي تتغير شيئًا فشيئًا، وصرنا أنا وإخوتي نصنع سيناريوهاتٍ ونصدّقها.

كم حاولتْ أمي أن تكون أبًا وأمًا، وتجمّل صورة أبي في نظرنا. وكنا نقول لها دائماً: نحن لم نكره أبي يا أمي، بل كرهنا الحرب والثورة، لأنها خلقتْ هذه الفجوة بيننا وجعلت حياتنا سوداء. نمشي بين الأصدقاء، ونكذب كذبة تلو أخرى، أنّ أبانا يكلمنا كل يوم، لكنه مشغول بعمله الجديد في طباعة الألبسة في تركيا.

تصارعت أفكاري ما بين ماضٍ جميلٍ وحاضرٍ مؤلم، رأيتُ كل شيء باهتًا، حتى الجدران فقدت بياضها، تقشّرت وأصبح لونها رمادياً.. انذرفت دموعي كأمطار السماء، ثم تنهدت بعمق واستلقيت على السرير حيث كان والدي، أغمضت عينيّ لأطرد كل هذا وأهدأ.

وإذ بوجهٍ ينساب منه نور كجمال البدر في ليلةٍ مظلمة، يرتدي عباءةً بيضاء كالعريس في ليلة زفافه، ويبتسم بلطف. لم أعرفه في الثواني الأولى، وحين بدأتْ ملامح وجهه تتّضح، تسارعتْ دقات قلبي، واتسعت عيناي الصغيرتان،

وتجمدتْ أطراف أصابعي. قلت في نفسي: «إنه الحبيب اللطيف!» لكنه مضى سريعًا قبل أن أحتضنه وأقبّله، وألعب معه، كأنه شهابٌ سماوي، لمع في السماء واندثر.

ركضت بسرعة وناديت: «أمي، أمي»! رأتني أرتجف، غطتني وأحضرت لي الماء، وضمتني إلى صدرها الحنون، فشعرت بالأمان.

قالت: «أنا معك، قصّي عليَّ ما الذي حدث يا صغيرتي»

قلت: «أمي، أليس عمي في الجنة؟ سمعت جدتي تقول إن الأموات يزورون أحبابهم ولا نراهم، لكنني رأيته، هل هو وهم أم حقيقة يا أماه؟»

لم تجبني أمي، تابعتِ تحتضنني في حجرها الدافئ، وهمست في أذني: «لا تحزني ولا تخافي، إنه في الجنة إن شاء الله»

في صباح اليوم التالي أخبرت صديقاتي في المدرسة بما رأيت. أنصتتْ إحداهن إليّ بعينين جاحظتين، وعلى وجهها ملامح التعجّب. وأزعجني ضحكُ صديقتي الأخرى: «أيعقل هذا؟ بالطبع أنتِ تتخيلين.» وسألتني الثالثة ذات السؤال: «هل حقًا تنزل أرواح أحبابنا من السماء أم هو وهمٌ وخيال يخلقه الشوق؟»

وهكذا بقيت بين الحيرة والتعجب.

سألت أمي: «كيف مات عمي؟» كنت صغيرة، ولا أتذكر إلا القليل. قالت لي: «سأخبرك، لكن من غير بكاء»

سأحاول، يا أمي. وبدأتْ تروي:

«في تلك الليلة التي لا تنساها الذاكرة، اتصل عمك بأخيه الأصغر طالبًا منه

إحضار سيارة والدك من بيتنا، وكانت السيارة قد أصبحت أشبه بمقبرة، فقد ثقّبها الرصاص وفتّت بلورها. ولم يتردّد عمك الأصغر في إحضارها رغم أن إحدى قدميه كانت مكسورة. كان جدك ذاهباً ليتوضأ، فسمع صوت الرصاص. ركض ليستطلع، فرأى ابنه الأصغر من خلف الباب، وعددٌ من المسلحين خلفه. وضعوا منديلًا على فمه، وضربوه على قدمه المكسورة، وأدخلوه في السيارة. جحظت عينا جدّك من هول المنظر، وتكتّفتْ يداه. لم يعرف ماذا يفعل، عاد إلى البيت يمشي بتثاقل، كأن كل عظمة من عظامه تتمزّق.

هي ليلة الثامن والعشرين من شهر ذي الحجة، التي وقعت فيها الحادثة، هي الليلة نفسها التي تلاقت فيها سيارتان لم تعرف إحداهما الأخرى. إلا أن جدتك قالت لزوجة عمك: «أشعر بضيق في صدري وألم في قلبي، لا أعلم لماذا أشعر بذلك كلما نظرت إلى تلك السيارة.» كأنها حدستْ بأنها ستؤذيها فيمن تحب، بينما لم تشعر زوجة عمك بشيء من هذا، فقد أتاها المخاض في تلك الليلة. وذهبت لتنجب طفلها، وقد رزقها الله بمولود ذكر جميل، أسماه عمك علي. ورغم أنه الابن الأول لعمك، إلا أنه لم يحظَ باهتمام كبير؛ فالأسرة كانت حزينة، وكان البيت مظلمًا بعد رحيل عمك الأصغر، وزوجته خائفة من أن ينشف حليبها من شدة الحزن، فذهبت إلى أهلها.

وصلتنا أخبار عن الذين اختطفوا عمك، ابتسمت جدتك وقالت: «اقترب موعد اللقاء.» ذهب جدك إليهم مسرعًا، فقالوا له: «لا نريد ابنك هذا الذي اختطفناه. بل نريد ابنك الذي هرب منا. فإن أحضرته، رددنا إليك ابنك» فرجع مكسور القلب، ووجهه بلا لون. قال بصوت عالٍ: «يريدون أن أبادلهم ولداً بآخر، والله لو قتلوه لا أسلمهم ابني الآخر»

كأنه كان يقول في نفسه: «ألا يعلمون أن كل ولد هو روحي وقرة عيني؟»

بعد عدة أيام، عاد إليهم مرة أخرى، فطلبوا منه المال بعدما أصرّ على أنه لن

يسلمهم ابنه. فذهب إلى بيته ليجمع المال، لكنه لم يكن كافيًا، فباع الأرض ليكمل ما تبقى، وقال: «الروح غالية، وابني أغلى ما أملك.»

رجع إليهم وسلمهم جميع الأموال، لكنهم قالوا: «انتظر وارجع إلينا مرة أخرى.» فبقي في حالة ما بين الرجاء والخوف.

بعد مرور شهر تقريبًا على اعتقاله، اكتشف ابن أخته مكان وجوده. جاء ولم يقل سوى: «قتلوه... قتلوه... والله قتلوه.» ظنوا أنه أصيب بصدمة جعلته يهذي. لكنه أصرّ، وأعاد تأكيده قائلًا: «والله، قتلوه. لقد رأيته أمام عيني، ولا أكذب، والله شاهد على ذلك. قتلوه؛ لا تنتظروه، فإنه مات ولن يعود.»

تهامس أفراد الأسرة بأن عقله ربما اختلّ، لكنه أكّد لهم: «إذا لم تصدقوني، فوالله لقد عذبوه، واستغلوا قدمه المكسورة. وضعوا زيتًا وصابونًا على الدرج، ورموه، وهم يضحكون ويسمعون ويرون كيف تتكسر وتتجرّح قدماه.» وتابع قائلًا: «بعد أن عذبوه حتى لم يبقَ منه إلا أنفاسه الأخيرة، علقوه بقميصه وتركوه فوق أجساد أصحابه.»

عند سماع ذلك، صرخت جدتي قائلة: «إنك تكذب! إنه حيّ، وسيعود إلى حضن أمه.»

بقي أعمامك في صمت، يحدقون في وجوه بعضهم، وكأن الكلمات خانتهم. لقد صدقوه رغماً عنهم، لكنهم أرادوا أن يروا ذلك بأم أعينهم، فبدؤوا بالبحث في كل مكان، ولم يتركوا باباً إلا وطرقوه. ذهبوا للبحث عنه في المستشفيات، رأوا أشلاء مقطعة، رؤوسًا وأيادي، ودعوا الله أن لا يكون أخوهم بينها. استمروا في البحث حتى وصلوا إلى مستشفى يحمل الرقم (136)، وأدركوا أن ابن أختهم لم يكن كاذبًا ولا مجنونًا.

لم يتعرفوا عليه في اللحظات الأولى بسبب الصدمة، لكنه كان أخاهم رغم تغير

ملامحه وألوان جسده المصبوغة. تسلموا جثمانه، فحمله أحدهم وقدمه إلى والدته كالعريس يوم زفافه. كان مشهداً مزيجاً ما بين الصمود والانهيار..

سألت أمي: «لماذا لم أكن أعرف كل هذه التفاصيل؟ لم أذكر إلا أنني بكيت كثيرًا وأنني كنت في حالة صدمة؛ فتاة في التاسعة من عمرها. أتذكر جيدًا حالة جدتي المنهارة: 'إنه ليس ابني، إنه ليس ابني». ظلت على هذا الحال لا تأكل ولا تشرب ولا تنام، بينما كنت أراقب جدي، الذي ظل صامدًا وقويًا، وعينيه ثابتتين بلا دموع. كما أتذكر عمي بين القوة والانكسار، وقراره بأن يسمي مولوده الأول جمعة على اسم أخيه الشهيد.

عدتُ أتذكر يوم رأيت عمي متوجهًا إلى محبوبته وخطيبته. كان يبدو جميلاً، ورائحته كالمسك والورد، وبيده هدية يقدمها إليها. تذكرته وهو يغني: «مريومة ردي عليّ، وينك يا مريومة». كانت تلك الأغنية قريبة إلى قلبه، وكان يحب «مريومة» كثيرًا.

ولم يكن هذا الفراق الأول والأخير، فقد ابتعدت أمي عنّا بعد والدي بخمس سنوات. قالت لنا: هذا ليس وداعًا بل «إلى اللقاء»، وأنّ غيابها لن يتجاوز الشهرين. احتضنتنا بحب وحنان، وعانقناها أنا وأخوتي بشدة، وكأننا نريد إبقاءها معنا. لم نعد نرى والدينا سوى بالصوت والصورة. كان رحيلها أشبه بزلزالٍ هزّ بيتنا. رحلت لتُرزق عائلتنا بذكرٍ جديد، صرنا متشوقين لرؤيته.

يومها كنت في فترة امتحانات التاسع، وابتعدتُ عن إخوتي أيضاً، سافرتُ إلى دمشق لأخذ دروسٍ خاصة عند خالي، بسبب تقصيري في بداية العام وإهمالي. وهكذا أصبحت وحدي، أنا والليل، أصارع الأرق والخوف والحزن. كان أول رمضان يمرّ عليّ بعيدًا عن أمي وأخوتي. أنام وحيدة كزهرةٍ قُطفت ورُميت في بئر كبئر يوسف، لكنها لا تزال صامدة لينجيها الله من نفسها أولًا، ومن ثم من ظلمات ثلاث: ظلمة الفراق، وظلمة الحنين، وظلمة الروح.

ركزت على دراسة المواد التي أخاف منها، وخصوصًا الرياضيات. بدأ نور الحياة يعود إلى قلبي، وكأن الوردة قد بدأت تزهر بعد عناء طويل، وانقضت السنة، وظهرت النتائج. لم تكن جيدة كما توقعت، لكنني تقبلتها؛ فقد كانت حصيلة شهرين من الدراسة دون تركيز أو رغبةٍ بالدراسة.

لم تكن فرحتي كبيرة بنجاحي بقدر سعادتي حين سمعت أن أمي ستأتي قريبًا. أخبرتُ أخي: «أمي لم تخلف بوعدها، هي ستأتي، رغم أنها تأخرت قليلاً.» ابتعدت عنّا نحو سبعة أشهر، لكن لا بأس، الأهم أنها ستعود. كان الانتظار صعبًا بعد شوقٍ طويل، لكن الأصعب أن تنتهي لهفة انتظارنا بلا لقاء.

لم تتمكن أمي من المجيء. لم يسمحوا لها بالمرور عند منتصف الطريق، فعادت باكية إلى أبي. ونحن بكينا ثم جففنا دموعنا عندما علمنا بذلك، وتحدثنا مع والدي لنطمئن بأن أمي وصلت بسلام.

وهكذا، انقسمت عائلتنا، وكأن أرواحنا اقتُسمت نصفين. كان من المفترض أن يكون فراقها شهرين فقط، لكن القدر كتب حكاية أخرى. رحلت، ورحل معها كل شيء. بقيت أنا وأخواتي شذا وهزار نصارع هذه الحياة، نبكي معًا ونضحك معًا. الأصعب هو أن أمي وأبي لم يكونا يعلمان بأنهما تركانا في غابة مظلمة مليئة بالوحوش والذئاب والأفاعي.

مرضت أختي الكبيرة، اشتدّ مرضها وتعبها. وأصبح عمي الأكبر مسؤولاً عنا ويهتم بنا هو وزوجته خديجة، كانت تحتضننا وتقول: «ليس لديّ بنات، لكن أنتنّ الآن بناتي» شعرت وكأن الله وضع في قلبها شيئًا من حنان خديجة رضي الله عنها. كانت تحضّر الطعام الذي نحبه، بكل حبّ، وخاصة الملوخية والفاصولياء لأختي شذا، التي كانت مريضة وتحتاج إلى نظامٍ غذائي خاص. ومع ذلك، لم تشعرها أبدًا بأنها مختلفة، تحتضنها وتقول: «ستشفين بإذن الله.» بقيت شذا الأكثر تحمّلًا للأعباء، تذهب إلى الجامعة وتجلب لنا احتياجاتنا، ولم تنسَ

«المتة» والحلويات والفواكه، فهي تعلم كم أحبها.

بقينا لسنوات على الوتيرة نفسها؛ نسمع الكثير، لكننا لا نرى سوى القليل. في غياب والديّ، لم يكن احتياجنا ماديًا، بل صدرٌ حنونٌ وروحٌ تصاحب أرواحنا بدفءٍ وطمأنينة. لم يكن الآخرون بهذا الحنان، شعرنا في السنة الأخيرة فقط، في بيت عمي الأكبر، أننا جزء منهم، وأن المال لا يُطلب، بل يُعطى بصدق ومحبة. ذهب البكاء، ولكن شعور الخوف والحزن ما زال يرافقنا. أن نبقى طول حياتنا، حتى في التخرج والزواج، بلا وجود والديّ، أمر صعب. لكنّ هناك نورًا يهدي إلى طريق النجاة: الدعاء، والتوكل على الله، وشكره في كل حين.

لا أقول إنني لم أكن أدعو من قبل، فالآن أدركت يقينًا أن الصبر يعقبه الفرج، وأن الله على كل شيء قدير. بدأت أصلي بخشوع، وأستحضر في قلبي أنني في لقاء مع الله. شعرت لأول مرة أنني أصلي، دعوت بكل جوارحي، وأبكيت نفسي حتى شعرت بالراحة. حينها تذكرت سورة يوسف، كيف ابتعد عن أبيه وكيف جمع الله شملهم في النهاية. فأصبحت لا أنام قبل سماع سورة يوسف، وتكرار الآية: «سيأتي بهم الله جميعًا»

أصبحت أتحرى أوقات الاستجابة عند السجود، وفي الأيام المباركة. وعندما أخرج إلى الشرفة، كنت أستقبل المطر وأدعو بصدق. كنت أتذكر مناجاة إخوتي لي خوفًا من أن أمرض من البرد، لكنني كنت أجيبهم: «قليلًا وسأعود إن شاء الله.»

عرفت أن الدعاء نعمة عظيمة. وبدأت أرى استجابة لدعائي شيئًا فشيئًا؛ فقد شُفيت أختي، وأصبحت تنام بسلام دون ألم. وأكرمني الله بصاحبات صالحات، عائشة وسيدرا، وأسميتها «سدرة المنتهى»، إذ لطالما كانت روحي تتوق إلى صحبة صالحة، وجاءت استجابة لدعائي. فالدعاء يقرب البعيد ويجمع بين القلوب.

وفي شهر مايو من عام 2023، بدأنا جميعًا بقراءة سورة البقرة، التي كانت هدية من الله وسرًا من أسراره. جاءتني رسالة تخبرني أن لسورة البقرة أسرارًا عجيبة في تغيير الأحوال، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا تستطيعها البطلة» وسبحان الله، خلال فترة قصيرة، شعرنا بأثرها، وأصبحت حياتنا أكثر راحة وطمأنينة.

بدأت أذهب إلى الجامعة، لم أعد أخاف، إذ كان القرآن الكريم والأذكار هما حصني. لا أستطيع كتابة كل أحداث السنوات الطويلة، لكن بعضها يكفي الآن. لعل الله يمدّ في عمري لأكتب المزيد، لكنني أشعر أن قصتنا تشبه قصة يوسف مع أبيه، حتى أنّ لقاءنا الأول كان مع أبي إبراهيم.

وفي أغسطس، بعد بكاء أمي ودعواتها ومرضها، تهيأ لنا طريق اللقاء. كان أبي يخاف علينا كثيرًا، فنحن ثلاث فتيات وحدنا. جاءت زوجة عمي لتجهيز الحقائب وقالت: «لا تخافوا.. سيجمع الله شملكم.» حينها رميتُ في بحر المغفرة كل من أذى روحي وأبكاها طويلًا.

استجاب الله لنا، ولم شملنا في 2024/8/31. كان شعورًا غريبًا بعد فراق عشر سنوات. احتضنت والدي، ونظرت إليه بنظرة طفلة تريد إرجاع أبيها القديم لتلعب معه «ماه من حديد». ولكن ملامحه المتعبة جعلتني أرجع إلى الواقع، فقد غزا الشيب رأسه، لكنه كان لا يزال جميلًا.

احتضنتنا أمي بجسمها النحيل من أثر فراقنا، كان بكاؤها قرة عين لا بكاء حزن، وقبلاتها حقيقيةً وليست من شاشة الهاتف.

ثم جاء دور إخوتنا الصغار، شام وعبد الرحمن كبرا كثيرًا وزادا جمالًا. وآدم الصغير، الذي نراه لأول مرّة. ها نحن نجلس في ليلة صيفية دافئة، ليست باردة وشتوية كسابقها، تشرق الشمس علينا بعد شتاء طويل، نجلس حول السفرة،

نسترجع أيام الطفولة، نضحك كثيرًا ونصمت قليلًا. وها هو أبي يحدثني عن الثورة، وكيف بدأت، وأنّه لم يتركنا عبثًا، بل كان الجهاد هو الغاية المنشودة. أخبرنا عن ظلم الرئيس حافظ الأسد. كان أبي صامتًا في صغري، كاتمًا عنا كل الحقائق. لم يدرك أبي أننا لم نكن مثل أبناء فلسطين؛ كان الضعف فينا، يا أبي.

كنتُ أحاول أن أنسى، ألا أتحدث عن الماضي أمام والدي وكيف عشنا في غيابه وغياب أمي. اكتفيت بسؤاله عن عمي جمعة، لنستعيد الذكريات معاً كأننا ندوّن قصة. تعرفت أكثر على ما عاشه أبي وعمي. وهكذا، فجأة، تنهمر الذكريات وتتدفق؛ نتذكر عمي، ويمتلئ المكان بأصواتنا وتغمر عيوننا الدموع. وتحضر آلام أخوتنا الفلسطينيين في غزة، نرى في نشرات الأخبار دمارًا ومآسي، وصمود جنودهم الذين سالت دماؤهم تروي الأرض كما الماء. وأقول لنفسي إنّ الموت حق ولكن العقبى لمن فاز بلقاء الله والخلود في الجنة، وإنّ جهاد النفس سيوصلني إلى الجنة.

فجأة، غيّر والدي الحديث لنضحك قال: «أتذكرين حين كنتِ صغيرة، وذهبنا إلى السوق لشراء البوظة؟ قلتِ بصوت عالٍ إنك تريدين بوظة بالاندومي، وكنتِ تصرخين في كل مكان: «بدي بوظة بالاندومي!» ضحكنا كثيرًا حينها، فمن يأكل بوظة بالاندومي؟ وامي تعقب على كلامه وتقول: «أنتِ دومًا غريبة الأطوار، تحبين خوض تجارب جديدة ومختلفة. تكتبين عن أحلامك وآلامك وذكرياتك الجميلة، دون أن تسمحي لأحد بقراءتها، وتكتفي بقول إن أولادي وزوجي هم من سيقرؤونها إن شاء الله»

شعرت بأن عليّ أن أعيد الابتسامة إلى عائلتي، فقد كبرت المسافات بيننا، وبحثت عن سر السعادة، فوجدته في لمّتنا العائلية، وقبلة أمي قبل النوم، وحديثي اليومي معهم، ومع أبي خاصة، حتى وإن اختلفنا في الرأي.

سألت أمي: «لماذا يبدو أبي مختلفًا عما كان سابقًا؟» فقالت لي: «كبر في

السن، والهموم شيبته، ولكنه لا يزال وقوراً». وأخبرتني عن حزنه على فراق أخيه ووالديه، اللذين توفيا دون أن يراهما، وعن وحدته في الغربة. كنت أستمع وأحاول الفهم، لكن الآباء غالبًا لا يظهرون كل ما في قلوبهم. ومع ذلك، كنت أراقب أبي عندما يحضر لي التمر ويقول: «هذا لكِ»، أو عندما يشتري البسكويت لأختي هزار، ويختار الحلوى التي تحبها، رغم أنه مريض بالسكري بسبب الأحزان التي أثقلته. يخصص الدجاج لأختي الكبيرة، لتطهو أمي لها الملوخية كما كانت تفعل من قبل وتطبخ اللحم لقطتها التي لا تستغني عنها فقد جلبتها من ضيعتنا لتعيش معها أينما كانت. وأنا أنبّهها: لا تتعلقي بها، وتطلب مني أن لا أعيد الحديث معها بشأنها.

كلهم اعتادوا على كلامي الكثير، حتى معلمتي في الإعدادية أطلقت عليَّ لقب «شام إف إم»، لكنني لا أفشي أسراري لأحد. تعودت على إخفاء كل شيء خلف ضحكتي. ومع ذلك، حين يشتد الألم، أجد في حضن أمي راحتي، أبكي دون كلام، وتربت عليَّ حتى أهدأ.

وهكذا بقيت، وما أزال؛ أذهب في الليل إلى الشرفة، أنظر إلى السماء وأتحدث مع الله حتى أرتاح. أتأمل جمال القمر عندما يصبح بدرًا، وأراه سرًا عظيمًا من الله؛ فلكل شيء وقت للوصول إلى هذا الجمال والنور، وإن اقتربنا من آمالنا، فلن نصل إلى الكمال أبداً.

ها أنا هنا في مكاني، لم أتحرك. جسدٌ ساكن، أحزن وأبكي على ما حصل في بلادنا. وفي مشهد آخر، أقف أمام مرآتي وأحزن على نفسي، على أحلامي التي ضاعت وأصبحت هباءً. لا أعرف إن كان هذا يأسًا، لكنه شعورٌ دفين، كمدٌ لا أبوح به ولا أريد أن يظهر.

طالما قلت لنفسي إن هذه فترة وستمر، وأن الله لا يخذل عبدًا رفع يديه إليه. إن شعرتُ باليأس أُسكته لأن اليأس لا يجتمع مع الإيمان. لم يكن ذلك

سهلًا عليّ؛ فتاة في العشرين تحلم منذ صغرها أن تكون مديرة أعمال ناجحة لتساعد في نهضة بلدها. لكنني قلت بعدها إن لكل إنسان شيئًا ثمينًا، وأغلى ما عندي هو العائلة، تلك النعمة التي لا تُقدّر بثمن.

لكنني أحزن أيضًا لعدم قدرتي على إكمال مسيرتي التعليمية. وضعت يدي على قلبي بعد صراع داخلي دام أشهراً، وقررت أن أبعد غبار اليأس عني، وأن أقبل على الحياة وأواجهها، وأكمل تعليمي مع أختي هزار، على أمل أن ندخل الجامعة معًا بإذن الله. صرنا كالتوأم، نذهب إلى الجامعة سويًا، نحفظ القرآن وندرس معًا، ونرتدي الملابس ذاتها، ونقرأ الكتب بشغف وتحدٍ بيننا. ثم أقول لأختي: «عسى أن نصنع بعلمنا شيئًا لنا ولبلدنا، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا، سهّل الله له طريقًا إلى الجنة»

حلّ الخريف، وأتى شهر نوفمبر، حاملًا معه في حبات المطر أفراحًا وخيرات. دخل البيت الفرح مع موعد زفاف أختي الكبيرة، وبدأنا التحضير للحفلة يوم الجمعة، عسى الله أن يتمم لها هذا الفرح، نضمّها أنا وأختي هزار: «افرحي يا أختاه، فإن الحزن لا يليق بك.»

أنظر راضيةً إلى السماء، ويدي على قلبي، أشكر وجود عائلتي وكل النعم التي أنعم الله بها عليّ. وكل ما يأتي سيكون جميلًا لأنه من اختيار الله. وسأظلّ أجد شفاء روحي في القرآن. وأردد حتى يهدأ قلبي: «لا تدري لعلَّ اللهَ يحدثُ بعد ذلكَ أمراً»

13

الشهيد الخطأ

أميرة الخضر

جثة الشاب والتفاوض على استلامها وتسليمها إليهم. غادروا بيتنا، تاركين على كاهلي مسؤولية كبيرة..

بدأت الاتصال بأخوتي في إدلب، أخبرتهم بقصة الشاب، أعطيتهم اسمه وأين قُتِل، وما يحتاجونه من معلومات. وكان أحد أخوتي واحداً من وجهاء منطقتنا، وهو إلى ذلك من عناصر الجيش الحر، وعلاقاته جيدة مع كافة التشكيلات آنذاك.

اتّصل أخي بعد يومين تمامًا، يزفّ لي خبراً أصابني بالصدمة! قال لي بالحرف الواحد:

«ماذا قلتِ لي اسم المتوفى؟»

«محمد!»

«إذًا، خذيه وكلميه!» وراح يقهقه عالياً حتى كاد يصمّ أذني.

لم أستوعب. كنتُ لا أزال مصدومة، بينما تتراكم الأسئلة في ذهني ولا أعرف كيف أُرتّبها:

«أخي.. ماذا تقول؟ هل محمد حيٌ يرزق؟.. أين وجدته؟...»

ويقطعها صوت أخي الهادئ: «ألو؟!»

صرخت لزوجي: «تعال بسرعة! خذ الهاتف، كلّم أنتَ أخي وافهم منه ماذا يحدث!»

بدأ زوجي بالتحدث مع أخي باللغة الكردية. وأنا إلى جانبه لا أمسك نفسي عن الأسئلة: «يا إلهي، ماذا يحدث؟ من تكلم؟ أخبرني!»

بألمٍ وحزن، يخالطهما فرحٌ وفخر، أبدأ قصتي..

نشأتُ في محافظة إدلب، بيتُ أهلي هناك، وبيئتنا ولغتنا عربية. تزوجتُ برجلٍ من عفرين وانتقلتُ للعيش معه فيها. بيئة عفرين مختلطة، يتجاور فيها العرب والأكراد، ويعيشون متآلفين. كان هذا قبل الكارثة السورية واشتداد الحرب..

لا أنسى ذلك اليوم، قُرع باب بيتنا، وسمعت زوجي يرحب بالضيوف بلغته الكردية، وقد صرتُ أجيدها قليلاً، بالطبع ليس مثل لغتي الأم. خرجت لاستقبال الضيوف، وكان بينهم امرأة في العقد الرابع من العمر، بجسدٍ هزيلٍ وملامح شاحبة، وعينين ممتلئتين بالدموع. كانت ترتدي شالاً أبيض على رأسها لا يغطي إلا القليل من شعرها، وفي صوتها بحّةٌ ورجفة. ما إن قلت لها: «تفضلي»، حتى أسندت رأسها على حافة الباب وأجهشتْ بالبكاء. أيقنتُ أنّ ثمة مشكلة. ساعدتها في الدخول والجلوس على الكنبة، ثم سارعتُ إلى جلب كأسٍ من الماء لها، شربت بعضه، ثم مسحت بقطراته وجهها..

لا أعرف المرأة، لكنّ زوجها على معرفةٍ سابقةٍ بزوجي. بدأ الرجل يحكي بصوتٍ خافتٍ ومرتجف، قال إنهم لجأوا إلينا بعد أن ضاقت بهم السبل، وجاؤوا يقصدونني لأنني من محافظة إدلب، ولأنني أعمل في الهيئة السورية لفك الأسرى والمعتقلين. قاطعته بسؤالي: «قل لي، ما الخطب، ما هي مشكلتك؟»

رحتُ أنصتُ إليه بانتباه وهو يسرد قصته. كان لديه ابنٌ شاب، بكر أولاده، يؤدي الخدمة الإلزامية في منطقة خان شيخون في محافظة إدلب، على حاجزٍ يدعى «حاجز السلام». تمّ اقتحام الحاجز، ووصلهم خبر مقتل هذا الابن. والآن يريدون استقدام جثمانه بأية طريقةٍ ممكنة، لهذا جاؤوا إلينا علّنا نستطيع مساعدتهم.

تعاطفتُ مع حكاية هذا الرجل وعزمتُ على العمل عليها. وعدتُ العائلة ألا أدخر جهدًا أو وقتًا في تقديم كل ما أستطيع من مساعدة للعثور على مكان

صاح زوجي بفرح: «إنه محمد! تكلّمتُ معه.. لم يمت. إنه مع إخوتك، يا للعجب، يا للفرحة!»

استعدتً الهاتف من زوجي وعدتُ أكلّم أخي: «أرجوك يا أخي، اشرح لي بالتفصيل..»

بدأ أخي يسرد القصة، وقلبي يرتجف لما أسمع، وعيناي تدمعان لهذه الحادثة المؤثّرة..

كان محمد مع رفاقه على حاجز السلام، وهذا الحاجز تابع لقوات النظام، يرمي القرى المجاورة له بالقذائف والرصاص الحي بلا انقطاع، حتى قرّر الثوّار اقتحامه. هجموا وبدأت المعركة، فرّ من استطاع الهروب، وقُتل من قتل. تمكّن محمد من الفرار مع أربعة من رفاقه. وهو يركض، استوقفه مشهد أحد رفاقه، كان قد قتل للتوّ!

خلع محمد سترته وغطى رفيقه بها، ومضى.. لم ينتبه إلى أنه نسي هاتفه الجوال في السترة!

استمرّ بحثُ الفرقة المختصة ساعاتٍ بعد المعركة. سمع أحدهم رنين الهاتف من سترةٍ تغطّي جندياً مقتولاً. طال الهاتف وردّ على المتصل: «ألو؟» وجاءه صوتٌ متقطع: «محم... محمد ... ابني؟» فأجابه: «ابنك قتل على الحاجز! وأنا أتكلم من جواله.»

سقطتِ الأم المسكينة منهارة..

لكنّ محمداً ورفاقه الأربعة استطاعوا الفرار حقاً. غادروا الحاجز، وظلّوا يركضون صوب الحقول. عثر الأهالي عليهم في الصباح، مختبئين تحت الأشجار، مغبرين وتائهين. رووا لهم ما جرى. ارتأى الأهالي الاتصال بمختار القرية والجهات

الأمنية لتسليمهم. انتشر الخبر كالنار في الهشيم، أنّ الجهات الأمنيّة أسرتْ أربعة جنود، واستقبلتهم بإكرام ومعاملة حسنة.

تابع أخي: «وبينما كنت أبحث عن جثّة محمد، تطابق اسمه مع أحد الشباب الأربعة. توجّهتُ فوراً للتعرّف عليهم، وها أنا الآن أكلمك بوجود محمد مع رفاقه، وهم أيضاً من منطقة عفرين»

انتهت المكالمة وفرحتي لا توصف. لكن؛ كيف سأخبر الأهل، كيف ستتلقى الأم هذا الخبر المفرح؟ اتصلتُ فوراً بأهل محمد:

«تعالوا إلينا الآن!» وفي أقلّ من عشر دقائق كانوا عند الباب. حدّقتْ أم محمد في وجهي مندهشة، فأنا أبتسم وعيناي تفيضان بالدموع، سألتني: «من أخبركِ بأن ابني قتل؟»

أجبتها بكل حماسٍ وشجاعة: «أبشري! ابنك لم يمت، ابنك حيٌ يُرزق، لقد كلّمته أنا وزوجي، وهو الآن في مكان آمن..»

عانقتني الأم وهي تصرخ: «ابني، حبيبي، أريد أن أراه، أريد أن أكلمه!»

بدأت أنا وأخوتي بترتيب التفاصيل كافة، وتنسيق المعلومات وتوثيقها. اتفقنا على مرافقة العائلة لرؤية ابنهم في إدلب.

تردد الأهل في البداية، سيطر عليهم الخوف؛ فالعلاقات متوترة بين الإدارة الذاتيّة في عفرين والجهة المتواجدة في إدلب. ولكن بعد محاولاتٍ عديدة، وإقناعٍ وتطمينات بعدم تعرّضهم لأذى، وافقوا على الذهاب تحت مسؤوليتي.

انطلقت بنا السيارة في اليوم التالي، وكان الاتفاق أن نلتقي في منزل أهلي.

حين اقتربنا، قلت للأهل أمازحهم: «هل أنتم جاهزون؟» كانت لحظاتٍ مشوقة ومؤثرة. قد ازدحم المكان، احتشد الناس من القرية والقرى المجاورة ليشهدوا اللقاء، وكثيرٌ من الإعلاميين والشخصيات الاعتبارية في المنطقة.

نزلنا من السيارة، استقبلتنا والدتي بوجهها الباسم، ترتدي ثوبها الخاص بالمناسبات السعيدة. يرافقها هذا الثوب منذ أيام شبابها، وصارت تخجل أحيانًا من زركشاته وألوانه الزاهية، لكنها لبسته اليوم. ويبدو أنها أصرّت اليوم على أن تتعطّر، وهي تعتبر العطر الاصطناعيّ حراماً، فزيّنت رأسها بعود من الريحان العطر..

تبادلنا القبلات والأحضان، ثم غمزت لي أن أصطحب الضيوف إلى الصالون، حيث ينتظرنا إفطارٌ شهي قد تحضّرت بإعداده لاستقبالنا. جلسنا جميعًا وكأننا في حلم، يحاول والدي بلطفه المعهود تخفيف التوتر البادي على وجوه الضيوف. راح يحدثهم عن أطباق الفطور، كل ما على المائدة من إنتاجنا المحليّ؛ اللبن والجبن وخبز التنور وحتى زيت الزيتون..

هذا اليوم المفعم بالحب، المفعم بالفرح، لا يمكن أيضاً أن يُنسى، سوف يخلّف في قلوبنا ذكرى لن تمحى..

مرت نصف ساعة، شعرت خلالها وكأنني في عرس، والمدعوون حولي ينتظرون قدوم «العرسان». فجأة سمعنا أصواتًا وضوضاء، ثم أصوات زغاريد وصفير الأولاد، وصوتًا يصيح: «أفسحوا الطريق، جاءت السيارة». خرجنا مسرعين، رأينا الشباب الأربعة ينزلون من سيارة فان بيضاء، محاطين ببعض الأشخاص. وقف الشباب مصدومين، فلم يخبرهم أحد بما يجري. وثب محمد بقفزةٍ طويلةٍ أوصلته إلى أحضان والدته، ارتميا سويًا على الأرض ملتحمَين، كذلك التحم البقية بأهلهم، تعالت الأصوات وإطلاق الرصاص. قد أصبح الرصاص طقساً لازماً لكل مناسبةٍ في تلك الأيام..

لم يخجل أحدٌ من ذرف دموعه؛ امتزجتْ دموع الفرح بدموع الأمل بغدٍ أجمل. حتى الإعلاميون لم يستطيعوا إخفاء دموعهم. وأنا أحمد الله كثيرًا، وأشكر كل من ساعدني لأكون في هذا الموقف المشرف.

جلست مع أخي نخطط للخطوة التالية. سيقوم أخي بتنسيق الترتيبات الأمنية، علينا الانتظار حتى تنتهي التحقيقات والمسائل الإدارية المتعلقة بالشباب، ويتواصل معي بعدها. تم تحديد يوم الخميس لتسليم الشباب على حاجز «الغزاويّة»، الفاصل بين مناطق إدلب وعفرين. يومها انطلقتُ في موكب رسمي واستلمت الشبّان مع أماناتهم، وتبادلنا عبارات الشكر والامتنان، وطلبت من أحد إخوتي مرافقتي لأوصل الشباب إلى بيوتهم في عفرين.

وصلنا. وجدنا بيت محمد مكتظّاً بالأهالي والأحبة والمصوّرين والإعلاميين، كلهم جاؤوا ليشهدوا لقاء الأهل بأبنائهم، ليروا محمد بالذات، الذي سوف يصبح لقبه: «الشهيد الحيّ». تناثرت الورود والزهور وحبات الأرز فوق رؤوس الحاضرين وارتفعت الزغاريد، وقلبي يرقص فرحاً؛ فلم يتكلّف الأهل دفع أي مبلغ مالي لقاء استعادة ابنهم، كان هذا العمل كله خالصاً لوجه الله، ومبنيّاً على الإنسانية وحسن الجوار وحُسن النيات.

عدتُ إلى بيتي تملؤني الغبطة والسرور، والفخر بما قدّمت، ليتني أقدم الفرح لكل من ينشده، أساعد المحتاجين على قدر استطاعتي. وأنا أعلم أنّ نجاحي كان بفضلٍ من الله، وبفضل تجارب عديدةٍ مررت بها، منحتني الثقة بالنفس والقوة والجرأة لأقف بجانب المظلومين، وأطالب بحقهم ممن ظلمهم، غير آبهة بردود أفعالهم، مهما بلغت مكانتهم.

...

إلى جانب عملي في فك الأسرى والمعتقلين، كنت أشغل منصب رئيسة هيئة التربية. في أحد الصباحات، كنت في مكتبي، ووصلني ضجيجٌ من الخارج. خرجتُ مسرعةً لأستطلع السبب، رأيتُ جمع نساءٍ في البهو، يطلبن الدخول لمقابلتي، ويمنعهنّ الموظفون. ابتسمت لهن وقلتُ للموظفة: «أدخليهنّ»، وأحضرت لهن ماءً بارداً وقهوة.

جلست أستمع إلى شكواهن: تم اقتياد أبنائهن من المدارس لأداء واجب الدفاع الذاتي (التجنيد الإجباري)، علماً أنّ هؤلاء الأبناء حاصلون على تأجيلٍ دراسيّ يحمل توقيعي. شعرت بالغضب والإحراج، كيف يتجاوزون قرار هيئة التربية ويقتادونهم هكذا ببساطة؟!

وعدتُ النساء بحلّ المسألة عاجلاً. انصرفن وطلبتُ موظفاً يرافقني للترجمة، كوني لا أتقن اللغة الكردية، وانطلقت إلى المعسكر الذي جمعوا الشباب فيه.

المعسكر كبيرٌ و مليء بالأشجار ويبدو منظّماً. طلبت من الحرس مقابلة المسؤولة. حضرتْ سيدةٌ تبدو في حيطان الأربعين، لا تتقن اللغة العربية. قلت لها بحدةٍ ومن دون مقدمات: «كيف تأخذون الطلاب من المدارس من دون إعلامنا؟». أجابت: «نحن في حالة حرب، وهؤلاء الشباب يجب أن يكونوا في المعسكرات». فأجبتها بثقة: «كما تهتمون بالشباب وسلاحهم، فأنا أهتم بالطلاب وأقلامهم، يجب أن يعود الطلّاب إلى مقاعد الدراسة فوراً». تابعتُ قبل أن أستدير وأمضي: «سوف تخرج مظاهراتٌ احتجاجاً على ما فعلتم..»

عدت إلى مكتبي. أخرجتُ ورقةً لأكتب استقالتي. ذُهل الموظفون، حاولوا ثنيي عن قراري، لكنني قد اتخذته. أرسلتُ استقالتي إلى المجلس التنفيذي، الذي فوجئ هو الآخر واتصل لمعرفة السبب، وكان جوابي صارماً: «إن لم يحترموا قوانين التربية وقراراتها، فلا داعي لوجودنا». أغلقت هاتفي والشعور بالرضا يغمرني، أن هذا أقلّ ما أستطيع تقديمه.

استيقظنا صباحاً على أصوات مظاهرة أمام بيتي، تجمهر المعلمون والطلاب وأولياء الأمور احتجاجاً على قراري بالاستقالة. اتصلت بي رئيسة المجلس التنفيذي تستفسر عن التجمع، أجبتها: «مطالبهم واضحة، عودة الطلاب إلى المدارس». تلقّتْ كلامي بصدرٍ رحب. اتصلتْ بعد دقائق: «دعي الحشود تنصرف، مطالبهم مجابة، وأنتِ ستعودين إلى العمل».

طار قلبي من الفرح، فأنا أحب عملي وكل من يعمل معي، وشرفٌ لي أن أخدمهم بأقصى طاقتي.

خرجتُ إلى الشرفة ألوّح للحشود بإشارةٍ أنّ الأمور بخير. ارتفعت التصفيقات والهتافات عرباً وكرداً: «الشعب واحد».

عاد الطلاب إلى مدارسهم في اليوم نفسه، وأنا عدت معهم إلى مكتبي، وسط احترام وتحيات الموظفين.

الطلاب، الأهالي، الموظفون، من أجلهم جميعاً أعمل، وقد تولّيتُ مسؤوليتي بفضل محبتهم وثقتهم واحترامهم، وهذه المحبة منهم وإليهم.. وهي مسؤوليةٌ على كل حال، لأبقى، ما استطعتُ، صوتًا يدافع عن حق المظلومين.

14

القدر

صفّة طنطاوي

كم من سنوات الحب والدفء والسعادة والأمل عشنا، بلحظاتها الرائعة وأحلامها الكثيرة، بذكرياتٍ مع الأهل والأخوات والأصحاب، ليتها تبقى ولا تمضي، لو تدوم. وعقولنا تحلم بالمستقبل، وقلوبنا تتمنّاه، لكنّ مشيئة الله قدّرتْ لنا مصيراً آخر..

نستذكر ملامح وجهه، صوته الذي كان يضج في أرجاء المنزل فنبكي لفراقه وغيابه عنا. وازداد حزني وأنا أنظر إلى أمي التي فقدت رفيق دربها ودليلها المنير.

لم يعد بيتنا حلواً كسائر البيوت، فقدنا الأمان.

ما أن تضمّدتْ جراحنا قليلاً، حتى عاد الحزن والألم من جديد. تعرّض أخي لإصابةٍ بالغة تسببت بفقدان عينه اليمنى، وكاد يخسر الثانية أيضاً. كل المواد والخدمات والمراكز الطبية كانت في نقصٍ شديد. ساءت حالة أخي الصحية والنفسية. ووسط مصيبتنا ومصاعب حياتنا، وقعنا معه منهارين، وزاد خوفي على أمي. كانت في حالٍ يرثى لها. أنا مشغولة بألمي وحزني عليها، وهي مشغولة بألمها وحزنها علينا، وفوق ذلك ملتزمة بعدتها الشرعية، لا تستطيع الخروج، فقررت أن أبقى معهم ريثما يتعافى أخي وتتحسّن حال أمي. كنت لهم الأم والأب والأخت..

بعد استقرار حال أخي، عدتُ إلى بيتي في منطقة سكني، وبدأتُ أسترجع قواي أمام زوجي وأولادي. ورغم أنّ قلبي يعتصر حزناً، رحتُ أواسي نفسي ببعض الكلمات، من مثل أن الحياة لن تتوقف، وكل منا له نصيب من القدر المكتوب.

ولم أكن أعلم أنه سيكون آخر لقاء لي مع أهلي.

كانت ياسمينة، ابنة عمي، تسكن في منطقتي، ونلتقي باستمرار. هي أمّ لطفلين، وتحمل الثالث في أحشائها، تنتظره بشوق ولهفة، تنسج له بيديها ثيابه وتصنع له سريراً من سلة وقماش.. رغم قلة الإمكانيات، كان في قلبها وقلوبنا بصيص أمل..

ذات يوم من شهر آذار عام 2011، اعتقلوا أطفالاً لا تتجاوز أعمارهم أربعة عشر عاماً، عذّبوهم ومثّلوا بجثثهم في السجون ثم سلّموهم إلى أهاليهم، فانتفض الشعب في وجه الظلم، كسر حواجز الصمت، هبّ يطالب بحقوقه في هتافاتٍ وشعاراتٍ لتغيير القوانين في نظامٍ أكل الدهر عليه وشرب. وبدل أن يصغي النظام إلى الناس المتظاهرين بسلميّة، حاصرهم وقمعهم وضيّق عليهم. واستمروا يطالبون، والنظام يمضي في أساليب عنفه..

في بلدتنا في غوطتنا الشرقية البهيّة والغالية علينا نحن أهلها، نلنا نصيبنا الأكبر من إجرام النظام، أصبح اسم الهاتفين بالحريّة إرهابيين، تحولت الهتافات إلى دماء، ومنذ عام 2012 بدأ الناس كلهم يعانون، كباراً وصغاراً ومرضى وأصحّاء، كثّف علينا قصف الصواريخ والطيران والقذائف. وابتدأت سياسة التجويع، حجبوا عنا المواد الغذائية وقطعوا الكهرباء، حتى صرنا نستخدم الحطب، ونحرق البلاستيك والأحذية والملابس لنتدفّأ ولنطبخ.. امتدّ هذا الحصار علينا لسبع سنوات، تزيد معاناتنا سنةً بعد سنة..

صمدت عائلتي حتى عام 2017، تابعنا نعيش بكل الحب والفرح الممكن، ولا تخلو أيامنا من بعض الحزن كحال أي عائلة. لكنّ الحزن خيّم علينا بوفاة أبي. كان ذاهباً إلى عمله، فمات بأزمة قلبية. لا أدري؛ هل قتلته هموم الواقع حتى يترك خلفه هذا الحزن العميق في قلوبنا؟

حينها رأيتُ الموت مصيبةً عظيمة، تأخذ معها أغلى الأشخاص على قلوبنا. ودّعني الفرح بعد فراق أبي، كلُّ أبٍ فريدٌ في قلب ابنته، هو الرجل الأول والحب الأول في حياتها، تكبر وتحلم بالزواج برجلٍ يشبهه. كنت الأخت الكبرى لأخوتي، ويوم مات أبي كان عمري أربعة وعشرون عاماً، متزوجة ولدي طفلان. ومن جميل أقداري أن زوجي يشبه أبي في طبعه وشخصيته وحتى في ملامحه، ولربما يعوّضني عما فقدت. لكنّ حالي لم يكن أفضل من أخوتي الأصغر، كلنا

ولدت ياسمينة طفلاً بهيّاً كبدر، في ملامحه جمال الكون أجمع. بعث قدومه في بيتها حبّاً وروحاً جديدة، تعلق به جميع أهل البيت، وكأنه رحمة من الله هلت على قلوبهم كلها، فهو الوحيد الذي لم تتكون على ملامح وجهه آثار الحرب. أكثر من تعلقّتْ به كانت ياسمينة، فهي التي احتوته لتسعة أشهر، وهو كذلك تعلق بها، يهدأ ويسكن كلما اقتربتْ منه، كأن رائحة الأمان تفوح منها. وحين تلتفّ قلوب أهل البيت بالذعر من أصوات القصف، يبقى للصغير مكانه الآمن في حضن أمه، يرفرف فيه ولا يعي ما يدور حوله، فهو لا يسمع سوى خفقات قلبها.

بعد ولادة ياسمينة ببضعة أشهر، سقطتْ على بيتها قذيفةٌ غادرة، أخذتها منا، وأخذت معها كلّ حبٍّ وأمانٍ كانت تمنحه لأطفالها. تركتْ خلفها زوجها الذي وقع منهاراً، يحمل في جوفه قهر الرجال، فزوجته وحبيبته ارتقت شهيدة، وبيته بات ركاماً، وبين يديه ثلاثة أطفال، وأهله لا يقدرون على إسناده في محنته، فهم يسكنون في منطقة بعيدة.

وقفتُ عاجزة، أحاول المساعدة بما أستطيع. عادت ندبات جراحنا توقد مرة أخرى، فقدتُ أعصابي وسط حيرتي بين ما أنا عليه وأخوتي وأمي، لا أدري ما حل بهم فهم في منطقة بعيدة عني، ولا وسيلة تطمئن قلبي عليهم. أتأمل حال الأطفال، قد انطفأ البريق في عيونهم، وهذا الرضيع يبكي بين أحضان خالته، لا أعلم هل هو جائع أم خائف، لا مرضعة ولا حليب يسكت جوعه..

كل يوم قصفٌ ومجازر تحصد عائلات بأكملها وتدفنها تحت الركام. اعتدنا رائحة الموت في كل أرجاء الغوطة. يتجدّد الحزن كل يوم، ويزداد الأنين في الليل، كل منا يبكي في فراشه، يخبئ خوفه وانكساره عن الآخر، تدعو الأم ربّها كل ساعةٍ، كل لحظة، ليعطيها قوةً تحمي أبناءها بها. والأب الذي يبدو وجهه صارماً، يخفي خلفه عجزه وآلامه وخوفه من فقدان أبنائه وزوجته، يرجو من

الله أن يمنحه القوة ليسحب من صدورهم شعور الخوف والارتجاف.

كل يومٍ كان ينطوي على حكاية ألمٍ وحزنٍ ومعاناةٍ ومأساةٍ وصبر طويلٍ لكل فردٍ منا. ننتظر ما هو قادم..

وجاء اليوم الذي ما كنا لنتوقّعه. فرض علينا؛ إمّا أن نبقى هكذا معلقين تحت القصف حتى لا يبقى منا أحد، أو نرحل إلى الشمال السوري..

وقفتُ أنظر إلى حال الناس، يتسابقون لكي ينتهوا من بشاعة ما مروا به من ظلم الظالمين.

هذه ليست النهاية التي رسمتها في مخيلتي..

وضعنا متاعنا في أكياس صغيرة، لممنا بقايا ما فينا ورحلنا أنا وزوجي وأولادي عن بلدنا، علّنا نبدأ حياةً جديدة.

حياةٌ جديدة؟! ها نحن نرحل حاملين ندباتٍ في قلوبنا، تاركين على عتبات بيوتنا ضحكات وأحاديث وتفاصيل لن تغيب من عقولنا ولا أحلامنا،

تاركين نصف حلم ونصف أمنية..

أمضينا الطريق، ودموعي تذرف لفراق أحبابي. لطالما حلمت وتمنيت أن أبقى قرب أمي، فهي أنسي ومستأنسي، بين يديها كبرتُ وفي دفء قلبها احتميت.

وصلتُ إلى معرة النعمان، وكنتُ خائفة، لكن هذه البلدة جميلةٌ وعريقة. استوقفني منزلٌ تطلّ شرفتُه على حديقةٍ واسعة، تشعّ بأشجارها وورودها، كأنها تطمئنني أنّ القادم أجمل، وتبعث في قلبي الأمان. استأجرناه وصرتُ أشرب قهوتي وأطفالي حولي يلعبون ويضحكون وتمتلئ أجسادهم حيوية، فأشعر أنني في بلدتي وأتذكّر طفولتنا ولعبنا أنا وأخوتي أيام كنا خالين من

الهموم.

كنتُ أهاتف أمي وأخوتي مرّةً كل يومين. لكنّ أسابيع مرّت ولم أسمع صوت أخي الصغير، كل مرة يقولون إنه بعيد أو نائم.. ولا أصدّق. لا بدّ أنهم يخفون عني ما به، إلى أن أصررتُ على زوجة خالي وأخبرتني: قد اعتقلوه! فسقطتُ في حزني. هذا أخي أصغرنا ومدلّل الجميع، وعمره سبع عشرة سنة، وأمي تعاني الآن مرارة فقدانه أكثر مني، وتسلم أمرها لله.

بعد أقلّ من سنة اعتقلوا أخي الثاني. كان يوماً لا أنساه. اتصل بي وأنا جالسةٌ على شرفة منزلي، لم تتجاوز مدة المكالمة دقيقة، قال: «اعتقلني الأمن وهم يأخذونني الآن إلى التحقيق، أخبري أمي أنا لا أستطيع إخبارها، قولي لها ألا تقلق، فإن شاء الله وخرجتُ حيّاً سنلتقي..»

من نبرة صوته وصلني إحساسه أنه لن يعود، وهو لم يعد فعلاً حتى الآن..

كيف لي إخبار أمي أنهم اعتقلوا ابنها الثاني؟ يا للقهر! وقعتُ في صدمة. أنا مهجّرة وبعيدةٌ عن أمي، كيف لي أن أساندها في قهرها. لم تتوقف دموعي، أمسحها وتعود.. كل معاناة القصف والحصار هيّنةٌ أمام رعبي على أخويّ المعتقلين، وعلى أمي حين ستعرف الخبر. لم أحتمل، ضاقتْ بي الدنيا، عادتْ إليّ ذكرى وفاة أبي. لو كان حيّاً لسند مشاعر أمي الرقيقة، التي لن تحتمل لو أخبرتها بحال أخي. كان في جميع الأحوال بعيداً عنها، لكنه يكلمها كل يوم ويطمئنها. ولم يخبرها أحدٌ باعتقاله لكنها أحسّتْ به وحدها حين لم يعد يتصل. أوصيتُ زوجة خالي أن تخبرها بالطريقة التي تراها مناسبة. وانهارتْ أمي حين علمتْ. كيف لأمٍّ سلبوا منها فؤادها أن تحتمل؟ كم عانتْ أمي وهي محرومةٌ من احتضان فلذات أكبادها! لم تفارق الدموع عينيها ولا القهر قلبها ولا الحرقة، واحتسبتْ وأوكلتْ أمرها إلى الله راجيةً أن يعودوا وتستشعر حلاوة العيد وهم حولها.. لكن: أيّ عيدٍ هذا وهم غائبون؟

كان كرم الله كبيراً حين أفرجوا عن أخي الصغير بعد عامين من الاعتقال فاستردّت جزءاً من روحها وعادت اللمعة إلى عينيها والسرور إلى قلبها. صارت تنتظر أخي الثاني، تحسب الوقت بالأيام والساعات، وتسأل الله الفرج، ولم يفرجوا عنه.

وحين ذهبت إلى السجل المدنيّ لحاجتها إلى استخراج إخراج قيد، أبلغها الموظف بوفاة ابنها في المعتقل وأعطاها شهادة وفاة.

عادت تحمل على ظهرها كل انكسارات الدنيا، انهارتْ مريضةً وضعف بصرها من شدة البكاء.

تقول لي «لليوم عالق ابني بروحي وعقلي، وما بنساه مهما عشت..»

يقولون: كلّ ما لا يقتلك، يجعلك أقوى. وما جرى معي جعلني كذلك

واجهتُ مصاعبي وقسوة ظروفي، لملمتُ أجزائي المكسورة ونهضتُ أعين عائلتي وأمي التي تنتظرني، أكمل مسيرتي التي خُلقتُ لها، وأخطّ طريقي، مؤمنةً بأنّ تجاوز العقباتِ هو أول النجاح، وها أنا أشتغل، أدرّس الصغار، جيل المستقبل، ومع هذا الجيل سنصنع الحب والأمان..

أنا زينة. كنتُ أعيش في عفرين، أسمّيها جنة الأرض، هذه المدينة الصغيرة ذات القلب الطيب، احتوتني أنا وأسرتي، أبي وأمي وأخي الأكبر مني. نعيش آمنين، مستقرين في بيت بفسحةٍ سماوية واسعة. كنتُ مدلّلة أبي، منه تعلمت الحب والحنان. وأحببت العلم والعمل، وكانت لدي أحلام أردت تحقيقها، ولا تفارق الابتسامة وجهي أبدًا.

لي في حياتي قصة حبٍّ هي الأولى والأخيرة، بدأتْ عندما تعرفت عليه. كنتُ قبله فاقدةً للأمل والشغف بهذه الحياة، وكان نازحًا من مدينة حلب إلى عفرين، هاربًا من الموت، باحثاً عن الملجأ والأمان. تعرفنا على بعضنا مصادفة، صرنا نتحدث مع بعضنا لفترة دامت أكثر من سنتين. عشنا قصة حب جميلة رغم ظروفنا الصعبة. طلب يدي للزواج، وتزوجنا. ثم تدهورت الأوضاع إلى الأسوأ.

كنا في أمان وأصبحنا في حرب. طائرات تحلق في السماء وقذائف تنزل مثل زخات المطر، ولا نعرف من أين تأتي. ماذا حصل؟ أين نهرب؟ ما هذه الأصوات؟ ماذا حل بنا؟ كنا نسمع هذه الأصوات لأول مرة في حياتنا. تجمع الناس خائفين، وقررنا مغادرة منازلنا خوفًا من الموت. هربنا وليس معنا سوى

15

زينة صاحبة القلب الطيب

زينب سيدي

مؤونةٍ لسدّ جوعنا. تركنا كل أشيائنا وذكرياتنا، ظننت أننا لن نعود إلى بيوتنا.

كانت الطرقات مزدحمة بالسيارات، أو بالهاربين مشيًا على الأقدام. لم نستطع تجاوز تلك السيارات إلا بعد ساعات، لنصل إلى قريتنا الصغيرة الجميلة، وهي تبعد مسافة ساعة عن المدينة. كان الفصل ربيعًا لكنه لم يكن ربيعًا في أيامنا. رغم ذلك، شعرنا بالهدوء والأمان. بقينا ثلاثة أشهر في قريتنا، والطرقات حولها ملغمة، ومغلقةٌ لا يصل إلينا منها طعامٌ أو شراب، وبدأتْ مؤونتنا تنفد.

بعد حصار دام أكثر من ثلاثة أشهر، عدنا إلى بيوتنا، مترددين في البقاء أو العودة. إلى أن أصر والدي على العودة: «سنرى ما سيكتب الله لنا.» بعد فترة من الزمن، عادت الحياة إلى طبيعتها، وعاد الأمن والاستقرار نوعًا ما. لكنّ البلاد في حالة حرب، تفجيراتٌ متكررة وخوفٌ من الاعتقال وغياب فرص العمل. كل هذا دفع زوجي للتفكير بالسفر إلى خارج البلاد. سافر وبقيت وحيدة متماسكة لأجل بناتي. وكانت ظروفه هناك صعبة، كما أنه لم يحتمل بعادنا عنه، فعاد بعد عام من سفره.

عادت الحياة إلى طبيعتها، وعاد أبي إلى عمله في محل مقابل السوق الشعبي.

يوم 2021/4/29، الخامس من شهر رمضان، تاريخٌ لن أنساه. سمعنا صوتًا يهز أرجاء المدينة، قالوا إن أحدهم زرع لغماً داخل صهريج مازوت، وفجّر اللغم أمام السوق الشعبي وسط المدينة. تصاعدت ألسنة النار حتى رأيناها من منزلنا، ومعها ذهبت أحلام وآمال الأمهات بعودة أحبابهن سالمين من السوق الذي كان مزدحماً بالناس، ممن يشتغلون هناك أو يشترون الحاجيات لهم ولأطفالهم. لم يكترث المجرمون لحرمة هذه الأيام المباركة، كان حقدهم وكراهيتهم ورغبتهم في نشر الخراب والدمار أكثر منها.

ركضت مع أمي والجميع إلى السوق. رأينا الأشلاء متناثرةً في كل مكان، والنار تخرج من محلّ والدي. صرخت بأعلى صوتي: «أين أبي؟ أين أخي؟ ما الذي حصل؟ من فعل هذا؟ هل هذا حلمٌ أم واقع»؟ انهارت والدتي، لا بدّ أنّ وأخي داخل المحلّ.. لم أعرف ماذا أفعل، لفّني العجز وشعورٌ مرعبٌ جدًا. نساءٌ وأطفال يصرخون، كلهم يريد الاطمئنان على أحبابه، كلنا في خوفٍ ورعب.

رأيتُ المصابين على الطرقات وعلى أكتاف الناس، وأمواتاً وأشلاءً ودماء في كل مكان، مشهدٌ من أهوال يوم القيامة. وكانت سياراتٌ تهرع إلى المكان، والكل يريد المساعدة. استجمعت قوتي وبدأت أبحث عن والدي وأخي. بعد ساعةٍ من البحث رأيتهما يخرجان من بين الدخان. لا أستطيع وصف شعوري، أأبكي أم أفرح برؤيتهما من جديد؟

أصيب أبي وأخي بحروق في جسديهما، وكانت حالتهما حرجة. نجوا من الموت وبقيا يتعالجان في المشفى لفترة طويلة، وسافرا لتلقي علاجٍ أفضل. بقيت مع زوجي وبناتي، أحسست بفراغ كبير. ورغم وقوف زوجي بجانبي لم أستطع التغلّب على حالتي. لم أستطع النوم، كلما حاولت ذلك مرت تلك اللحظات أمام عيني. لازمتني آثار الرعب والخوف لأكثر من عامين، لم أستطع خلالهما الذهاب إلى السوق ولا المرور بجانبه.

أيقنتُ أنه مرضٌ نفسيّ. قصدتُ الأطباء لتلقي العلاج. وتحسّنت حالتي مع مرور الوقت، عدت للحياة مجددًا، أزور جيراني وأهتم بأولادي. لكن أثرها لا يزال في ذاكرتي حتى الآن، يمرّ الزمن ولا أستطيع نسيان ذلك التاريخ المأساويّ الذي سجّلته عيناي.

بعد فترة، عرفت أنني حامل، ارتأى زوجي أن نجهض الحمل، فالوضع المعيشي سيئ، وهو يبحث عن عمل دون جدوى. رفضت الإجهاض بشدة، وتمسكت بقراري ولم أخضع لما أراد ولا للظروف القاسية. تحديتها بالبحث الدؤوب عن

عمـل. كانـت فرص العمل للنسـاء أكبر، وكنتُ أحسّ بنفسـي امـرأةً قوية، عليها تحمـل مسـؤولية قرارها كيلا تندم عليه.

وجـدت عـملًا مناسـبًا كمعلمة فـي روضة أطفـال. فرحت بعملي الـذي أمّن لنا دخلاً بسـيطا. وتعبتُ بعـد شـهرين مـن العمل، ذهبـت إلى الطبيب مـع زوجي. اكتشـف الطبيـب أننـي أعانـي مـن ارتفـاع الضغـط والسـكر، ووضع الجنيـن غير مسـتقر، والأسـلم ألا أتابـع حملـي. مشـيت تحـت المطـر الـذي يسـقط ويخفـي دموعـي، وصـوت الرعـد يـملأ المـكان. أخذنـي زوجـي إلـى مـكان لنشـرب فيـه القهـوة لأهـدأ ونـرى ما علينـا فعله. لم أقتنع بـكلام الطبيب. ذهبـت إلى طبيب آخر في اليوم التالي، وكان كلامه موافقًا لما قالوه لي بالأمس، طلب الإجهاض مباشرة. وتملّكني الأمل بالاستمرار في الحمل، قلتُ لنفسي: «علي الثبات كي أكمـل حملي، وسـأترك الأمـر لإرادة الله.»

أخذت إجازة من العمل لأول مرة، وانتهت الإجازة وعشـت المعاناة من جديد. ولـم يُسـمح لـي بالإجازة مـرة أخرى، فعلـيّ متابعة عملي رغـم وضعي الصحي السيئ. كنت بين أمرين، أحلاهما مرّ؛ صحتي التي تدهورت وعملي الذي أحتاج إلى مردوده المالي لنستمر في المعيشة. وزاد من معاناتي لوم زوجي الدائم لي، قال أكثر من مرة: إن هذه مسـؤولية قراري وعليّ التحمل.

ولـم يقـدّر المدير وضعـي أيضًا، نبّهني أنـه إذا تكرّرت إجازاتـي فقد يفصلني من العمـل. شـعرت بالقسـوة مـن كل مـن كان حولـي. تعرفـت في تلـك الفترة على صديقةٍ اعتنت بي، وقدمت إليّ المسـاعدة ودعمتني نفسـيًا وماديًا، ردّدتْ لي دائمًـا بـأن علـيّ ألا أفقـد الأمـل، وإننـي قوية ويجـب أن أتحلى بالصبر. توسّـطت مـن أجلي لدى المدير، شـرحتْ له وضعـي الصحي، وطلبت منه مراعاتي وعدم فصلي. وافق المدير على طلبها بأن يعطيني إجازة مرة أخرى، وما إن تحسّـنت حالتي حتى عـدت إلى عملي.

يومًـا بعـد يوم، بدأت أشـعر بدقات قلب الجنين داخل أحشـائي. عـاد لي الأمل، وبدأ التفاؤل ينمو في قلبي من جديد، وأنتظر بلهفة قدومه إلى الحياة. سيكون فرحتـي وسـندي وبهجـة قلبـي ونـوراً لحياتي التي أظلمـت وأنا أعيـش معاناتي وحدي. كل شـهر كنت أراقب وضعي وأجبر نفسـي على التفاؤل.

بعـد تسـعة أشـهر، وبعـد معاناتـي وفقدانـي الأمـل في إتمـام الحمـل، ازدادت عائلتـي بطفلـي وعادت إلـيّ فرحتي.

أنجبت طفلي الجميل، وكلما أنظر إلى وجهه البريء، أقول: «أنت دائي ودوائي.» أمسك بيده، أتذكر شهور حملي به فأشعر بالأمل والتفاؤل. رغم قسوة ظروفي هذا الحمل، أصررتُ على إكمال حملي وعملي. كنتُ أقول لنفسـي: لن يتوقف قطار الحياة، سوف يسير في جميع الأحوال، وسوف أكون قوية، فالحياة لا تحب الضعفـاء والجبنـاء. علمتنـي الحيـاة أن الصبـر مفتـاح الفرج، والأمـل بالله، ولم أفقده يوماً. لن يخذل الله مَن يملك قلباً طيباً..

والصديـق وقـت الضيـق. كانـت صديقتي بمثابـة أخت لي في هـذه الحياة، رمزا للعطاء والقلب الحنون. لا أنسى طيب نظراتها وروعة ابتسامتها، تدعمني نفسيًا ومعنويًا وتنصحني بأن أهتم بصحتي أكثر. تقول لي: «أنتِ قوية، لا تستسـلمي، سـتكملين مشـوار حياتك بالأمل..» لا شـيء يبقى مستحيلاً إن واجهناه، وسوف ينتهـي الألـم يومًـا، فلـكل شـيء نهاية. ها قد حصـل زوجي على عمـلٍ بعد طول جهـد، وأضاء نور ابني عتمة حياتنا..

نعم.. أنا امرأة بألف إنسـان، فيّ طاقةُ عشـراتٍ من البشـر معا، احتملتُ معاناة الحيـاة وآلامهـا بمفـردي، وتعلمـت الصبر. يزداد وعيي وأنضـج كل يومٍ أكثر. لم أعـد طفلة أبي المدللـة، أصبحت أمًا لطفلي الصغير..

16

أبي نجمةٌ في سمائي

غريبة اسماعيل

بعد المِحن تبدأ المنح. وقد تضحك أيامًا وتبكي أعوامًا، وربما العكس. هي الحياة هكذا باختصار، لا يدوم الخير ولا ينقطع الشرّ. وبعد الشتاء لا بد أن يأتي ربيعٌ يقود الروح نحو شاطئ الحياة، حيث ينتظرك قارب النجاة ليخبرك: دع عنك الهموم وانهض، انطلق عاليًا نحو القمة! وإن مرّت بك رياح الضعف، تمسك بقوتك جيدًا وقل للدنيا: أنا أصنع الأمل!

أعتقد أنّ أبي جعل مني، أنا ابنته؛ صقراً! كنا في عائلتنا خمسة عشر فرداً، وأرى بيتنا بيت عزٍّ ودلال. أشعر بنفسي أميرةً تطلب ما تتمنى وتُعطى ما تشاء. أميرة أبيها وحبيبة أمها. كبرتُ تحت ظلّ جناحيهما، أتّكئ على أبي في الصعاب، وتحملها أمي عني، وهما السند بعد الله. وكنت المدللة والمميزّة أيضاً لدى الجيران وأولاد الحي وأصدقاء أبي والأقارب.

وللسنين حلوُها ومرّها. جاءت أيام الحرب، دارت على آلاف العائلات، وعائلتي من بينها. لا أنسى عام 2011 ولو مرّ عليه ألف عام. كنتُ وإخوتي جالسين نشاهد التلفاز، وأبي كالعادة في عمله، وأمي تحضّر لنا الطعام. سمعنا دويّاً، نظرنا إلى بعضنا كأننا نسأل عن مصدره. خفنا وبكى بعضنا، وجاءت أمي لتضمنا تحت جناحها وتحمينا من ذاك الصوت اللعين، صوت القصف في حيّنا.

كانت تلك أصعب اللحظات. لأول مرة نرى بأعيننا آثار القصف، دماءٌ وموتٌ وبكاء أطفال. أولى إصاباته كانت في أمي، نبض فؤادي. رغم إصابتها ركضتْ بنا وهي تقول: «اركضوا ولا تلتفتوا». صرت أسمع صوتها يخفت رويدًا رويدًا، نظرتُ إليها فأمسكتْ بيدي وضمّتها. كانت يدها مليئةً بالدماء. سقطتْ أمي أرضاً، أسعفوا أمي إلى المشفى، وجاءتْ سيّارةٌ وأخذتنا إلى بيت جدي. جلسنا

عندهم ننتظر أبي الذي لا نعلم؛ هل هو بخير أم أصيب هو الآخر؟

بعد ساعاتٍ جاء أبي ليعيدنا إلى البيت، بينما بقيتْ أمي في المشفى تصارع إصابتها، ثم خرجتْ من المشفى إلى بيت جدي، أهلها، ليمكنهم العناية بها. بقيتْ هناك لثلاثة أشهر. وكان عمري أحد عشر عاماً، طفلةٌ أجبرها غيابُ أمها أن تقوم بدور الأم والأخت ومسؤولية البيت. أبكي في الخفاء عن إخوتي، وأجبر نفسي على الظهور أمامهم بكامل قوتي، وأبي أكبرُ داعم لي، سندي الأول، اجتهد ليحمل عني همومي، وتعلقتُ به كثيرًا في غياب أمي. أنتظره أمام البيت لأكون أول من يرتمي في أحضانه حين يعود من العمل. كان يناديني بين الحين والآخر «عصفورتي»، كلمةٌ ليس فيها سوى سبعة حروف، تبعثُ فيّ الأمان وتجعلني أطير عاليًا.

وهو أيضاً تعلق بي، وبشدة، لدرجة أنّه لا يتركني أذهب مع إخوتي لزيارة أمي في بيت جدي، فقد اعتاد أن ينده باسمي وأحضر إليه فوراً.

كانت أمي هي الزوجة الثانية لأبي، ولديّ من زوجة أبي الأولى أخوةٌ غير أشقاء، عددهم أكبر من عددنا، وبعضهم أكبر منا سنّاً. وفي غياب أمي، أخذنا أبي معه أحياناً إلى بيت عائلته الأولى. وكان أخوتي هؤلاء يتمادون عليّ، أتلقّى منهم الضرب والإهانة وأكتم غيظي ولا أشكوهم، خشيةَ أن يضربوني مرةً أخرى.

بدأتُ أفتقد أمي أكثر وأكثر، وظهر عليّ تعبُ فقدانها. جاء يوم العيد حاملاً معه شوقي إليها، رحتُ أجهّز إخوتي لزيارتها وأنا أبكي، لعلمي أنّ أبي لن يسمح لي بالذهاب معهم. بقيتُ أبكي وأبي يمازحني ويلهيني، فهو يحبني ولا يريدني حزينةً في العيد، ولا يكتمل عيدي إلا برؤية أمي، مهجة قلبي. أخيراً سمح لي بشرط: «اذهبي مع إخوتك لزيارتها، لكن إياكِ أن تبقي عندهم حتى وإن طلبوا منكِ البقاء»، وطارت الفراشات من حولي فرحاً..

بعد تحملنا معًا لمعاناة غياب أمي، جاء موعد رجوعها إلى البيت، وعادت البهجة والسعادة تسكن ديارنا. كان غيابها أمرّ من مرارة الحرب.

كان لدي ثلاث عمّاتٍ حنونات، يسكنّ بعيداً عنا. وشاء القدر أن تصاب إحداهنَ بمرض خبيث، وتضعف وتسوء حالتها. وأبي يحبّ أخواته حبّاً شديدًا، ويتمنى لو أنّه هو المريض لا أخته، فلا يطيق رؤية أحد أفراد عائلته متعباً. ورغم صغر سنّي كنتُ أرى ملامح التعب تظهر على وجه أبي، يوماً تلو الآخر.

كنتُ أرى أبي سنداً لا يميل أبدًا، وحامل صعابنا كلها، وملهمي ومرشدي، هو الذي علّمني حبّ الناس وحيّ الخير والصبر والصلاة. سألت نفسي: كيف يستطيع أن يصبر وكيف أتعلّم منه الصبر؟

بعد فترة قصيرة من الزمن استشهد أخي وبدأ الحزن والخوف يسكن أرجاء العائلة. أخي أول شهيد في الحي، حين سمع أبي الخبر علقت الدمعة بطرف عينيه اللتين رأيتهما متعبتين، وظلّ يناجي الله بدعاءٍ سيظلّ عالقاً في ذهني مع مرور السنوات: «الحمد الله، يا ربّي أنت تختبر صبري، لا اعتراض على حكمك، ارحمني بقوتك».

بعد استشهاد أخي غادرتنا زوجته إلى أهلها، وكان فراقها صعباً علينا جميعاً.

خفنا على عمتي المريضة من الحزن، فلم نخبرها أننا فقدنا أخي، ولم ينقطع أبي من زيارتها، وهي تسأله وتعاتبه: «لماذا لم يأتِ ابنك ليزورني؟ أنا عمتّه وهو صديق ابني أيضاً، لا يسأل عن ابني ولا عني وأنا على فراش الموت..» ولم يقل لها أبي أنّ ابنه سبقها إلى الموت، إلى أن مضت ثلاثة شهور وأخبرها أحد الأقارب باستشهاد أخي، فتوفيتْ بعد أيام من شدة حزنها.

بدأت السنة الدراسية، وكنت في الصف التاسع، وأبي يشجعني على الدراسة ويؤمّن لي كل ما أطلبه رغم تعبه الظاهر عليه، فهو مريض بالسكريّ، وصحته

غير مستقرة، وتسوء مع الوقت. أراه يضمّد جراحه ويتمزّق قلبي عليه، وأبكي بشدة فيطبطب عليّ: «هذا الجرح لا شيء بجانب جرحي الآخر».

لم أكن أعلم ما يقصد كبرت وعلمت أنه كان يقصد جرح القلب.

ذات يوم، لم يعد أبي إلى البيت وأنا أشعر بشوق كبير إليه وخوف عليه. غفوتُ ورأيتُ حلماً مخيفاً، رأيت حفرةً كبيرة نمر بجانبها أنا وأبي، وهو يفلت يدي ويسقط فيها. سألته: «لماذا أفلتَّ يدي؟»، أجابني: «مشواري في الدنيا انتهى، ولا أريد النهوض». بدأت أبكي وأصرخ: «لا أريدك أن تذهب، لا تذهب يا أبي». أيقظتني أمي حين سمعتْ صراخي في نومي. سألتها: أين أبي؟ قالت: في منزله الثاني.

خرجتُ إليه من دون تفكير، ركضتُ باكيةً وسط الظلام حتى وصلتُ إليه، وأخبرته بالمنام. ضحك وقال لي إنه مجرد حلم، يا عزيزتي. أمسك بيدي وقال: «أنا بجانبك ولن أتركك». لكنه كان يبكي. وضعت رأسي على كتفه، سندي، وهو يردد لي: «لا تخافي يا صغيرتي، سأبقى معك..».

أخذني بين ذراعيه لأنام. وبعد ساعات قليلة استيقظت وهو قربي وأنا لا أزيح نظري عنه. طلب مني الذهاب إلى المدرسة. ودعته ويداي ترتجفان، قبلت يديه المليئتين بالتجاعيد، ومضيتُ. والحلم لا يزال في مخيلتي، وفي داخلي شعورٌ لا أستطيع وصفه، وكأن ثقل الكون كله في قلبي. أتحرّك ببطء، وشعورٌ ما يمنعني من الذهاب إلى المدرسة. ناداني أخي وفي صوته خوف! من دون أن يحكي أحسستُ أن مكروهاً حصل لأبي. أخيراً قال أخي جملةً جعلت الكون يظلم في عيني: «أبي توُفي».

رحل حبيبي وسندي وفلذة قلبي، ذهب الحنان والدفء من بيتنا، وحلّ الخوف والألم. كنت ألجأ إلى أبي في كل أمر؛ لمن سألجأ بعد اليوم؟ بدأ شريط حياتي

يمـرّ أمـام عينيّ، وأتذكر صبر أبي وكم تعلّمتُ منه، وأدركتُ أنّ عليّ منذ الآن أن أصبر وأتحمل. إنها مشيئة الله.

حيـن وصلـت جنازتـه، وهـو فـي الكفـن، شـعرت بـأن روحـي تخـرج من جسـدي. ألقيتُ برأسـي إلى كتفه، أنظر إلى جسـده السـاكن، أقبّل جبينه وأكلمه: «لماذا تركتنـا يـا مَـن كنـتَ مثـل ملاكٍ من السـماء على هيئة إنسـان، نورٌ علـى نور..؟». ولم يجبني، للمرة الأولى لا يجيبني. لستُ وحدي؛ كل أهل البلدة كانوا يحبونه، كلهم الآن مجتمعون ليروه يبكوا عليه، وجدّي بجانبي يبكي ويواسيني، ويطلب منـي أن أقرأ القرآن عند رأسـه.

غـاب النـور وأظلـم الكون حين بدأت مراسـم الدفن، حضنته للمـرة الأخيرة قبل أن يحملوه على الأكتاف نحو المقبرة، وأنا أصرخ: إلى جنان الخلد يا حبيبي. كان قلبي يحترق: كيف سأقضي عمري من دون أب؟

مشـيت وحـدي نحو مكانه المفضل، جلسـت أبكي وأبكي.. نعـم، لقد كبرتُ ولم أعد مدللته وصغيرته. كان أبي يردّد دائماً: «ما دامت ابنتي هنا، لا أخاف عليكم كلكـم». لكـن بعـد رحيله لم يبق هناك من يقول لـي هذا الكلام. أصبحت عائلتي مسؤوليتي، وعليّ أن أحملها.

من بعده، صرتُ أمشي كصقرٍ يطير من دون أجنحة، وكصقرٍ يعكس ظله فراشةً رقيقـة. تركـتُ المدرسـة وبـدأت أبحث عن عمـل حتى لا نحتاج أحـدًا، تمضي بي الحياة وأنا أحمل فوق كتفي تلك المسـؤولية، ويسـاعدني أخوتي.

خضـتُ متاهـاتٍ كثيـرة، بين خـذلان وفراق وغـدر، وواجهتها. كل ألـمٍ كان يجعل مني فتاة أقوى مما كانت عليه قبل. ورغم صغر سني، كنت أحمل همومي وأنا أبتسـم، وأخفي وجع السـنين خلف بسـماتي، لتزهر أحلامي التي راهن الجميع بأني لن أسـتطيع تحقيقها ولن أستطيع الثبات.

قـرّرتُ أن أكمـل دراسـتي، واعتـرض أخـي. ذهـب حلمي بالدراسـة مثـل ما رحل عنـي كل شـيء جميـل. بـدأ الجميـع الابتعـاد عنـا رويـدًا رويـدًا حتـى بقيـت أنـا وعائلتـي لوحدنـا نواجـه قسـوة الحياة. أمضي بيـن مطباتهـا، ولطالما صفعتني الحيـاة محاولـةً أن توقعنـي، أواجه فيها تعباً وأُصدَم بعلاقاتٍ فاشـلةٍ مع الذين كنـتُ أظنهـم سـنداً وكانوا كالمطرقة التـي تحاول تحطيمي وكدتُ أسـقط أرضاً. لكنني كنت أقوى من أن أستسـلم لها. كنت أتجاهل انتقادات الناس وتنمرهم، أخفيها في صدري كي لا تظهر ولا أرى في وجه الناس شـفقةً على عائلتي أقوم بعـدة أعمـال في اليوم نفسـه، أبني حياةً مهنية وعلاقـات اجتماعية لا أدين بها لأحـد، وأواجـه كلّ مَـن يحاول اسـتغلالي، وهذا هو نجاحـي الأكبر؛

أننـي بفضـل الله تخطّيـتُ عثـرات الحيـاة، وحافظـتُ علـى نفسـي كمـا يجـب أن تكـون، الفتـاة التـي رباهـا أبوها علـى أن تكـون قويّة!

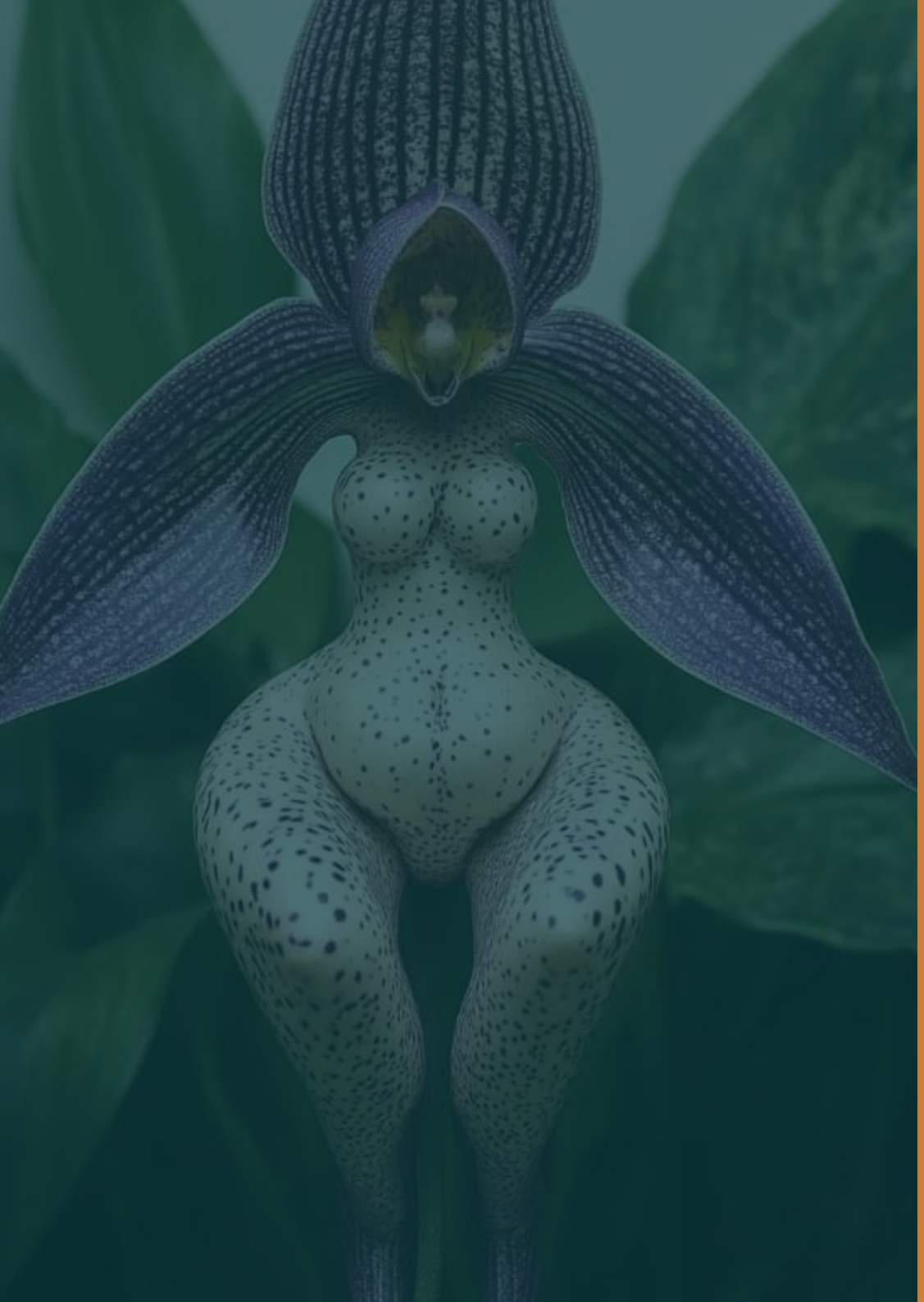

17

زهرة الأوركيد

أميرة عيّاش

اسمي أميرة. أعيش مع عائلتي الريفية البسيطة، وكل يوم أذهب مع أبي لنبيع الخضار والفواكه على عربته الصغيرة. كنتُ سعيدة جدًا بمرافقة والدي، الذي كان يكافح من أجل لقمة العيش.

كبرتُ ولم أعد تلك الطفلة الصغيرة ذات السنوات السبع؛ أصبح عمري سبعةً وعشرين عامًا. عشرون سنة مرت بلمح البصر، وما زلتُ صغيرة في عين أبي. لكن أقربائي والجيران يرون أنني قد فقدتُ فرصتي بالزواج. بدأتُ أشعر بكلماتهم كأنها خناجر في صدري. أفكر في نفسي: أليس من حقي أن أكون زوجة، وأنجب الأطفال، ويكبرون أمام عيني؟ أليس من حقي أن أتمتع بحياتي مثل الأخريات؟

كنت أتألم وأبكي وحدي، ألملم دموعي من دون اللجوء إلى أحد. فجأة، وجدت نفسي فاقدة لحضن أمي. وصلتُ لمرحلة أصبحتُ أحتاجها فيها بشدة، لكنها كانت بعيدة جدًا عن أفكاري، ولا تفهمني. شاءت الأقدار أن يتقدم لخطبتي شاب من قرية قريبة من منطقتنا.

عندما كنتُ أستعد ليوم الزفاف، قالت لي أمي: «هيا جهزي نفسكِ حتى نذهب ونشتري الفستان الأبيض». أخبرتها بأني لا أرغب في لبس الفستان، فأنا كبرتُ بما يكفي ولا أراه مناسبًا لي. بدأتُ بالبكاء، ولأول مرة عانقتني أمي وبكينا معًا.

بضغطٍ من أمي وأم ماهر، خطيبي، أجبرتُ على لبس الفستان ودخول الصالة. وتم زواجي في عام 2011. تزوجتُ ماهر عن طريق الأهل، ولم أكن أعرفه عن

قرب. لم تتح لي الفرصة للتعرف عليه جيدًا خلال فترة الخطوبة، لأنه استعجل كثيرًا بسبب الحواجز التي كانت تعتقل الشباب عشوائيًا، وتجبرهم على الخدمة الإلزامية. كانت الحرب في سوريا قد بدأت للتو.

في أول يوم لي في بيت الزوجية، أحسستُ بالغربة. لم أستطع التعايش معهم، وزوجي لم يكن يقترب مني كثيرًا. لم يكن يحس بمشاعري؛ كان بعيدًا عني تمامًا، دائم العصبية والتذمر، يغضب بلا سبب، ويضربني دون أن أعرف لماذا.

كان والداه يواسيانني، لكنهما لم يُوجّها ابنهما لينتبه إليّ أكثر. بدأت أراقب الوضع حتى أكتشف ما يجري في الخفاء. في أحد الأيام ومصادفةً، رأيت أمه تعطيه حبة دواء وتخفي العلبة في مكان ما.

صرت أبحث عن سرّ تلك العلبة الغريبة، لأن زوجي كلما غضب وهمّ بضربي تأخذه أمه ويدخلان الغرفة، ثم يخرج بعد فترة وقد تحول من رجل مجنون إلى طفل هادئ بريء. حتى أنني حين أعاتبه على معاملته لي، ينكر ويقول: «هذا كذب. أنا أحبكِ، ولم أفعل لكِ شيئًا». وقتها، علمت أنه ليس في وعيه دوماً، زاد شعوري بأن هناك أحداثًا تدور حولي ولا أعرفها.

بدأت أبحث بتلهف حتى وجدتُ الدواء وأوراق تحاليل ودفتر خدمة باسم زوجي ماهر. صُعقتُ بما رأيت. أصابني الذهول: هل هذه الأوراق تخص زوجي حقًا؟ يا إلهي! كان مكتوبًا في دفتر الخدمة: «مريض انفصام».

بدأت أحدث نفسي مثل المجانين: ماذا علي أن أفعل؟ في مجتمعنا، تتزوج الفتاة وليس مسموحًا لها بإبداء رأيها أو مشاركة أهلها في مشاكلها. بقيت صامتة فترة، واحتفظت بالأوراق ودفتر الخدمة. وعندما حان الوقت، قررت الابتعاد عنه نهائيًا.

ذهبت إلى المنطقة التي نزح أهلي إليها، وهي منطقة قريبة من الغوطة الشرقية. وصلت إليهم وأخبرتهم بما حدث معي. أثبتُّ لهم أنني لم أقصر في واجباتي تجاه زوجي ماهر ولا تجاه أهله، بل على العكس، هم من قاموا بخداعي.

جاء والدا زوجي إلى بيت أهلي من أجل حلّ المشكلة. جلسنا نتناقش، وصُدمت عندما عرضا علي مبلغ عشرين ألف ليرة سورية، بشرط أن أبقى مع ابنهما ولا أتركه.

لا أدري ماذا حل بي. جنّ جنوني من تصرفهما وقلة أخلاقهما، قمت بطردهما خارج البيت. أسرعت وأمي، وفي حوزتي الإثباتات، إلى مكتب المحامي، من أجل إجراءات الطلاق.

وهكذا، بدأت معاناتي في تأمين مصاريف المحامي والاعتناء بأبي وأمي. كنت العكاز الذي يتكئان عليه. بفضل من الله، وبعد فترة، أصبح بمقدورنا العودة إلى بلدتنا.

عدنا إلى بيتنا، لكن وجدناه مهدماً تمامًا. أخذنا منزلًا آخر في حي الأوتوستراد الغربي. بدأت أعمل في حياكة فساتين العرائس. كان الطريق طويلًا جدًا من منزلي حتى وصولي للمعمل.

في كل يوم، كنت أتعرض لمضايقات من قِبل عناصر الأمن المنتشرين على الحواجز في المدينة. بعضهم كان يتحرش بي. لم أستطع الكلام بسبب القصص التي كنت أسمعها عن تلك الأماكن.

كلما مررت على الحاجز، يدق قلبي بسرعة هائلة، وترتجف أطرافي خوفًا. لكنني كنت مضطرةً لمتابعة العمل لتأمين مصاريف المحامي. لم يكن أمامي خيار آخر.

رغم وقوف أختي وزوجها إلى جانبي ودعمهما لي ببعض المال، كانت التكاليف كبيرة، حتى وصلتُ إلى إنهاء معاملة الطلاق.

بعد ثلاث سنوات، حصلت على حريتي، فككت قيودي من ذاك الشخص الغادر، تلقيت الكثير من الانتقادات بعد طلاقي، لم أجد سوى أبي وأمي داعمين لي. في مجتمعنا، المطلقة تجلب العار لأهلها.

بدأت حياة جديدة، لأعيش تجربة المطلقة وأسمع الكلمات المسيئة من أقرب الناس إليّ، كان قلبي ينفطر من نظراتهم، أصغر كلمة يقولونها كانت تؤلمني: «لو كانت تربيتها وأخلاقها حسنة، لما تركها زوجها»

في نظرهم، الحق دائمًا على المرأة. الرجل لا يعيبه شيء، لم يعلموا أنني تحملت منه الكثير، لم يكونوا بجانبي حين كان يضربني مثل المجانين، لدرجة أنني صرت أخاف النوم بجانبه.

لم أكترث لما يقولون، وتابعت مسيرتي في الحياة. بدأتُ البحث عن عمل لأغطي نفقات دواء أبي وأمي، لكنني واجهت عثرة أخرى؛ كان الجميع يطلبون مني الجلوس في البيت لا أن أعمل. لم ألقِ إليهم بالاً، فالناس لا يسدّون ما ترتب عليّ من ديون، والمصاريف كانت تتراكم على عاتقي. عدت للعمل في حياكة الفساتين، ولكنني عُدتُ أيضًا لمواجهة الابتزاز والتحرش من عناصر الأمن.

كان أحدهم يطلب مني رقم هاتفي بحجة الحديث معي، وأحيانًا كان يطلب لقاءً خاصًا بي. كنت أرفض بشدة، فيقوم بمصادرة القماش الذي أحمله، ولا يسمح لي بالذهاب. كان يسمعني كلامًا أخجل من ذكره، ساءت حالتي النفسية، ولم أعد قادرة على المرور عبر الحواجز. قررت أن أبحث عن عمل قريب من مكان سكني. بعد فترة قصيرة، عُرض عليّ العمل في بوفيه المدرسة

في منطقتنا. وافقت فورًا، وبدأت حالتي تتحسن بعدها.

كانت تلك من أجمل الفترات التي عشتها في حياتي، لأنني كنت مع الأطفال. شعرت أن الله عوضني قليلاً عن حرماني من الإنجاب. صرت أتعامل مع الأطفال كأنهم أبنائي، ألعب معهم وكأنني طفلةٌ في عمرهم. غلبتني مشاعر الأمومة، فكنت أتعامل مع الصغير والكبير وكأنهم أولادي. شوقي لأن أكون أمًا جعلني قريبة من الجميع، فالأم ليست فقط من تلد، بل من تربي وتمنح الحب والنصح.

ذات يوم، جاء محمود إلى المدرسة، وهو والد إحدى الطالبات، شذى. كان يحضرها يوميًا، ومع الوقت صرنا نجلس معًا ونتحدث. كنت أستمتع بحديثه، وبدأت أرتاح إليه. ذات مرة، أخبرني قصته المؤلمة.

قال إنه كان يعيش مع والدته وإخوته الأربعة: عمر، مياس، عدنان، وهناء. بعد وفاة والده بمرض السرطان، تولى مع والدته تربية إخوته حتى كبروا والتحقوا بالدراسة. بعدها، تزوج من أم شذى، غزل.

كانت غزل تعيش مع عائلة كبيرة مكونة من عشر بنات. عند حملها بشذى، أخبرها الطبيب أنها ستنجب فتاة. غضبت كثيرًا وحاولت الإجهاض مرتين بسبب كرهها للبنات، لكنها أكملت الحمل على مضض. ولدت شذى بوجهٍ جميل ومشرق، لكن غزل لم تكن تعتني بها، فتولت جدتها رعايتها.

كبرت شذى حتى بلغت سبعة أشهر، وظلّ محمود يصبر على غزل رغم إهمالها لطفلتها. كثرت المشاكل بينهما، وتركته غزل وغادرت المنزل حتى انتهى الأمر بالطلاق.

محمود تابع قائلاً: «مرضت والدتي وعجزت تمامًا عن رعاية شذى. أوصتني قبل وفاتها بالزواج من امرأة تعتني بها، لأنني وحدي لم أكن أقدر على تحمل المسؤولية».

تابع محمود: «تعرفتُ على ملاك، امرأة كانت تعمل في محل العطورات الذي يمتلكه أخي. عرض أخي عليها قصتي، فوافقت على الزواج مني. بعد فترة قصيرة من الزواج، حملت ملاك وأنجبت توأمين، سلام وأحلام. كانت الطفلتان تشبهان شذى كثيرًا».

توقف محمود عن الكلام فجأة، فقد رن جرس المدرسة معلنًا وقت الانصراف. قال لي: «سأكمل غدًا». كنت متلهفة لسماع بقية القصة، التي أكملها في اليوم التالي. قال إنه عندما علمت غزل بزواجه من ملاك، بدأت تهدده بالإبلاغ عنه وتهديده بالسجن. التهم كانت جاهزة وقتها. لم يهتم بتهديداتها، لأنه لم يعد يريدها. حاولت إجباره على إرجاعها إلى عصمته.

توفيت والدته، وأوصته بشذى مجددًا. بعدها، تم اعتقال محمود على أحد الحواجز، وعلم أن غزل كانت وراء سجنه. دفع مبلغًا من المال ليخرج من الاعتقال، وأجبر على إرجاعها. عاشت غزل معه لفترة، لكنها لم تطلب رؤية ابنتها التي كانت تسكن مع ملاك. كانت ترفض حتى ذكر اسم شذى. حملت غزل بطفل آخر، وعندما علمت أن الجنين ذكر، طلبت الانفصال مرة أخرى. تركت شذى، التي كانت قد بلغت الرابعة من عمرها، وعادت إلى أهلها مكتفية بالجنين الذي تحمله.

لم يرَ محمود ابنه مجد بعد ذلك، بسبب انتقال غزل مع أهلها نتيجة ظروف الحرب. انتقل محمود للسكن في ركن الدين، حيث زادت حملات الاعتقال. أراد العودة إلى بيته القديم، لكن ملاك رفضت الانتقال معه. عاد مع شذى خوفًا من اعتقاله مجددًا. صارت شذى في الصف الأول، لكنها كانت تقضي أغلب وقتها في بيت إخوته. عندما يعود محمود من عمله، كان يجدها أحيانًا مستلقية عند باب البيت.

بدأ يخاف عليها، خصوصًا بعد أن أخبرته أخته هناء أن ابن الجيران حاول مضايقتها. صرخت شذى وهرب الولد أمام عمتها. قالت له هناء: «يجب أن تبحث عن زوجة تحمل جزءًا من المهام عنك وتعتني بابنتك. مسؤولياتنا جميعًا كبيرة».

رن جرس المدرسة مجددًا، وانتهى الحديث. كنت أرى محمود دائمًا، وأحسست أن شيئًا ما قد تغير داخلي، وكأنه بدأ يحتل جزءًا من قلبي. وكبر اهتمامي بشذى، خاصة عندما عرفت قصتها. مرت السنون، وأصبحت شذى في الصف الرابع.

في يومٍ من الأيام، عدت من عملي لأجد جارتنا عندنا ومعها امرأة أخرى. جلستُ معهما، ومن خلال الحديث علمت أن المرأة أخت محمود، وقد جاءت لخطبتي. أصابتني الدهشة؛ لم يقل لي محمود أنه سيرسل أهله، علمت بعدها منه أن الأمر كان صدفة، لكنها كانت من أجمل الصدف في حياتي.

رغم رفض والدي ووالدتي، لأنه تزوج أكثر من مرة ولديه أطفال، تركا القرار لي. بدأت أفكر في الموضوع.

عندما التقيت بمحمود، أدركت أن الطلاق لم يكن نهاية بل ربما كان بداية لحياة جديدة، حياة أستطيع أن أرفع فيها رأسي وأقول لا لكل كلمة أو نظرة لا أستحقها. وافقت على الزواج منه عام 2016، وفي ليلتي الأولى في منزلنا الجديد، رفضت شذى النوم في سريرها وطلبت أن تنام بجانب والدها. وعندما خلدت إلى النوم، حملها محمود بين ذراعيه ونقلها إلى مكانها.

وفي اليوم التالي، استيقظت على صوت بكاء شذى، فأسرعت لمعرفة السبب. تفاجأت من كلامها حين قالت لي: «إبتعدي ولا تقتربي مني، أنا لا أحبك لأنكِ أخذتِ أبي. إنه لي وحدي، أنتِ مثل ملاك (هل تريدين أن تبعديني عن أبيكِ أو

تخليه يضربني؟)». رجعتُ إلى غرفتي وأنا أبكي بحرقة، متسائلة عن ذنب هذه الطفلة المسكينة التي تعيش حياة صعبة.

استفاق محمود على صوت بكائي، وبدأت كلماته الرقيقة تلمس مشاعري وتساعدني على الهدوء. عندها فهمت أن الطلاق لم يكن مكروهًا، بل كان خيرًا لي، وبدأت حياتي من جديد مع من أحب. قررت أن أعيد لشذى ثقتها التي فقدتها، وصرت أتعامل معها كما لو كانت ابنتي الحقيقية، مشبعة إياها بالحنان والمحبة. كانت تنام بجانبي، وأحكي لها الحكايات الجميلة. بدأ محمود يشعر بالسعادة لأن بيته أصبح مليئًا بالحياة العائلية المرحّة والسعيدة.

لكن بعد شهرين، بدأت القذائف والصواريخ تتساقط على حيّنا، فاضطررنا إلى الانتقال إلى منطقةٍ مجاورة، وعادت المعاناة من جديد. وبقي أبي وأمي في المنطقة نفسها مع أختي وعائلتها. شعرت بالخوف من المجهول. بعد أيام تم إخبارنا باختفاء عدنان، أخو زوجي، الذي لم يتم العثور عليه. وفيما بعد علمنا أنه كان في المعتقل، وأن حالته كانت سيئة جدًا، ليتوفى لاحقًا تحت التعذيب. ثم أصبح عمر، أخو محمود الثاني، يتصرف بتكتم، وأخبرنا أنه سيغادر بعد أربعة أشهر. غاب خمسة عشر يومًا، ليخبرنا في النهاية أنه معتقل أيضًا، وأنه بحاجة إلى خمسة ملايين ليرة سورية.

جلس محمود يفكر في كيفية جمع المال، فنحن لم نكن نملك ما يكفي للعيش. اضطر للدفع ليخرج عمر من السجن. بعدها بدأ التهجير القسري، وأخبرني محمود أن أجهز أمتعتنا للذهاب إلى الشمال السوري. كان القرار صعبًا، ولكنني صممت على المضي مع زوجي. بدأت دموعي تنهمر، لكنني حزمت أمتعتي وركبنا الحافلات. الرحلة كانت طويلة ومليئة بالألم، وعندما وصلنا إلى الساحل السوري، بدأ القناصون بإطلاق الرصاص. استغرقت الرحلة ليلة كاملة، ثم وصلنا إلى قلعة المضيق حيث كان المكان مزدحمًا، وانتقلنا

مـرت ثلاث سـنوات، وشـذى تكمل دراسـتها، وتهتم ببيتهـا وزوجهـا وابنتها، وأنا فخورة بها جدًا. قررت أن أكون قدوة لكل امرأة عانت من ظلم المجتمع، وأنني سـأظل قويـة مثل زهرة الأوركيد التي تنمو في جميـع الفصول، رائحتها العطرة تنتشـر فـي كل مـكان. لـن نستسـلم أبدًا، وسـنبقى مؤمنـات بأننا أقـوى من كل الصعوبات..

بعدها إلـى المخيم.

في المخيم، كان الوضع فوضويًا ومليئًا بالمشـاجرات، السـرقات، والاعتداءات. بعـد شـهر فيـه، اسـتأجر محمـود بيتًـا فـي مـكان آخـر بعيـد عـن الضجيـج. لكـن الظـروف سـاءت مـرة أخـرى عندمـا لـم يعـد بإمكاننا دفـع الإيجـار، لأن محمود لـم يجـد عـملًا. فطردنا صاحـب المنـزل، وانتقلنا إلـى منطقة إدلـب حيث كانت الظـروف أكثـر صعوبـة. رغـم محاولاتنـا للتكيـف، لـم نكـن ننجـو مـن الطائـرات والقذائـف والتفجيـرات.

ثـم قـرر محمـود أن يهـرب إلى تركيـا. دفع إلى شـخصٍ لتهريبنا عبـر الحدود إلى قريـة الريحانيـة. خلال عبورنـا للجـدار الحـدودي، قـال المهـرب لنـا أن نرمي كل أغراضنـا، حتـى الطعـام والماء، وأن نركض بسـرعة لأنه كان هنـاك قناص. ركضنا لمسـافة طويلـة بلا مـاء ولا طعـام. كانت قدرتي على المشـي تتراجع، حتى قال المهـرب لزوجـي: «إمـا أن تمشـي بسـرعة أو نتركهـا هنـا». قلـت لمحمـود أن يذهبـوا مـن دوني، لكنـه رفض قائلاً: «لن أتركِكِ، إما نمـوت معًا أو نعيش معًا». هـذه الكلمـات جعلتني أفقـد الوعي.

اسـتفاقت شـذى تبكـي، وتنـادي: «أمـي، لا تموتـي، لا تتركينـي!»، كلمتهـا هـذه جعلـت روحـي تعـود إلـى جسـدي. حيـن فتحـت عينيّ، وجـدت شـذى ومحمود أمامـي. قلـت لهـا: «أنـا بخير»، ثم أكملنـا رحلتنا إلى المعبر، حيـث، بعد كل هذا الشـقاء، أعادتنـا دورية إلـى المنزل!

بعـد هـذه التجربة المريرة، عـادت حياتنا إلى حالة من الانهيـار، لكننا تمكنا من تجاوزهـا. عمـل محمـود فـي بيـع الدراجـات الهوائيـة، وتعلمـتُ منـه الحجامة وبدأت أشتغل بها. وغاليتنا شذى أكملت دراستها حتى الصف التاسع، وتزوجت وأنجبت طفلة جميلة أسمتها هبة. عندما حملت هبة بين ذراعي، شعرت أنني، أخيـرًا، وجدتُ عائلةً تحتفل بي.

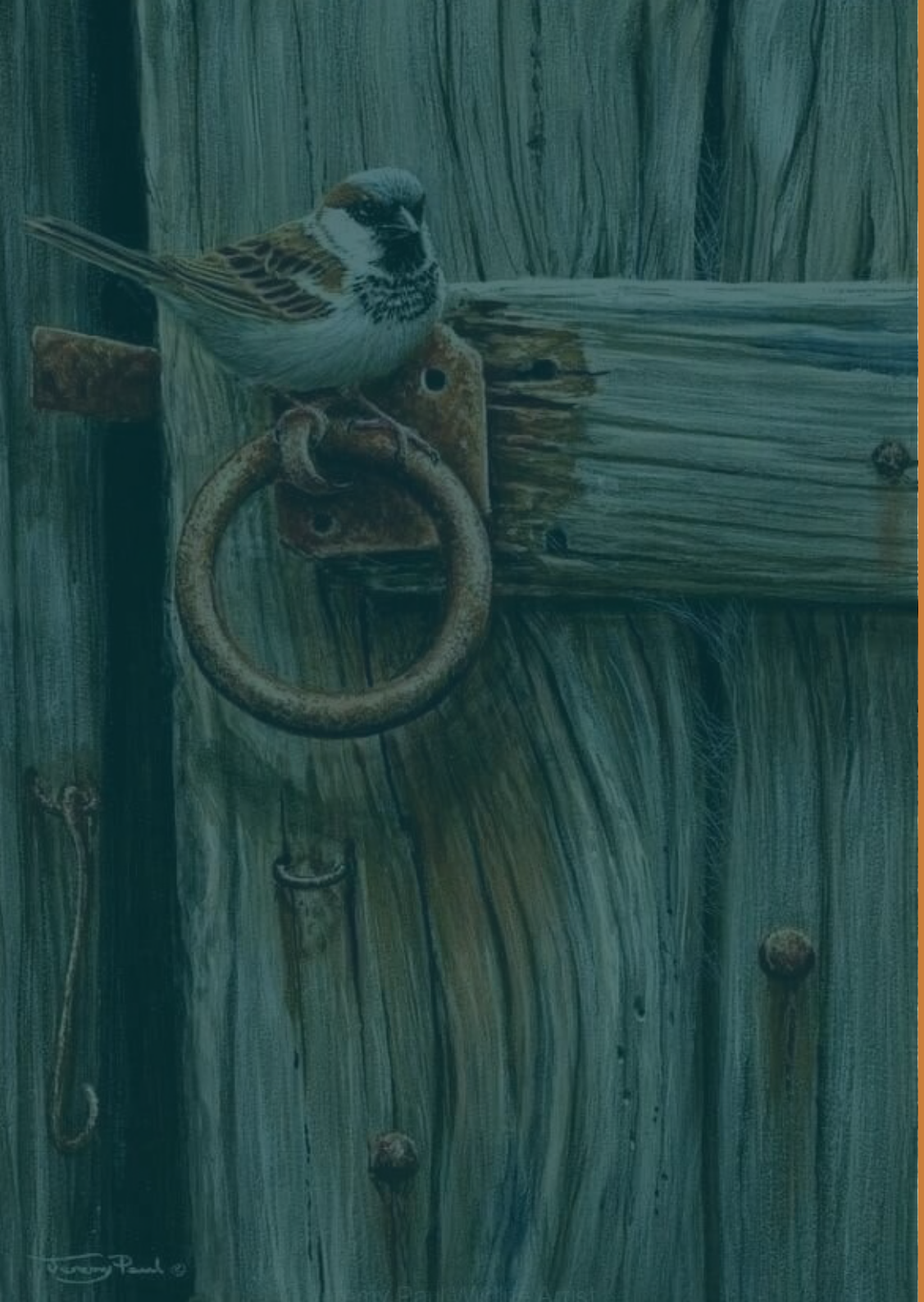

18

سالي بين الماضي والحاضر

ميس العمري

في بلدة صغيرة في قلب سوريا، عاشت فتاة تدعى سالي، أصغر أخوتها وأكثرهم دلالاً. تحوطها أسرتها بالحب والحنان والرعاية. والدها، محمود، تاجرٌ ناجح، ورغم انشغاله بعمله، لا يرفض لصغيرته طلباً ولا يجعلها تفتقد إلى شيء. وخوفاً عليها من أيّ مكروه ظلّ يوصلها إلى مدرستها بنفسه ويعود لاصطحابها منها، ولا يرضى أن يرافقها سواه، حتى دخلت الجامعة.

درست سالي في كلية التربية، وصلت سنتها الرابعة، وصارت تحلم باقتراب يوم التخرّج.

وجاء هذا اليوم: 2015/1/1 صادف يوم جمعة، وحفل تخرّجها في مسائه. عاد والدها من صلاة الجمعة متعباً وشاحباً، وعيناه غارقتان بالدموع. سألوه: ما بك؟ كتم ولم يخبر أحداً. قبيل انطلاق الحفل قال لسالي: سأخرج في مشوارٍ قصير..

لكنّه تأخّر. عاد في الواحدة ليلاً، لا تنتظم أنفاسه ولا يقدر على الكلام. كأنه يشعر بدنوّ أجله. بالكاد استطاع أن يهمس في أذن ابنته: «سالي، وصيتي إليكِ أن تعتني بأمّك وأخوتك..»

كانت جلطةً دماغيّة، عجّلتْ بوفاته.

شعرت سالي كأنها تفقد روحها، لا والدها وحده. كأن الزمن يتوقف في تلك اللحظة، وتغرق الدنيا في ظلام حالك على عائلتها كلها. كان إخوتها مسافرين

خارج البلاد، وكل عبءٍ قادمٍ سيكون عليها وحدها. تغيرت الحياة في عينيها، وكأنها كبرت قبل أوانها.

ليست العائلة وحدها مَن عاشت أياماً سوداء بعد رحيل معيلها. كانت الحرب دائرةً في البلاد بين النظام السوري وفصائل المعارضة. دخلت قوات النظام إلى مناطقهم، فاضطرت عائلة سالي للهروب والنزوح.

بعد فترةٍ عاد أخوها من الغربة. عاد بحمد الله سالماً، لكنّه مكسورٌ ومتعبٌ وحزين. كان طبعه من قبل رائقاً، وأصبح عصبيّ المزاج، لا يُحسن معاملة أمه وأخته سالي.

تزوّج أخوها، وسكن مع عروسه في بيت العائلة. وظهر التعب على وجه سالي وأظلمت روحها من سوء الحال في البلاد، ومن إساءات أخيها وزوجته لها ولأمها.

وتوالت الأزمات على سالي.. كانت عائدةً من زيارة أختها الكبيرة، فاستقبلوها بالتهاني والتبريكات. صُدمتْ سالي؛ على ماذا يهنّئونها؟!. كان أحد أقربائها قد تقدّم لخطبتها في غيابها، ووافق أخوها دون علمها. لم تكن مستعدةً لمثل هذا الزواج التقليدي. ورغم رفضها واحتجاجها، لم يتراجع أخوها. تمت الخطوبة وزوّجوها رغماً عنها.

كان زوجها يكبرها بخمسة عشر عامًا. وقد عاملها بالحسنى حتى إنها بدأت تشعر بالسعادة تدريجيًا وأنّ حياتها تتغير نحو الأفضل، بل وتتغيّر فكرتها عن الزواج التقليدي، ربما أدركت أنه ليست جميع الأشياء الخارجة عن رغباتنا سيئةً لنا.

كان عمّها، والد زوجها، أكثر مَن أشعرها بالأمان، عاملها كأنها ابنته. لكنّ والدة زوجها توفّيتْ بعد عام، وتزوّج هذا العمّ بامرأةٍ أخرى وغادر الأسرة ليعيش

في بيتٍ مستقلّ. بعدها شعرت سالي بنفسها في الجحيم، كأنّ هذا العمّ كان يحميها، ومنذ غاب أصبحتْ بلا حولٍ ولا قوّة، فطباع باقي أهل زوجها مختلفة، وكلهم يحاولون التحكّم بها وتحاول التأقلم مع حالها الجديد، ولا تستطيع دوماً.

كان الوضع في بلدتها الجديدة ينقلب أيضاً رأساً على عقب. انسحبت فصائل المعارضة، وعاد النظام إلى البلدة، ومعه القمع. نزحتْ عائلاتٌ كثيرةٌ خوفًا من الاعتقال، ومنها عائلة سالي وزوجها. وكانت حاملاً لم تحتمل هي وباقي نساء العائلة طريق النزوح الطويل والصعب، فعادت مع بقية النساء إلى البلدة، وإلى معاناتها اليومية معهن.

كانت لها جارةٌ تزورها كل يوم، لا تشكو لها سالي ما بها، لكن الجارة ترى دموعها، كأنّ دموع سالي وحدها تستغيث، تطلب النجدة للخروج من هذه الدوامة. ومن غير أن تطلب، تبرّعت الجارة بمساعدة سالي. استعانت بطبيبٍ يكتب لها تقريراً طبياً يُسمَح بموجبه عبور الحاجز، لتنتقل إلى حيث أختها التي لم ترها منذ خمس سنوات. حملتْ سالي حقيبتها وطفلها الذي عمره عامٌ ونصف وسافرت إلى أختها، حيث يمكنها التواصل مع زوجها من هناك.

دلّها زوجها على الطريق إليه. انطلقت في رحلتها نحو نصفها الآخر، تستعين بالله على مخاطر الرحلة، ويدفعها الأمل بلقاء زوجها إلى أمام دون تراجع أو خوف، حتى وصلت إليه. كان يقيم هو وأخوها معاً. فرحتْ بلمّ شملهم بعد طول الفراق.

ظنّتْ نفسها تستقرّ، لكن فرحها لم يطل. بثّتْ قنوات الأخبار ووسائل التواصل الاجتماعي أخباراً عن ترحيل كلّ مَن رفضوا التسوية مع النظام، وتهجيرهم إلى إدلب في الشمال السوري. ودخلتْ سالي في دوامةْ جديدةٍ من المعاناة والشدّة النفسية.

لكنها تجاوزتْ معاناتها في مستقرّها الجديد، وأنجبتْ طفلة، وتابعتْ تربّي طفليها وتربّي صداقاتٍ مع جيرانها الجدد، ويساندونها وتعوّض بهم كلّ ما خسرت، ويمنحونها الأمل!

تلك العقبات التي اجتازتها، علّمتها كيف ترضى رغم الصعوبات. ها هي تنظر حولها وتتفكّر: لم يبقَ سوريٌّ أو سوريّة لم يحمل في أعماقه سلسلة معاناةٍ يدمى لها القلب، لعلّهم يكافؤون على صبرهم ولو في الجنة.

تشجّع نفسها: وإن كانت قصتها مؤلمةً وحزينة، لم تستقرّ بعد مع زوجها، وقليلاً ما يجد عملاً، ونادراً ما يخلو بيتها من الضيوف، وعليها أن تظلّ بشوشةً في وجوههم، وعليها وحدها أن تكون الأب والأم لأولادها، لتربيهم كما تطمح، ولتدعمهم في الوقت الذي تحتاج هي قبلهم إلى دعم..

لكنّها لا تزال تملك نعمة الحياة؛ كيف لها أن تقف على قدميها، أن تغيّر حياتها لتصير أفضل وأفضل؟

الأمر ليس سهلاً، لكنها تملك الدافع لتسعى، ولن تستسلم!

راحت تستحضر ذكرى والدها لتستمدّ منه قوتها. والدها الذي لا يزال حيّاً في ضميرها وإن مضى زمنٌ على وفاته؛ كم منحها من الحبّ وكم نصحها وكم شجّعها لتظلّ قوية!

ستبدأ التغيير بنفسها. أكثر ما يزعجها هو وزنها الزائد، والذي يزداد ويزداد مع الضغوطات النفسيه. بدأت تتبع حميةً صارمة، وتسجلت في نادٍ رياضيّ، وثابرت بصبر وثبات، وانتصرتْ إرادتها؛ فقد وصلتْ أخيراً إلى الوزن المثاليّ، الذي طمحتْ إليه!

هو نصرٌ صغير، لكنه كبير المعنى لامرأةٍ كان كل ما حولها يحبطها، وتظلّ تقاوم وتسند نفسها وزوجها حتى أصبحتْ مثالاً بين أهالي منطقتها، تزرع فيهم الأمل، ويقتدون بإصرارها على تحويل الألم إلى قوة، والمعاناة إلى نجاح..

وكان أجمل ما أنجزتْ سالي، أنها دُعيّتْ إلى ورشةٍ لكتابة قصة، فالتحقتْ بها. هناك، ووسط نساء عانين مثلها وأكثر، ومدرّباتٍ أصغين إليها ومددنها بكل ما استطعن من دعمٍ نفسيّ، وعلّمنها عبر محاضرات ورشتهنّ حقّاً كيف تكتب قصّتها..

وهاهي الآن تقول لكل مَن سيقرؤها:

«ها قد كتبتُ قصتي هنا، وإليكم أهديها..»!

نحن الشجاعات نروي حكاياتنا

19

ويبقى الأمل

ضحى ضبيط

أنا بنت حلب الشهباء، في شمال غرب سوريا. بنت قلعتها حاملة الإرث العريق، وأحجار أزقتها القديمة الأثرية، ورائحة ياسمينها. وحلب مدينة العلم والأدب والتجارة والصناعة، والحرف اليدوية هي مهنة أغلب سكانها.

كل يوم، كنت أستنشق عبق الياسمين أمام منزل عائلتنا في حيّ الجلوم الكبرى، أجمل الأحياء في عينيّ، أحبه بكل تفاصيله، هواؤه، أزقّته القديمة، سكانه، كل شيءٍ فيه يعنيني، يلمس روحي ويقيم فيها. هناك في بيت العائلة قضينا أجمل أيامنا، حياةٌ مستقرّة، هادئة، نجتمع نحن الأخوة بحبٍّ وألفة، نتبادل الأحاديث، وجودنا معاً يغمرنا بالفرح والسرور. وفي المساء، يجلس والدي ويحكي لأولادي وأولاد إخوتي حكاياته الجميلة. قبل أبي، كانت جدتي

تـروي لنـا الحكايـات أيضاً، لكـنّ حكاياتها مختلفـة، قصصٌ عن الحـروب القديمة والتهجيـر، ترويهـا لنـا مـع الآهـات، وكأنهـا تحـدث الآن، أو لأنهـا تركـتْ فـي قلبها بصمـةً لا تسـتطيع نسـيانها، فتسـقط الدمعـة مـن عينيها.

لـم أتوقـع يومًـا أن تصبـح روايـات جدتـي واقعًـا نعيشـه بلـون داكن وطعـم مر. حتـى توفي والدي، وشـعرت بفقدان القسـم الأكبر من الحنـان، لكنني لم أتوقع أني سـأفقد الأمان بانهيار مدينتي الحبيبة. بدأت الأحداث في الدول المجاورة لبلادنـا، وكنا نتابـع أخبار المظاهرات والاحتجاجات فيها على شاشـة التلفزيون، ونشـعر بالحـزن علـى حـال النـاس هنـاك. مـا كنـا لننتظـر أنّ تلحـق بلادنـا بهـم. انتفضـت أغلـب القـرى بالاحتجاجـات وعمـت الفوضى، ممـا جعل النظـام يزرع المتفجـرات فـي الأسـواق والحـافلات، ليستشـهد المدنيّون أو يصابـوا. لم يطل الوقت حتى انتقل الحال إلى مدينتي. من بعد هدوئها واسـتقرارها وصل إليها القصـف العشـوائي علـى المدنييـن، ونزح منهم مَـن تعرّضـتْ بيوتهم للخطر.

كنـا نسـمع أصـوات القصـف والبراميـل المتفجـرة تنـزل مـن الطائـرات، ترتعب قلوبنـا فنهـرع إلى الأقبية علّها تكون أكثر أمانًـا. والأقبية باردةٌ ورطبة، مصنوعةٌ مـن الاسـمنت الداكـن، لم نعتد المكـوث فيها يوماً، وصرنا نقضي فيها سـاعاتٍ من الرعب والألم، نسمع صرخات الأطفال والكبار من كل جانب. انقلبت حياتنا من النعيم والحرية إلى السـجن، كطائرٍ مكسـور الجناح مرغم على هذا الحال. مـا إن يتوقـف القصـف قليـلًا حتـى يخـرج زوجـي ورفاقـه، العاملون فـي الدفاع المدنـيّ، إلـى أحيـاء المدينـة ليسـعفوا النـاس الذيـن طالتهـم ضربـات الغـدر والحقد، وينتشلوا الجثث من تحت الأنقاض. ونحن النساء والأطفال من سكان الحـي، ننتظـر عودتهـم وقلوبنـا تخفـق بالهلـع والرعب. تهـفّ علينا نسـمات من السـعادة عندما يعودون سـالمين. لا أنسـى وجه زوجي العائد والعرق يتصبب مـن وجهـه، والتراب الممزوج بشـيء مـن الدماء عالـقٌ على ثيابه.

خرجنـا مـن بيتنا إلـى منطقة أخرى، بحثاً عن الأمان. لم نأخـذ الكثير من أمتعتنا وثيابنـا، ظننّـا أنهـا أيام معدودات، كغيمة سـوداء، سـوف تتلاشـى، تتركنا نلملم جراحنـا، ولكن الواقـع كان عكس ذلك.

تكـررت الوعـود بالعـودة إلـى بيوتنا، ومـا عدنا نأبه لهـا، فلم يصدق واحـدٌ منها. لا بريـق أمـل يلـوح فـي الأفـق ليعيدنـا إلـى حياتنـا المعتـادة. مـرت عدة شـهور ونحن على هذا الحال، وزوجي مشغولٌ في عمله، يلبّي نداء من يحتاجون إلى المسـاعدة، تمـرّ أيامٌ ولا يسـتطيع المجيء إلى البيت. اقتـرح عليّ أن أذهب أنا والأولاد إلـى بيـت أهلـه. قلـتُ لـه: وهي فرصـة لأزور أهلـي بعدهـا وأقضي أيام العيد معهم.

حملنـا أنـا والأولاد حقائـب صغيـرة، وأوصلنـا زوجـي بالسـيارة إلـى المعبر. ظلّ واقفـاً ليطمئـنّ علينا حتى نجتاز معبراً يسـمى «معبر المـوت» لخطورة المرور منه. يتمركز فيه قناصٌ يسـتهدف كل العابرين، ولا يميز بين النسـاء والرجال، أو الكبـار والصغـار. ولا يسـلم منـه إلا من كتبت له حياة جديدة. في تلك المسـافة القصيرة، أمسـكت باثنين من أبنائي، وأمسـكت ابنتي الكبرى باثنين من إخوتها لنمر بسرعة قصوى قبل أن يطالنا رصاص القناص. كانت لحظات رعبٍ لا تُنسى، مرت علينا وكأنها سـنة، قطعنـا المكان ومررنا بسلام.

لحظاتٌ بعدها، وأطلق القناص رصاصاته الغادرة على الناس، سـقط عدة شـبان وامرأة على الأرض. رأيناهم من بعيد، لا أحد يسـتطيع الاقتراب لسـحبهم، فمن يقتـرب منهـم يُقتـل علـى الفـور. تبقى الجثـث علـى الأرض حتى منتصـف الليل، حيـث كان القنـاص يقلّل من ضرباته بعـده. حينها يجرؤ بعض الذين فقدوا أحداً مـن عائلتهـم أن يتقدّمـوا ليتعرّفوا علـى الجثـة ويسـحبوها بأقصـى سـرعة، أو تأتي سـيارة تجار الدم لتحمل ما بقي، ويأخذوا من ذويهم مبالغ خيالية مقابل جثامينهم.

اتصلت بزوجي على الفور لأبلغه أننا وصلنا بخير. كنت لا أزال أستوعب أننا بخير يعد هذا الهول الذي عبرناه. استقبلنا أهل زوجي بفرحٍ وحفاوة، جلس أولادي في حضن جدهم يضمهم إلى صدره والدموع تملأ لحيته البيضاء، وعلى وجهه غصةٌ وألم لأنّ عمل زوجي لم يسمح له ليأتي معنا. قضينا أجمل الأيام معهم، نسترجع بعضًا من أجواء العائلة، أنا والجدّة نعدّ الخبز الطازج على الصاج كل صباح، ونوقد الحطب مساءً لطهي الطعام، فالغاز والبنزين كانا مفقودين. نتعب ونفرح رغم التعب، ولو كان زوجي معنا لاكتملت فرحتنا أنا وأولادي وجدّاهم.

استأذنتُ الجدّ والجدة لأنتقل وأولادي إلى بيت أهلي، فاشتياقي لهم تخطى كل الحدود.. جاء أخي وأخذنا بسيارته، كان قلبي يخفق ما بين فرحٍ بلقاء أمي وإخوتي، وقلقٍ على زوجي الذي لم نعتد الذهاب إلى أي مكانٍ من دونه. من شدة فرحنا باللقاء بأهلي لم نستطع النوم، يحكي كلٌّ منا عن معاناته وأفراحه في أيامنا الماضية، حتى أشرق الصباح، وما أجمل احتساء القهوة ووالدتي معنا، تملأ جو بيتنا بالحب والحنان. قدّمتْ لنا القهوة بفناجين مختلفة، منها الكبير ومنها الصغير. تهاتفناها من أيادي بعضنا ونحن نضحك، كل منا يريد أن يأخذ الفنجان الأجمل، ووالدتي تنظر إلينا بوجهها الضحوك وتقول: «والله ما كبرتم، وكأنكم ما زلتم صغاراً..»

حلّ العيد. اتفقنا أنا وإخوتي بأن نقضي كل يومٍ منه معاً في بيت واحدٍ منهم، ونجتمع في اليوم الرابع لننام في بيت أمي. هكذا أكون عايدتهم جميعاً قبل أن أعود إلى بيتي.

لا أنسى تلك الليلة ما حييت. قضيناها في الحديث والضحك والمرح.. كانت أختي منال بطبعها أكثرنا مرحاً. لم تترك لحظة إلا وملأتها بخفة دمها، لم تتركنا ننام رغم نعاسنا. تارة تعقد الخيط وتسحبه على وجوهنا وأرجلنا وأيدينا، وتارة

ترش علينا الماء، وكأنها لا تريدنا أن نتركها وننام. أخيراً نعست هي فرشقناها نحن بالماء ولم يتوقف ضحكنا رغم آلامنا التي نخفيها وكم كانت أمي سعيدة بنا!

طلعت الشمس فقالت منال: «اليوم دوري، ستأتون كلكم لتعايدوني في بيتي، وعدني زوجي أنه سيساعدني في إعداد العشاء.. لا تتأخروا، أنا بانتظاركم..» غادرتْ وهي تلوح لنا بيديها وتقول لأولادها: «قولوا لهم مع السلامة.» وأجبنا ونحن نضحك: «حاولي أن تطبخي عشاء لذيذًا، لن نأكل شيئاً قبل أن نلتقي مساء، سنأتيك جائعين جداً..»

كان موعدنا مع منال في تمام السادسة، قبلها سمعنا صوتًا مرعبًا وخبر سقوط قذيفةٍ على متجر الألعاب. يا للهول! إنها أيام عيد والمتجر مزدحمٌ بالناس. كانت منال وزوجها وأبناؤها هناك. أصيبوا ونُقلوا جميعًا إلى المشفى. كم تعذّبنا في الاهتداء إلى اسم المشفى الذي نُقلت إليه.

فُجعنا بالخبر. منال ماتت، هي وولداها التوأمان أيهم وملهم في الرابعة من عمرهما. وحالة ابنها بدر، ذو الخمسة أعوام، خطرة، وهو في غرفة العمليات. وزوجها مصابٌ بعدة جروح، لكنها غير خطيرة. دخلنا إلى غرفة زوجها، كان في حالة هستيرية، يسأل: «أين زوجتي وأولادي؟ خرجنا من المتجر وهم يحملون الألعاب التي اشتريناها لهم.. رأيتهم مستلقين على الأرض والدماء تغطي أجسادهم.. رأيت أشلاء كثير من الناس، أريد أن أطمئن على أولادي.. «

دخل رجلٌ لا نعرفه وصدم زوج أختي بسؤاله: «هل أنت الذي ماتت عائلته»؟ فأغمي عليه على الفور.

كل السرور الذي عشناه تحوّل إلى مآتم لا أعرف إن كانت ستنتهي. قالوا في نشرة الأخبار أنهم قتلوا الكثير من «الإرهابيين» الذين كانوا على الحاجز أمام

المتجر. هل أختي منال وصغارها هم الإرهابيون؟ أم المرأة الحامل التي كانت تنزل من على الدرج أمامهم هي الإرهابية؟ أم الشابان اللذان كانا يسيران بسلام، يدُ كل منهما على كتف الآخر، لتسقط تلك القذيفة اللعينة ويركضا مفترقين، ظلّ أحدهما يركض أمام السيارة ويلتف حولها إلى أن خرجت أنفاسه الأخيرة. والثاني يصارع الموت، يدخل ويخرج من باب المتجر، إلى أن وضع يده على صدره وأخرج زفيره الأخير. هل اثنا عشر شهيدًا هم الإرهابيون حقًا؟ هل أهلهم الذين احترقتْ قلوبهم عليهم هم الإرهابيون؟ أم زوج أختي، الذي حين استعاد وعيه، ظلّ يلطم نفسه ويقول: «ليتني لم أنفذ طلبها.. قبل أن تأتوا بساعة، طلبت مني أن نذهب إلى متجر الألعاب لنشتري منه هدايا لأولادنا وأولاد اخوتها ليفرحوا بالعيد. في البداية، رفضت، وأنا لم أعتد أن أرفض لها طلبًا، فهي حبيبتي وأم أولادي.. كانت ستذهب وحدها قلت لها: عديني ألا تتأخري، ولم تجب. من شدة حبي لها لم أتركها تذهب وحدها. قلتُ لها: «سأذهب معك، ولكن أتعديني ألا نتأخر»؟ هزت رأسها وقالت: إن شاء الله! وضعنا الطعام على نار هادئة كيلا يحترق، ولكن طعنات الحقد والغدر أحرقت أبنائي وزوجتي. كيف سأعود إلى المنزل من دونهم؟ لم أعتد أن أفارقهم. عندما كنت أطهو السحلب لأبيعه، كان أبنائي يتسابقون على حمل الماء ليساعدوني رغم صغر سنهم، وكنت أضعهم معي في السيارة ونذهب لبيعه، ونعود إلى البيت وتستقبلنا منال بكل حب.. ها هم الآن تركوني ورحلوا. كيف سأكمل حياتي دونهم؟!

حملنا الجثامين إلى بيت قريبٍ لنا. بقي بدر وحده تحت العمليات. بحثنا عن امرأة تقوم بتكفين أختي وولديها، ولم نجد. كان الأصعب على أمي أن تكفّن ابنتها بيديها، «لا أستطيع.. لا أستطيع»، قالت. كانت كلما حاولت، تشعر بشلل في يديها وبشيءٍ ما يدفعها إلى الخلف. «كأنّ أحدًا يبعدني عنها، قالت..

ثم جاء أخي بـ بدر، ابن أختي الثالث، الذي مات تحت العمليات. كأنّ أختي كانت تنتظر ابنها الأخير لتأخذه معها.

حينها أعان الله أمي على تكفين فلذة كبدها وأبنائها جميعاً، وقد جفت الدموع في عينيها..

أخرجنا أنا وأخوتي الصور التي أرسلتها منال إلينا من الهاتف. في كل صورها كانت تلوح بيديها، كأنها تعلم أنها راحلة، كأنها تقول لنا مع السلامة..

هل كانت صدفةً، أم أنها شعرتْ حقاً بقرب أجلها؟ تركت زوجها جريحًا مكسور القلب. خرج من المشفى وقد سُرق من جيبه مبلغ كبير من المال، فراح يلطم على وجهه ويقول: «كنتُ سأشتري بها قبراً لزوجتي وأولادي.. قتلتموهم وسرقتم ثمن قبورهم.. يا الله لن أستطيع العيش من دونهم. يا الله.. أتوسل إليك، خذني إليهم لأكون بقربهم..»

تكفّل إخوتي بشراء القبور. دفنوا أختي وأولادها في قبر واحد. تحلّقنا حولهم نقرأ القرآن وندعو لهم..

عدنا بكل وحشتنا. أمي منهارة، لا نستطيع تركها وحيدة. لكنّ زوجي اتصل ليخبرني أن أستعجل العودة، فالمعبر سيغلق. عدتُ مرغمة، وبقيت على اتصالٍ بأهلي لنواسي بعضنا، فقد ودعوني بدموع الألم بعدما كانوا قد استقبلوني بزغاريد الفرح. ولم تغب عنا تلك الحادثة، نسترجعها كأنها فيلمٌ حزين، شديد القسوة. شكراً لرب العالمين أني على الأقل رأيتُ أختي قبل أن..

واظب زوج أختي المسكين على زيارة أهلي كل أسبوع، كما كان يفعل هو وأختي، كأنها ما زالت حيّة. كذلك أهلي يذهبون إليه ويتعشون معه ليؤنسوه، وسوى ذلك كان في حزنٍ عميق، لا يلتقي أحداً، يقبع في بيته هو وأمه المنهارة، التي كانت قد فقدت خمسة أبناء من قبل. أخيراً أقنعوه بالزواج. ورزقه الله امرأة طيبة، أنجبت له بنتًا، وكانت حاملًا في الثانية حين أصابته جلطة قلبية، فمات تاركاً ابنته يتيمة وزوجته أرملة.

ونحن، اشتد علينا القصف، وأطبق الحصار على مدينتي حلب لشهور. غابت مقومات الحياة، لا مواد غذائية ولا حليب أطفال ولا كهرباء. بتنا نخبز بأيدينا لعدم توفر الطحين. كأننا في زمن العصور الوسطى. أكل الناس الأعشاب والحشائش. غابت المواد الطبية من المستشفيات، إلى أن أتانا الفرج المرير لنخرج من الحصار إلى التهجير.

أخرجونا من مدينتنا بالباصات الخضراء، لنشعر بغربةٍ في بلدنا، وهاجر أغلب أصدقائنا إلى البلاد المجاورة. أشدّ ما أوجعني أنني بسبب كل هذه الأوضاع لم أستطع تحقيق حلمي بمستقبل أولادي كما كنت أرغب. لم تكمل ابنتي الكبيرة دراستها الجامعية، فاشتغلت في روضة أطفال، وتزوجت وأنجبت بنتاً. كذلك الصغيرة تزوجت وأصبح لديها طفلان. وأبنائي يشتغلون مع أبيهم في ورشة للخياطة، هي صنعة جدهم وأبيهم، ربما يعوضون بالعمل ما فاتهم في الدراسة، وأصبح لديهم أصدقاء جدد، عساهم يقضون معهم أوقاتا جميلة لتصبح يومًا ذكريات يروونها لأطفالهم. وصغيرتي ذات الثلاثة عشر ربيعًا نجحت إلى الصف الثامن بتفوق. وأصغر أطفالي يعيش الآن بين إخوته آمناً، لكنه لا يعرف جدته وأعمامه سوى على الجوال. وأنا أعمل، وصار لديّ معارف جدد، وبيننا مودّةٌ وألفة، وأصبحوا جزءًا من حياتنا.

كثيرًا ما أجلس بمفردي، أسأل نفسي: هل نحن بخير؟ الروح في الشمال والقلب في حلب! خرجت منها وتركتُ قلبي فيها. وجه أمي لا يغيب عن ناظري، ولا تفارقني ضحكاتها. أبى أبي أن يغادر حلب. ومات ولم أستطع زيارة قبره. وأنا في حزنٍ لا أستطيع إخفاءه. ودّعتُ إخوتي وأولادهم وهم صغار، وأصبحوا شباباً، ومنهم من تزوج وأنجب، وكثيراً ما لا أستطيع الاستفسار عن حالهم على الجوال خوفًا من الاعتقال. لا نقول لبعضنا سوى رؤوس أقلام، لكل كلمة منها ألف معنى.

ترى هل سنموت غرباء بعيداً عنهم، أم نجبر أنفسنا على التأقلم من أجل أولادنا؟ وهل سنعود يومًا؟ هل سننسى كيف رمت السنون بثقلها على مستقبل أولادنا، وأبعدتنا عن أهلنا وأحبتنا؟! ليت الزمان يغير الحال، ليت الطغاة يرحلون!

من أجل أولادي سأنظر إلى النصف الممتلئ من الكأس، رغم آلامي وجراحي سأصمد، وأشدّ أزر أولادي، فهم الأشجار التي ستثمر. قد تميل، لكنها لن تنكسر..

20

الساعة الخامسة والنصف

بتول حزرومة

يومنا ذاك، بدأ عادياً.. كان يوم جمعةٍ مليئاً بتفاصيل عائلية. طقوسُ نهار الجمعة أمانُ عائلتنا، تهبنا طمأنينةً يصعب التعبير عنها بالكلمات. في صباحه أيقظتني أمي كعادتها لصلاة الفجر، ثم ذهبتْ للوضوء. بعدها ذاكرت معنا أنا وأختي حنين سورتي الكهف ويس، بينما يقرأ أبي أذكاره المعتادة كل جمعة، وأخي محمود يساعد أمي في العجين..

قالت أمي: سوف نجعل يوم الجمعة هذا مميزاً! سننهي أعمالنا باكراً كي نستطيع اصطحاب أولاد عمي الأيتام إلى البستان للترفيه.

وزّعتْ علينا المهام؛ حنين تتولى تنظيف الأرض، وأنا ترتيب المطبخ، وأمي تصعد إلى الطابق الثالث حيث نغسل الملابس، لتلحق نشرها على السطح قبل صلاة الجمعة، بينما تستوي قدور الطعام فوق الموقد.

قطع دويّ الطائرات أماننا، بدأتْ غاراته الجوية تستهدف حيّنا. كنت مع أختي الصغيرة في الصالة نراجع مادة الإنجليزية، بينما يحاول أبي تهدئتنا، لنبقى في مكان آمن. فجأة، عاد أخي محمد ليخبرنا أن الطائرة قصفت منطقة قريبة من بيتنا. ارتفع صوت أبي ينادي أمي لتترك السطح وتنزل إلينا حالاً، لكنها كانت تسرع في إنهاء الغسيل، مطمئنةً إلى أنها ستكمله في دقائق قليلة وتعود إلينا.

غير أن تلك الدقائق لم تمر بسلام؛ دوّى صوتٌ هائل، أعقبتْه موجة انفجارٍ أطاحت بنا، تبعها غبارٌ كثيف وزجاج محطم وأحجار تساقطت فوق رؤوسنا. في تلك اللحظات المشوشة، لا أذكر كيف انتشلتُ نوران من الأرجوحة واحتضنت حنين. صرخ أبي مرعوباً على أمي: «ثناء!»، ولم تجب. صرخنا كلنا بأعلى أصواتنا نناديها. كان في داخلي يقين أنها بخير، لكن كلمات الاستسلام كانت تتسرب من أفواهنا مع تصاعد الدخان والغبار.

وبينما كنا نحاول النجاة والخروج من الغرفة عبر الممر، تحطّم الزجاج تحت أقدامنا. من شدة الصدمة لم أشعر بأي ألم. استطعت الوصول إلى الماء لأغسل وجوه إخوتي وأساعدهم على التنفس، ثم ركضت أنا وحنين إلى النافذة، نصرخ طلبًا للمساعدة.

جاء الجيران إلينا مسرعين، بينما أبي وأخي يحاولان شقّ طريق بين الأنقاض ليصلا إلى الطابق العلوي. استغرق الأمر وقتًا ودموعًا. وعندما وصلا إلى السطح، وجدا والدتي ملقاةً تحت الركام، وجهها الهادئ المطمئن ملفوفٌ بحجابها، وكأنها طيف نقيٌ وسط ذلك الخراب.

نُقلنا إلى قبو البناء مع الجيران، ونحن لا ندرك تمامًا ما حدث. كنت أسأل الشاب الذي قابلته عمّا حلّ بأمي، وفي قلب الغضب والخوف كان الجميع يطمئنونني كذبًا بأنها بخير، حتى قابلتْ عيني إشارة من أحدهم فهمت منها الحقيقة المؤلمة.

جاء أخي ليصطحبنا إلى المشفى، لنودّع والدتنا. هناك رأيتُ وجه أمي، فيه شظايا صغيرة لم تشوّه ملامحها بل زادت من وهج نورها. تبدو كأنها تستريح في سلام. كانت جدتي قد جاءت أيضاً لترى ابنتها الوحيدة وتكفّنها.

بفقد أمي، وجدت نفسي أواجه ألمًا أكبر مما تخيلت. أرى أبي أمامي محطمًا لا يعرف إن كان عليه أن يصبّرنا أم يصبّر نفسه. وسط الدموع والحزن، كانت جدتي منبعًا للقوة، وكأنها توزّع الصبر على كل من حولها. تقف بجوار جثمان ابنتها، تودعها بابتسامة هادئة وبأرقّ الكلمات، وبصوتٍ لا أستطيع نسيانه: «الله يرضى عليكِ يا بنتي، قلبي رضيان عنكِ»، فتروي كلماتها قلوبنا رغم الحزن.

حملوا جثمان أمي إلى منزل جدي الذي لم يستطع الحضور إلى المشفى بسبب ضعف صحته. وضعوه أمامه، لم تحتمل ركبتاه ثقله، انهار بجانبها صارخًا

مـن الألـم، يلقـي عليها عتابًا حزينًا؛ فكان من المفترض أن تأتي لزيارته في اليوم التالـي، لا أن يأتي هو ليودعها.

رافقنـا أمـي حتـى السـيارة التـي نقلتها إلـى المقبـرة، وطلبـت الدخـول معهـم لأبقـى بجوارهـا أطـول وقـتٍ ممكـن، لكنهـم رفضـوا. عدنـا إلـى بيتنا لنأخـذ منه بعـض الأغـراض، وأنا أشـعر بفراغٍ عميـق. توجهت إلى خزانة ملابـس أمي أبحث عـن معطفهـا وحجابها؛ كنت بحاجة إلى أي شـيء يذكرني بها، ولم نجد حجابها، لنعلـم لاحقًـا أنهـا كانت قـد أخذته معها إلى السـطح.

عدنـا إلـى منـزل عمـي، حاولـتْ أرملتـه أن تُهـدّئ مـن روعنـا، طلبـتْ منـا تناول الطعام. كان طعم كل لقمة مرًا ويكاد يخنقني. شعرت بألم مضاعف في حلقي، وكنـت أحـاول أن أبدو قوية أمـام إخوتي الأصغر.

بعـد صلاة العصـر، أعلنـوا الآذان الأخيـر لـوداع أمـي، لا يـزال صداه محفـورًا في ذاكرتـي، يدق في مسـامعي.

كانـت الأيـام التـي تلت تشـبه الليل الطويل؛ فقـد كنا نعيش على أمـل كاذب أن أمي ستعود، كل لحظة نسترجع فيها ذكرى معها كانت كخنجرٍ في قلوبنا. حكى لنـا أبـي كيف حاول مع أخي إخراج جثة أمـي من بين الأنقاض، وكيف كان هناك من اسـتغل الفوضى لسرقة منزلنا.

بعـد أيـام قليلـة مـن العـزاء، بـدأت العائلة تضغـط على أبـي للزواج مـرة أخرى، مـن أجـل أن يسـتقرّ الأولاد، قالوا له. عرضوا عليه زوجـة عمي الأصغر المتوفى، قالـوا لـه أنّ أمـي أوصتْ قبـل رحيلها، أنها إن توفاهـا الله فهي ترغب في جمعنا مـع أولاد عمـي الأيتـام فـي منزلنـا. ربما كانـت تؤمـن أنّ تكاملنا كأسـرة واحدة سـيخفف عنـا وطأة الأيـام، وكان أبي يرفض هـذا الطلب بإصرار، فهـو يعتبر أمي نـور حياته ولا يراهـا إلا بجانبه.

ولكن، وبعد وفاة أمي باثني عشـر يومًا، تم عقد القران. عشـنا جميعًا في منزل واحد، وكانت البداية واعدة؛ بدت زوجة أبي كأنها نسخةٌ من أمي تعاملنا بحب وحنـان. مضـتْ فتـرة وجيـزة، وبـدأت نوايا أخـرى منهـا بالظهور. أصبحت تقسـو علينـا عنـد غيـاب أبـي، وتُلقي بالأعبـاء المنزلية الثقيلـة على عاتقنـا، وتلوم أخي على أسباب لا تستحق اللوم وتطرده من البيت، وتضرب نوران الصغيرة لمجرد أنها تسـأل عن أمها.

طلـب جـدي وجدتـي مـن أبـي أن يرسـلنا لنعيـش معهمـا ونخفّـف مـن وطـأة حزنهمـا. عشـنا معهمـا فتـرة، لكـن شـوق جـدي لأمـي كان أقـوى مـن احتماله، ليتوفـى بعـد ثلاثـة أشـهر مـن رحيلها.

مـرّ عـام، وعدنـا إلـى منزلنـا وبـدأت العائلـة تفكـر في تزويجـي، رغم صغر سـني وضعفي. زوّجوني من شاب طيب، وكان أبي فرحًا للغاية، ينتظر بلهفةٍ أن ألد له حفيـداً يحمـل فرحًـا لعائلتنا بعد كل هذه المحن. غيـر أن الفرحة لم تكتمل، لم يتحمـل جسـدي الصغيـر حملـي الأول، وفقدت طفلي، لتظل الذكـرى عالقة في ذهنـي كغصة أخرى فـي حلق الزمان.

كانـت تلـك الأحداث بداية لرحلة طويلة من التحديات، تعلمت خلالها أنني، رغم الصعوبـات، قـادرة على الاسـتمرار، وأن النور الذي غاب برحيل أمي سـيظل في داخلي، يضيء لي طريقي لأواجه كل ما سـيأتي.

كل بدايةٍ جديدة كانت تعيد الأمل إلى حياتي، رغم كل الظروف والألم. سـنواتٌ مـن المحـاولات والأحلام، عانيـتُ خلالها من أحد عشـر إجهاضـاً، وكانت الأحلام تتلاشـى مع كل إجهاض، ويصحبه ألمٌ لا يوصف، ويشـتعل قلبي بالشـوق لطفلي المنتظـر، إلـى أن أخبرنـي الطبيـب أن الحمـل بـات شـبه مسـتحيل، وقـد يكـون الحل الوحيد عبر عملية جراحية معقدة. ورغم أملي الكبير، اتخذت قرارًا صعبًا بالتوقف عن العلاج بسبب الظروف الراهنة، معتمدةً على الله وراضية بقضائه،

ومصممةً على استكمال دراستي والعودة إلى حياةٍ طبيعية بقدر المستطاع. كان وقع الانتظار عليّ ثقيلًا، لكنني قررت المضي قدمًا، محاطةً بحب زوجي وتفهمه، بينما ترهقني نظرات المجتمع وأحكامه القاسية أكثر من الآلام نفسها.

مرت الأيام، وحدثت خلال إحدى الليالي هزة أرضية شديدة أثارت الخوف في النفوس، كان الجميع يصرخون ويركضون بحثًا عن الأمان، بينما زوجي يواجهها بهدوء غير متوقع، ربما لأنه عايش القصف وأهواله من قبل على الغوطة. كانت تجربةٌ مؤلمةً عليه، أثرت فيه بعمق، وحوّلته إلى شخصٍ شديد التحمل، يمشي بثبات وسط كل اضطراب.

هدأت الأرض من حولنا وعدنا إلى المنزل، وجاء الحمل الذي انتظرته طويلاً. لوهلة، كانت فرحتي أقوى من كل ألم مررت به، أقوى من كل دمعة سقطت في لحظات ضعفي، أقوى من كل نظرة قاسية وموقف مرير. لم أتمالك نفسي عندما أخبروني في المشفى، ألقيت الهاتف وعانقت زوجي بحبٍ كبير؛ فقد بات حلمي حقيقة بعد كل هذا الانتظار. اتصلت بأهل زوجي وأخبرتهم بحقيقة العملية التي أبقيتها سراً بعد كل الظلام الذي مرتُ به. كانت تلك اللحظة بداية لفصل جديد في حياتي، ملؤه الأمل والتطلع إلى المستقبل.

كانت رحلتي مع الحمل مليئة بالتوتر والفرح معًا، فقد تحقق بعد سنوات من الألم والمشقة. أبلغني الطبيب بضرورة الراحة التامة، رغبتُ في سماع نبض جنيني، فقال الطبيب: غير ممكنٍ بعدُ، لا يزال قلبه في مراحل التكوين المبكرة. وجاءت هزّاتٌ ارتدادية أعادت إليّ توتري، لكن حب زوجي ودعمه جعلاني أشعر بالأمان، ووافق على الانتقال إلى بيت خالي الذي كان أكثر أمانًا حرصًا على سلامة طفلنا المنتظر.

في وسط أجواء الموت والخوف، شعرت أخيرًا بفرح حقيقي، يأتي مع كل ركلةٍ من جنيني، وكل لمسة تجعلني أتخيل ملامحه. ويأتي أخي ليهتم بي، لا يسمح

لي بحمل حتى كوب ماء، ويؤكد لي دائمًا أنني لن أفتقد العائلة ما دام هو بجانبي، وأن طفلته وطفلي هم أبنائي المستقبليون أيضًا.

في موعد الفحص المنتظر توعكتْ صحة زوجي فرافقني خالي. استمعت إلى نبض قلب طفلي لأول مرة ونبض قلبي بالفرح. لم أتمالك نفسي فسجّلتُ الصوت وصوّرتُ شاشة الفحص ليعيش زوجي هذه اللحظة معي.

طوال شهور حملي التالية، كنت أستمتع بركلات صغيري وأستعد لاستقباله. وجاء وقت الولادة، كان الألم عظيمًا لكنه ممزوج بسعادة لم أشعر بها من قبل. كنت أعلم أنني مع كل موجة ألم، تقترب اللحظة التي سأحمل فيها ابني بين يدي. دخلت غرفة العمليات، وقبلت مصيري بطمأنينة ورضا، راجية من الله أن تكون ولادتي يسيرة.

في الساعة الخامسة والنصف تماماً، سمعتُ صرخة ابني محمود الأولى.. احتضنت ابني بكل الشوق الذي تراكم لسنوات طويلة. وعدتُ وأنا أحمله إلى بيت خالي ليكون ملاذي ومأواي، وسط رعايتهم ودعمهم الذي أحتاجه في تلك الفترة. ورغم الصعوبات والألم، أعاد وجود ابني الأمل إليّ، وأشعل الشغف في حياتي.

عادت الهزّات الارتدادية بعد عشرين يومًا من الولادة. عصف الخوف بي، حملت طفلي وأنا أرتجف وأصرخ: «زلزال!»، لينهض زوجي بسرعة على غير عادته، ويتحرك بأسرع ما يمكنه، دون أن يتأنق أو يهتم بمظهره، متلهفًا لحمايتنا. تلك اللحظة كانت كافية لتُظهر لي عمق التغير الذي جلبه وجود ابننا في حياتنا.

أصبح محمود الأمل الذي ينير أيامنا، بتنا نحب الحياة لأجله ونتطلع معها إلى مستقبل أجمل وأمل أكبر.

21

عندما يزهر العمر قسراً

شذى بنيان

في الخريف، دُفنت خساراتي التي تراكمت كأوراق على طاولة الزمن. سقطتْ في فنجان قهوتي وأنا شاردة الذهن، ملامسةً الطاولة كما لو كانت تُعزيني على قرارٍ اتخذته متأخراً، بحلمٍ تأخرت عن العيش فيه. كل رشفه تأخرتُ عن أخذها كانت تذكرني بحلم طاردته، لكنه أفلت من يدي. لا أستطيع أن أتذكر متى كانت قهوتي ساخنةً آخر مرة، ولا متى كانت خسائري أقل وطأة على كتفي.

من أين يبدأ السوري، وهو أسير وطنه، مقيّدٌ بذكرياتٍ وجراح لا تندمل؟ وهل له أن يحلم في زمنٍ بات فيه الحلم رفاهيةً نادرة؟ كلما حاول الهروب إلى مساحة صغيرة من الأمل، وجد أبوابها موصدة، وأن طريق العودة إلى ما كان عليه قد انقضى. وتبقى في قلبه شظايا حلمٍ، تحاول أن تلملم نفسها، تبحث عن مساحة صغيرة تنبت فيها من جديد، رغم كل الصعوبات ورغم الألم الذي يحاصر كل زاوية من حياته.

ربما لم تعد الأحلام كما كانت في الماضي، بسيطة وساذجة، ولكنها الآن أكثر قوة وصلابة، تأتي من عمق المعاناة. كيف للمرء أن يُذكّر نفسه بمدى قوته الآن من دون الرجوع إلى الماضي، وكيف ضمد جراحه بالدموع؟ عادت بي الذاكرة إلى أجمل سنوات الحياة، إلى باحة المدرسة، إلى الفصل الأول في الصف الرابع. أتذكر حينها كمية السعادة والدهشة عند مشاهدتنا لطائرة تحلق في السماء. لم أكن أتوقع أنّ الحياة سوف تتغيّر بعد ذلك الفصل، وكيف للمشهد نفسه أن يبعث الرعب والذعر في قلوبنا.

طمأنَ والدي فؤادي عند عودتي من المدرسة، وشجعني كعادته على أهمية التفوق في الدراسة، وأنّ عليّ مواصلة الاجتهاد. اعتدت على حصولي على درجات عالية في المدرسة، لم يكن يوماً ذلك حباً بمكافأة والدي، بل طمعاً في مرتبةٍ جيدة جداً. انتهى الفصل الدراسي كما أردت بتفوق، وتم تكريمي، وانتظرتُ أبي بفارغ الصبر. سرحتنا أمي جنب المدفأة، وعندما جلسنا جميعًا شعرنا بالدفء، ارتدينا ثيابنا الجديدة. فتحت أختي الصغيرة الباب، دخل أبي وبيده دبٌّ كبير وقال:

هذا لابنتي البكر، اخترته لكِ! رفرف قلبي من الفرح، وصرت أصرخ بأعلى صوتي: على لون غرفتنا.

على لون غرفتنا، بينما كان الحزن يخيم على قلب أختي في الطرف المقابل. بدأت أختي الوسطى بالعتاب. خرج أبي لبرهة من الوقت، ثم دخل بدبٍّ كبير آخر، وأعاد ذلك الأمر لأختي الثالثة.

أحضر لنا حلوى للاحتفال بتفوقنا، ولم ننم تلك الليلة من فرحتنا. ألخص تلك المرحلة بكلمة أبي، بعادات قريتنا التي كانت تمنح كل شيء للذكور فقط. في ذلك الوقت، لم يُرزق أبي إلا بثلاث شمعات، وكسر تلك القاعدة. لم يهتم للقيل والقال، وظلّ محافظًا على حب أمي ورغباتها.

«أبو شاكر»، هكذا كان يلقّب أهالي بلدتنا أبي من باب الاستهزاء، لأنه يصحب فتياته إلى كل مكان ويهتم بهنّ، وزاد اللقب من إصرار أبي على أخذنا معه إلى البقالة ومحلات الخضروات، وخصوصًا في أيام الأعياد، لتختار كل بنتٍ منا نوع الشوكولاتة التي تفضّلها.

لم يبخل يوما بعطائه. وحين توفّي أخوه بمرض عضال، لم يكن ذلك مجرد اختبار لقوة العلاقة بينهما، بل كان تجسيدًا حيًا لمعنى الوفاء. تكفل بأطفاله دون تردد، واحتضنهم بحب لا يختلف عن حبّه لنا. كان من المدهش قدرته على التوفيق بيننا، فكان يشتري لنا جميعًا الفساتين والأحذية نفسها. زرع فينا حب المشاركة والإيثار، وكان كثيرًا ما يتظاهر بالنسيان ليرى من منا سيقسّم له الفاكهة والبسكويت. كنت أشعر بأن أبي رُزق بثلاث فتيات أيضاً.

كنا نحن وبنات عمي نخيط فساتين للدمى، نرقص ونبكي معًا. سألتُ نفسي: أترى هل نسين أباهن، وضَاعَ الأب»؟

كانت أسئلةٌ كثيرة تملأ عقلي الطفولي آنذاك. سألتُ إحداهن: «هل تشتاقين إلى والدك؟» هي من عمري، وأنا متأكدة بأنها لا تتذكر الكثير عن عمي، فقد توفي وهي في مرحلة الحضانة. أنا نفسي لا أتذكر ملامحه إلا من خلال صورةٍ تضعها جدتي في إطار كبير. لكنّ ابنة عمي فاجأتني، وفاضت عيناها بالدموع. تلك الدموع كانت أكبر إجابة. ولا أعلم لماذا أصررتُ على سماع الجواب. قالت: «أشتاق له عندما يأتي عمي بالفاكهة لنا ويضعها ثم يذهب».

كان والدي ينادينا ويعطي لكل واحدة منا الفاكهة التي تفضلها.

أشتاق له أكثر يوم تسليم الجائزة، قبل أن يتوفى وعدني بأنه سيذهب معي، لكنه مات قبل أن يذهب. أنهت الحديث قائلة: «لا أحد يحل محل الأب أبدًا، هو الوحيد الذي يعطيك كل شيء بحب وحنان»

لم أتمكن من فهم شعورها أبدًا، أذكر حينها بدقة أنني صدمت بالإجابة، فقد كنت أعتقد أنه لا ينقصهن شيءٌ من احتياجات الحياة. فنحن ندرس في المدرسة نفسها، ولدينا الكرّاسات المدرسية نفسها.

الآن وبعد كل تلك السنوات، فهمت ما الذي كان ينقصهن. قبلةُ قبل الذهاب إلى المدرسة، نزهةُ آخر الأسبوع، حضنٌ يتسع لهن عند المرض والخوف. وحده فاقد الشيء يشعر بذلك.

انتهى حديثنا وأنا أنظر إليها وأقول في داخلي: لا يمكن أن أفقده، فهو يحبنا ولا يمكنه الابتعاد أو الموت، فهو لا يزال شابّاً.

في اللحظة نفسها، تذكرت أنّ أخي توفي بعمر أربعة أيام، كان صغيراً جداً. وابنة عمي فقدت والدها وهو شابّ.

أسكتُّ جميع الأصوات وقلتُ في نفسي: لا يمكنه الابتعاد... لا يمكنه الابتعاد.

بدأت أحداث القصف تنتشر في أغلب المناطق، لكننا لم تبدأ بعد في قريتنا. ومع ذلك، لم نسلم من الأصوات والضغط النفسي. الجميع مجبرٌ على سماع الأخبار، ممنوع تغيير القناة، ولم يعد مسموحًا عرض أفلام الكرتون قبل النوم. ننام على صوت قناة الجزيرة.

لم أكن في ذلك الوادي نفسه، كل ما شغلني في تلك الفترة كان بدلة المدرسة الجديدة. طيلة العطلة الصيفية وأنا أنتظر أول يوم لي في المدرسة الإعدادية لأرتديها. ولم تكن بداية الفصل ورديّةً كما اعتقدت.

بعد يومين من بداية الدوام، اتصل والدي وأخبر أمي أنه سيأتي مع ضيوف، وعلينا تحضير بيتنا لهم، وننتقل نحن للإقامة في بيت جدي. بدأت أمي تضع لكل واحدة منا ثيابها في أكياس نايلون على عجل. لم يُسمح لنا إلا بذلك،

وطلب من أمي عدم إزالة أي شيء كي يشعروا بأنهم في منزلهم.

أخذنا حاجاتنا إلى بيت جدي. لم يكن هناك خزانة، فقط (يوك) صغير تستخدمه جدتي لوضع الأشياء التي لا تحتاجها. استاء الجميع من ذلك الوضع، لكننا خضعنا للأمر الواقع بكل حزن. جاء الشتاء ونحن في تلك الغرفة الصغيرة، ننام جميعًا بجانب بعضنا. كان والدي ينام دائماً بجانب الباب بسبب صغر الغرفة. كنا نخاف عند دخولنا لقضاء الحاجة ليلاً، فالحمام في بيت جدي بعيد. كان بيتًا عربيًا مليئًا بالقطط والحشرات، ليله موحش ومخيف. قضينا شتاءً قاسيًا، كان الماء يتساقط علينا يوميًا بسبب الأمطار والرطوبة. منذ تلك الأيام وأنا أكره فصل الشتاء.

انتهى الشتاء وعدنا إلى منزلنا، لكن ما تغيّر هو أنّ أبي لم يعد يعمل. أغلقت جميع الطرق المؤدية إلى مشغل الألبسة الخاص به. اعتدنا على مجيئه يوميًا عند غياب الشمس، أما الآن، فقد أصبحنا ننام وهو لا يزال خارج المنزل. لم يخبر أمي بطبيعة عمله الجديد، فكثيرًا ما نسمع شجارهما في منتصف الليل حول تأخره الدائم بلا عذر أو مبرر.

وتكرّر على مسامعنا قول أمي وهي تبكي: «كنت عند زوجتك الثانية». والأمر الصادم أن أبي يبقى صامتًا، لا يرد ولا يتكلم، وهذا ما زاد شكوك أمي أكثر فأكثر. وأخيراً، رضخ وباح لأمي بسرّ عمله الجديد، بأنه يساعد العساكر على الفرار من يد النظام، ويساعد كل من لا يريد أن تتلطخ يداه بدماء أبناء بلده.

امتلأ قلب أمي بالرعب والخوف، فقد كان أبي فعليًا يخاطر بحياته. هناك فرع أمني لا يبعد عن قريتنا سوى بضعة كيلومترات، لكنه أصرّ على ما كان يقوم به وقال: «هذا أقلّ ما يمكن تقديمه.» لم يمتلئ قلبها بالخوف عبثًا، فقد تحقق ما كانت تخشاه.

جارنا، الذي كان صديقًا مقربًا لأبي، كان يراقب تحركاته ويتتبعها. أخبر الفرع الأمني بما رآه. نصبوا له كمينًا، ولكن بفضل الله، تمكن من الفرار. ورغم أنّ أكثر من أربعين رصاصة اخترقتْ سيارته، لكنها لم تصبه بأي أذى.

كان القدر يخبئ لنا حكاية أخرى. تواصل عمي، الذي يعلم بتحركات والدي، مع أخيه الأصغر، جمعة، ليخرج من المنزل ويحضر أوراقاً مهمّةً كانت في السيارة، تحتوي على معلومات سرية. لم يكن يعلم أن العساكر ما زالوا هناك، فقد هدأت الأصوات وكان أبي قد فرّ وابتعد. اتصل بابن عمتي ليساعده في فتح السيارة بسرعة، ظنًا منه أنها مغلقة.

كان جدي ينتظرهما عند باب البيت. وعند اقترابهما من السيارة، حاصرتهما قوات الأمن من كل الجهات، قيدوهما ووضعوهما في صندوق السيارة. ذهب عمي الصغير أمام أنظار جدي، الذي لم يقدر على النطق بأي حرف.

وفي تلك الساعات وُلد ابن عمي الصغير، جمعة، إلى الحياة. أقول في نفسي: «إنه مشهد من أفلام هوليوود»، جاء جمعة إلى الحياة وفارق الآخر الحياة.

أوقفت السيارات الأمنية سيارة عمي وزوجته وجدتي عند دخولهما القرية لإجراء تفتيش. لم تعلم جدتي أن فلذة كبدها، الذي كانت ستزفه عريسًا في الشهر القادم، كان في تلك السيارة.

في الطرف الآخر من الأحداث، كنا أنا وإخوتي نياماً، حتى أيقظتنا أمي وهي تصرخ. لم نكن نعلم سبب رحيلنا إلى منزل عمتي في الطرف الآخر من القرية، كل ما كنا نرغب فيه هو إكمال نومنا. تلك الليلة غيّرت كل شيء، وأدركت أن ما ينضج الإنسان حقًا ليس طول سنوات العمر، بل المواقف.

لم أتقبل فكرة البيت من دون والدي. الآن، مَن سوف أنتظر مساءً ليأتي حاملًا إلينا نجوم السماء مع ابتسامته؟

كم قالتْ جدتي له: «توقف عن إفساد بناتك بكل هذا الدلال»، وكان يردّ بالإجابة ذاتها: «طالما حيّيت، سأعيش حتى أدلّلهن»، جملته التي لم تفارق قلبي.

صدقت ابنة عمي، لا أحد يحل محله. تألمت كثيراً، لم يكن سهلًا شرح ذلك الشعور. لا يزال على قيد الحياة، لكنّ طريقة رحيله مزّقتْ قلبي. لم أعلم لماذا رحل، لم أفهم حينها معنى ثورة شعب، أو المطالبة بالإصلاح والتغيير، ولماذا عند المطالبة بذلك يُحال الشخص إلى الأفرع الأمنية من دون تهمة منسوبة أو جريمة مرتكبة.

أصبح أبي كالسارق المتسلل في منزله؛ يأتي مساءً ليطمئن علينا ويرحل. لم يستمر ذلك بعد استشهاد عمي داخل المعتقل، مما جعل والدي يحمّل نفسه سبب موته وتعذيبه. نظرات الانكسار تملأ عينيه، لأول مرةٍ في حياتي أراه ينزوي ويبكي في غرفته، لم أتكلم. خيّم الوجع على الجميع، وعمّنا الأسى.

أشعل عمي الصغير نار الثورة داخل أبي أكثر وأكثر، وأصبح لديه ثأره الخاص. بهتت ملامحه البشوشة، تلك الملامح محفورةٌ داخل ذاكرتي كالحديد. فترة من الزمن وأنا أبحث عن أبي السابق، فهذا الذي هنا لا نراه ولا يتحدث معنا.

بعد مضيّ شهرٍ على وفاة عمي، انتشرت رائحة الموت والحزن. جدتي تضع صورته دائمًا بجانبها وتضمها، وجدي دائم العصبية وشارد. لم يكن وحده أبي الذي تغير، أصبحتْ طباع الجميع غريبة.

أتى ليلاً على استعجال، ودعنا وضمنا إلى صدره قبل خروجه. توقف عند الباب وقال: «سأعود في كل الأحوال». بدأت أمي بالبكاء ونحن لا نعلم لماذا. أتراه الوداع الأخير؟ اعتدنا بحكم عمله أن يذهب كل عام إلى إسطنبول، لم يكن الوداع نفسه. كانت غزارة دموع أمي تسطّر الكثير من الكلام.

حفظت كلماته جيدًا، يمكنني أن أعطي درساً عن إجرام النظام وأنا في عمر الحادية عشرة. لم أفهم حرفًا مما قلته، لكنني كنت على يقين بأن أبي لا يكذب. كل ذلك حصل.

يمرّ الوقتُ ولا أتقبل فكرة البيت من دون والدي. كنت أتناقش مع عماتي وبناتهن بكل حدة وجدية، ولم أتردد في صفع ابنة عمتي بكل قوتي عندما نعتت أبي بالكاذب. لم أعتذر حين طلبت أمي ذلك، ولم أندم على تصرفي لحظة. تبدلت حياتنا بشكل جذري، ولم نجد من يعوضنا حنان أبي، ولا عطف أمي، ولا دفء حضن جدتي. تعبتُ من تساؤلات أصدقائي التي لا تنتهي: «أين والدك؟ ولماذا رحل؟»، وأنا بدوري لم أكن أملك إجابة شافية. مضت شهور على رحيله دون أن يتواصل معنا، وبتنا نبكي كل ليلة بسبب بكاء أمي.

تلك الشهور كانت كافية لتُريَني حقًا ما قالته لي ابنة عمي: «لا شيء ولا أحد يمكنه أن يحلّ محل الأب». تكفل بنا عمي الذي كان يقيم في منزل جدي، وكان رمضان هذا العام مختلفاً. غاب أبي الذي عوّدنا في كل رمضان على شراء كل ما نشتهي من البقالة مكافأة لصيامنا.

مضى نصف رمضان، ولم يتذكر عمي هذا! كانت أمي تواسي قلوبنا قائلة: «لا تحزنوا، لقد كبرتم الآن». قبل رحيل أبي بأربعة أشهر، أنجبت أمي طفلة، وأصرّ أبي على تسميتها «شام»، حباً وعشقاً لأرض الشام. لطالما كنت أسأل أمي: «وشام أيضاً أصبحتْ كبيرة، فلماذا لا يأتي عمي لها بالحليب؟ لماذا لا يعاملها كطفلة؟»

لكن مع الأيام، اعتادتْ أمي أن تسكتها بالشاي بدلاً من الحليب.

وفي ليلةٍ من ليالي رمضان، ترك عمي طفلته مع أختي في بيت جدي. خرجت أختي لدقائق وأغلقت الباب الحديدي وراءها، وعندما عادت لم تستطع فتحه،

فقد كان قفله عالقًا. جاء عمي غاضبًا، فتح الباب بعصبية، وصفع أختي على وجهها صفعة قاسية، وانهال عليها بالشتائم الجارحة. ظل وجه أختي متوهجًا من شدة الضربة، واستمرت في البكاء حتى غلبها النوم.

منذ البداية، لم يكن لرأي أمي أي اعتبار، وكانت دائمًا تحزنني لأنها تعاني من فراق زوجها والابتعاد عن أهلها، وكان عمي يتحكم في جميع شؤون حياتنا. لم أحب يومًا طيبة قلبها المبالغ بها، حيث كانت تساير الجميع وتعفو عن المسيء. كنت أسمع عماتي ينعتنها بـ «الهبلة.. المسكينة»، ما يجعلني أغضب، فأقول لها: «لماذا لم تردّي عليهن؟»، فتكتفي بالقول: «كل واحد منا يعرف قيمة نفسه، وأنا لم أغلط بحقهن أبدًا، وهذا يكفي».

كنت أعتقد أنني أقوى، لكن مع مرور الوقت فهمت لماذا كانت تساير الجميع. كانت تقابل كل أنواع القسوة بابتسامة في النهار، وتملأ الدموع عينيها ليلاً. كان أملها بلقاء والدي هو ما يبقيها على قيد الحياة. تستيقظ منذ السادسة صباحًا وتذهب إلى بيت جدي لتقوم بأعمالهم المنزلية، بينما كانت تهمل منزلنا. نوبّخها أنا وأخوتي على إهمالها لنا، ونحن لا نعلم حينها أن طاقتها قد نفدت. ظل الحال على هذا النحو حتى أصبحت تنام بحجابها دون أن يكون لدينا ما يكفي من الوقت للاعتناء بها.

مرت الأيام، وأصبح لاسم أمي نصيب عجيب. كانت ترى في كل الأحداث أملاً. وبعد غياب طويل، عادت الحياة إلى قلب أمي عندما أخبرها أبي بأننا سنسافر إليه غداً ونبقى عنده. لم نكن نعلم حينها إلى أين نذهب، وحتى أمي لم تسأل ولم تكن مهتمة. قالت لنا: «غدًا صباحًا سنكون جاهزين».

رافقتنا جدتي في السفر لتطمئن على ولدها. استغرق الطريق ساعات طويلة، وأظن أنَ ما أطالها أكثر كان حديث السائق وتخويفه لنا بأننا ذاهبون إلى منطقة خطيرة وأن علينا أن نكون على أهبة الاستعداد. لكنني استسلمت للنوم ولم

أعطِ الأمر اهتمامًا.

استيقظنا على تفتيش، فتحوا جميع الحقائب وأغرقونا بالأسئلة، وجدتي تجيب عليها، لكنهم تعمدوا توجيه الأسئلة إلينا أيضًا. بقينا صامتين. كانت الرحلة طويلة، وخلالها لم نكف أنا وأخوتي عن التعبير عن إعجابنا بجمال البساتين التي نراها، ونقول لأمي: «انظري إلى جمال الطبيعة، وأشجار التفاح، والكرز، ودوار الشمس الجميل»، لكنها كانت في عالمها الخاص. ربما كانت طوال الطريق تتخيل ملامح أبي. أخيراً، وصلنا.

فتح أبي لنا الباب، لم أتخيل أن ملامحه قد بهتت إلى هذا الحد. لم يعد في عينيه أي نوع من الفرح. أخذنا جميعًا إلى حضنه، وظلّ يطمئن جدتي أنه في أفضل حال. ودّعها ودموعها تملأ وجهها، وظلت تردد: «يا ريتك ظليت جنبنا».

وعلى الفور ذهب، ولم يعد حتى المساء، وقد جلب معه العشاء. لأول مرة، بعد مرور سنة، نمنا بعمق، رغم غياب غرفةٍ لنا وحدنا وكل ما يحتاجه منزلنا. إلا أن وجود أبي كان يعادل كل المنازل ويمنحنا السكينة والهدوء. كان المكان أشبه بجنةٍ على الأرض، تزيّنها الأشجار بجمالها، وسمح لنا أصحاب الأرض بقطاف ما نشاء من الثمار، ونلعب يومياً في الخارج حتى غروب الشمس. كان هذا بمثابة عيد خاص لي ولإخوتي، إلا أن صوت الطائرات وأصوات القذائف كانت تنغّص علينا تلك اللحظات.

بدأنا نلاحظ على أبي الكثير من التغيرات. يرافقه السلاح وجهاز اللاسلكي دائماً، يذهب فجأةً ويعود بعد منتصف الليل. ننام ونستيقظ على أصوات مرعبة. كنا بجانب أمي ولا نكترث للجانب المظلم، ثيابه ملطخةٌ بالدماء وعيناه ذابلتان. سألته أختي: «من أين جاء كل هذا الدم»؟ سكتَ قليلاً ثم جلس وسرد لنا مهماته منذ لحظة قدومه إلى هنا وحتى الآن، وظل يتنهد عند ذكر رفاقه الذين وافتهم المنية. كان يشعر بالتقصير تجاهنا، ولم نكن نرى أحدًا سوى جارتنا

العجوز التي تسكن بجوارنا، هي وزوجها، وكانا وحيدين مثلنا في تلك المنطقة.

خصّص لنا ساعات لنخرج فيها إلى الأسواق، وأصبحت نساء رفاقه معارف لنا. قضينا خمسة أشهر سويًا، ولكن فرحتنا لم تكتمل. بدأت الطائرات تستهدف جميع المنازل المجاورة، ولم نتمكن من متابعة دراستنا بسبب بُعد المدرسة وخطورة المنطقة. رضخنا لرغبة والدي وعدنا إلى منزلنا.

لا أعلم لماذا لم نفهم، أنا وإخوتي، معنى الوداع أو نحزن. فقد ودعْنا أبي بابتسامتنا وضحكنا، واستغرب أبي وغصّ قلبه وسألنا: «هل أنتم فرحون بالعودة؟». أجبنا بالنفي، لكن ابتساماتنا كانت ما زالت حاضرة. فهمت الآن أنّ نظرة الطفل لأي مشهد مؤلم وحزين، تختلف عن الكبار. أما أمي فلم تجف دموعها منذ البارحة.

...

مرّت عدة أعوام... ها أنا أطفئ شمعة ميلادي الثامنة عشرة وأتحدث مع أمي عبر شاشة الهاتف المحمول. كان للقدر دائمًا رأي آخر، فأنا أرى في الشاشة عينيّ والدي الذابلتين، وداخلها حزن أمي الذي لا أطيق تحمله. لم يتذكر يوم ميلادي، تمامًا كما في السنوات التي تراكمت علينا، ونحن نبني فجوةً بيننا أعمق من المسافات التي تفصلنا.

كنا نذهب أحياناً لزيارة أهل أمي، لكن الجميع هناك غريب الأطوار؛ لا يمكنك الاقتراب من أحد بقدر ما يكفي للشعور بالأمان.

تفصلني عن امتحانات الثانوية العامة أيام قليلة، وأرى الجميع من حولي ينتظرون سقوطي في هذا الاختبار، ويزداد إصراري على النجاح؛ فهناك لحظات في الحياة، ولشدة حساسيتها، لا يُسمح فيها بالفشل.

بقيتْ أمي شهراً وحيدة، لا يمكننا الاقتراب منها أو ضمها. لا أعلم كيف مضى ذلك الشهر، ووجدت صعوبة في تولي جميع الأدوار؛ كنت أمّاً صغيرة وأختًا للبقية. لم أتخيل أن هذا الشهر سيتكرر لسنوات.

بعد علاج أمي بسنتين، قرر أبي رؤية إخوتي الصغار؛ فعبد الرحمن ينادي جميع أعمامه بـ «أبي»، وأختي شام لم تعد تتذكره. لم نقبل الذهاب معها بسبب الدوام المدرسي. حزمنا لها الحقائب، وجميعنا نبكي. وعدتنا بأنها زيارة قصيرة لا تتعدى الشهرين وستعود. في ليلة رحيلها، كان الجو باردًا والظلام شديدًا؛ لم ننم حينها، وبقينا نحن الثلاثة وحدنا. لا نعلم ما القادم أو كيف سيمضي الوقت. منذ تلك اللحظة، كان علَيّ أن أكون أمّاً مرة أخرى.

في البداية، لم أنجح في ذلك؛ لم أتفهم أختي الصغيرة، ونمتْ بيننا فجوةٌ كبيرة. كنت أراها طفلة وأعتقد أن كل ما أقوله هو الصواب وعليها الاستماع وتنفيذه، بعكس علاقتي بأختي التي تصغرني بعامين. مضت فترة المراهقة وأمي بعيدة، ولم تكن فترة سهلة. اتخذتُ من عمتي وأختي ملجأ لأسراري، أخبرها بما نعانيه من ظلم عمي وعصبيته المفرطة. كانت أمي دائمًا تحذرني من الاقتراب منها وتقول لي: «هي بوجهين». لم ألتفت إلى كلامها، بل على العكس، كنت أدافع عنها بشدة.

لم أتخيل أن إحساس الأمهات يكون بهذا الصدق، عمّتي هي من أفسدت علاقتنا مع عمي الذي يسكن معنا، وأصبح حقده على بعضنا يتراكم داخل قلبه. اكتشفتُ ذلك متأخرًا. حاولتُ بأقصى جهدي إبعاد أخواتي عن كل ما يؤذيهن. كان لبُعد أمي الفضل في نضجي؛ فقد أصبحت علاقتي بأخواتي أمتن، على عكس علاقتنا بوالدي. أمي هي من تذكّره بأن يتحدث معنا، بينما وضع عمي حواجز بيننا وبينه، فحينها لم نتمكن من التحدث مع والدنا إلا من خلاله. وعندما يتحدث إلينا، لا تكون كلماته سوى توبيخ وإنذارات ونصح لا أكثر. نبدأ

أضفت لهذا اليوم شيئًا لطيفًا؛ لقد أهديت نفسي قطة، لطالما تمنيت أن يزين هذا الكائن اللطيف بيتنا. جلست طيلة الليل أتحدث إليها عن السنين التي فاتت. ومنذ لحظة دخولها، شعرتُ أنّ جزءاً في داخل روحي قد انجبر. تحدثت إليها عن والدي الذي لم يَف بوعده ولم يعُد، بل تغيّر إلى درجة لم أعد أستوعبها؛ فهو دائم العصبية عندما يتحدث معنا. أما عمي، فالحياة معه مأساة؛ لم نشعر يومًا أننا كأبنائه، بل نشعر دائماً بأنه يكرهنا، ويتأكّد هذا الشعور في قلبنا بفضل عمتي، فهي قريبة منه جدًا.

كان فراق أمي موجعاً. لو كانت أمي هنا لأحبتكِ أيتها القطة!

كل تلك السنين، وأمي تحاول نسج الفرح لنا وتنسى نفسها، وتضمد آلامنا في لياليا الطويلة. قبل سفرها بوقتٍ قصير، خانتها صحتها؛ كانت تبتلع بدموعها المصائب والحزن أكثر من الطعام. كانت تردد: «وجع الحلق بسيط»، عانتْ لشهر وأكثر، وعمي لم يُساعدها.

لم يساعدها شرب الأعشاب والمسكنات. ومن شدّة ألمها، جافاها النوم لأيام. راحت إلى للطبيب، وكان ما لم يكن بالحسبان؛ لديها سرطان الغدة الدرقية في مراحل متقدمة، وعليها إجراء عملية جراحية لاستئصال الورم. كان الفضل لله، ثم لأخيها الذي رافقها خطوة بخطوة، وأشار علينا ألا نخبرها لكي يطمئن قلبها وتصل لمرحلة الشفاء. تمت العملية بسلام، وبدأت أمي في العلاج الكيميائي للتأكد من أن جميع الخلايا المصابة قد تلفت.

لم تجف دموعي أنا وأخوتي للحظة؛ شعرنا أننا نخسر الحياة، فلم يبقَ لنا إلا هي، ولا يمكننا أن نفقدها أيضًا. كانت تقول لنا: «أنا أقوى من المرض»، لكنها لم تكفَ عن توصيتي بأخي الصغير الذي أبصر النور منذ أشهر. لم يرَ والدي إلا مرة واحدة عندما ذهبت أمي لزيارته، ولم يعد بإمكانها الذهاب. أما أبي، فقد هُجّر إلى مكان بعيد.

وننهي يومنا بابتلاع غصات الحياة، ولم نتخيل أبدًا أن الحياة ستكون هكذا.

بعد عدة أشهر، أخبرنا عمي بأن أمي قادمة. رتبنا المنزل وتجهزنا لاستقبالها؛ دموع الفرح لم تفارقنا. أختي الصغيرة جلست لترتب الرسائل التي كتبتها في غيابها وترسم لها القلوب. لكن لم تمضِ ساعات حتى أخبرنا أنها لم تتمكن من العبور. امتلأت تلك الرسائل بالدموع، ولم تتوقف أختي عن البكاء، وقالت: «هي وعدتنا بأنها ستعود». لم تعد الشمس الساطعة تنير ذلك اليوم، وملأ الظلام أركان قلوبنا.

مع طلوع الشمس، غلبني النعاس بينما كنت أروي لقطتي كل ما يختلج في صدري. فهي مستمعة وفية، تنصت إليّ بصمت تام، تحفظ أسراري بعيدًا عن أعين الآخرين، ولا تملك القدرة على إفشاء ما همستُ به إليها.

جاء يوم الامتحان، وكأنما أطبقت عليّ مخاوفه، أخشى الفشل الذي يلوح في الأفق ككابوس يهدد أحلامي. لم يكن لي من سندٍ سوى الله، وأخوتي الذين يحيطون بي بحبهم واهتمامهم. أما أمي، فكانت بعيدة، تصلني كلماتها كنسيم رقيق، وكم تمنيّت لو كانت بجانبي في تلك اللحظة.

مضى الامتحان بأفضل مما كنت أتوقع، ولكن رهبة انتظار النتائج ظلت تؤرقني كظلٍ لا يفارقني.

قررنا بعد ذلك زيارة بيت جدي لنستعيد بعضًا من أنفاسنا بعد ضغط الامتحانات، فقد كانت هذه السنة تحمل لي ولأختي الصغيرة اختبارات مفصلية. لم تمضِ إلا أيام قليلة حتى ظهرت النتيجة، وكانت دموع الفرح تتساقط لأول مرة منذ سنوات. شعرت حينها أن طريقي قد بدأ يرتسم أمامي. توالت التهاني من الجميع، لكن التهنئة التي كنت أترقبها بشغف كانت مكالمة من والدي، والتي أردتها أن تكون مختلفة. لكن، كما في كل مرة، خذلتني أمنيتي.

كانت زيارتنا لبيت جدي تحمل طابعًا مغايرًا لما كنا نرجوه. فقد جلبت لنا همومًا وأذى نفسيًا. بدا لي أن العالم من حولنا لا يشبهنا، والجميع يعاملنا كأننا أدنى منهم، ولا أعلم لماذا. هنا، تسيطر المادة على النفوس، ويغيب الإحساس. ومع ذلك، كانت جدتي تتمسك بنا، هي مريضة لا تقوى على الحركة بسبب عملية في قدمها، مما جعلنا نتعاطف معها على حساب صحتنا النفسية.

مرت ثلاثة أشهر شعرت خلالها أنني لم أعد أستطيع الحراك، وأصبت بوعكة صحيّةٍ غامضة. كل ما أردته كان العودة إلى منزلي. اتصلت بعمي وطلبت منه أن يأتي ليأخذنا إلى المنزل، فقد مضت ثلاثة أيام لم أتناول خلالها شيئًا، ولم أكن أستطيع الحركة. اصطحبني عمي إلى الطبيب، وأخبرني بأن ما أعانيه هو تعفن معوي، ولم يعرف له سببًا، فكتب لي الدواء.

علمتني الحياة كيف أتكيف مع فصولها وتقلباتها، وهذا ما جعلني أحتمل آلامي بصمت، وأدرك أن المعاناة جزء من المسيرة، ولا بد لي أن أواصل السير. بدأت مرحلة جديدة في حياتي، وكانت البداية صعبة وثقيلة على قلبي. علّني أخوضها وحدي. شعرت ببهتان الفرح الذي كان يملؤني في طفولتي، حيث كنت أبحث عن سندي الوحيد.

تحت ضغوط من القريب والبعيد، كان كل واحد يرسم لي طريقًا ويرغب في أن أكمل دراستي على هواه، لكنني أخيرًا غلبتهم، واخترت طريقي الذي تاقت روحي لتحقيقه، وهو حلم طفولتي الذي ظل معلقًا بين السماء والأرض. أدركت أن الأحلام قابلة للتحقق مهما طال الزمن. لأول مرة، شعرت بنشوة الانتصار، وأني قد عبرت حاجزًا كبيرًا في حياتي.

بداية جديدة، مرحلة لم أعتدها قط. كان الحماس يسابق ساعات الليل، ويسرق مني النوم، شعرت وكأن قمر السماء يهمس لي ويشاركني فرحتي،

وكأن بهاءه أقرب عند فرحي. لم أشعر بهذا البهاء منذ سنوات طويلة. حتى إذا جاء صباح اليوم الأول، ارتسمت في عيني خطوط أحلامي بوضوح.

واجهت صعوبات جمّة في سنتي الجامعية الأولى؛ إذ توجب عليّ الموازنة بين أعباء المنزل، والدراسة، والعناية بتحصيل إخوتي. أختي أريج على أعتاب المرحلة الأخيرة من الثانوية، ولم أرد لها أن تذوق طعم العناء الذي ذقته، وأن تبحر في دراستها بعينين أثقلتهما دموع الألم.

قطعت على نفسي عهدًا أن أكون السند لها في هذه المرحلة. تحدثت مع أبي، وأخبرته بالمواد التي تحتاج فيها إلى دروس خاصة، وأصررتُ على أن نوفر لها كل ما يلزم. بدأنا في جمع المبالغ المطلوبة للدروس، ورافقتُها في انتظار اللحظات الحاسمة. فكانت سعادتي غامرة عندما أحرزَت المرتبة الأولى في مستوى قريتنا؛ لم يذهب جهدنا سدى. في تلك اللحظة، نظر إليّ أبي بإحساس مختلف، كأنه قد أدرك أخيرًا أنني أصبحتُ ناضجة.

أقبلت السنة الأكاديمية الثانية، ولم أذهب للجامعة إلا مرتين. خانتني صحتي فجأة، وكأن جسدي الذي طالما وثقت به قد تبدّل، وبدأ يخذلني يومًا بعد يوم. استيقظت على ألم غامض لم أستطع تفسيره، وكأن المرض الذي اجتاحني يحمل سرًا لا يريد أن ينكشف. تجولت بين العيادات، أبحث عن جواب يريح قلبي، بين الأطباء والأدوية، ولكن بلا جدوى.

تدهورت صحتي شيئًا فشيئًا، ورحت أغرق في معاناة لم أكن مستعدة لها، ملؤها قلق لا ينتهي. كان المرض يسلبني قواي ببطء، ويضعف روحي كلما مرّ يوم جديد. لا يخلو جزء من جسدي من ألمٍ ينهشني بصمت، لا يترك لي أيّة راحة. كنت أتساءل كل يوم: هل هناك نهاية لهذا العذاب؟ هل سأجد مخرجًا من هذا النفق الطويل الذي يغلق أبوابه أمامي؟ أصبحت زياراتي للأطباء روتينًا مرّاً، أحاول أن أجد مخرجًا، كغريق يبحث عن قشة تنقذه من أعماق القاع.

لكن، في كل مرة كانت التشخيصات غير واضحة، وكان الألم يتلاشى مثل السراب الذي يختفي كلما اقتربت منه. حاولت التماسك، لكن العناء كان أكبر من قدرتي على الاحتمال. وكلما شعرت بتحسن بسيط، كانت الأيام تأتي بانتكاسٍ جديد، تعيدني إلى نقطة البداية وكأنني أدور في دائرة مغلقة بلا نهاية.

كنت محاصرة بين الصبر واليأس، في محاولة للتمسك بتلك القوة الداخلية التي لم أعرف بوجودها إلا حينما بدأت أشعر بها تتداعى. وكأنني أسير على خيط رفيع فوق هاوية، وبين شهيق وآخر أتمسك بالأمل رغم كل شيء. في تلك الأيام العصيبة، لم يكن بجانبي إلا أخواتي، اللواتي كرّسن حياتهن لرعايتي. كنت أرى في عيونهن القلق والحب في كل لحظة، لكن رغم ذلك كله، شعرت وكأنني أعيش في عالم منفصل عن الجميع. أصبحت دراستي جزءًا من الماضي، أهملتها ولم أعد أستطيع التركيز على شيء سوى الألم الذي كان يلاحقني.

جسدي، الذي كان يومًا ينبض بالحياة والنشاط، بدأ يهزل ويذبل. قوتي تتسرب مني ببطء، كما لو أنني أراقبها تتلاشى من بين يدي. أما نفسيتي، فكانت في أسوأ حالاتها؛ الأمل الذي كان يراودني بدأ يتناثر مثل رمال البحر في الرياح. كل يوم كان يحمل لي مشاعر من الحزن والضياع، وكأنني فقدت بوصلتي في هذا العالم.

وأصبحت الأيام تمضي بلا فائدة. لا شيء ينفع، ولا شيء يخلصني من الألم. لم يعد هناك شيء يشدني للاستمرار. ومع ذلك، حاولت أن أتحدث مع الآخرين، لكن كلما حاولت التحدث، شعرت وكأنني أزيد من معاناتهم، فترددت في كلامي. كنت أشعر وكأنني أغرق في قلق لا ينتهي، وأرى في عيون أخواتي حزناً يعجز اللسان عن وصفه.

صوت أبي كان يحمل نبرة من الحزن والقلق، كما لو أنه يحمل همومًا لا تُقال. ومع كل كلمة يقولها، كنت أشعر بالدعاء الصامت في حديثه، وكأنه يكتم

أوجاعـه في قلبـه لكي لا يزيد مـن حمله عليّ.

وفي لحظة، بدأت الهمسات التي كانت تملأ حياتي تختفي، لتحل محلها كلمات قليلـة تحمـل حبًا واهتمامًـا صادقًا. أصبح هذا الاهتمـام هو ما يـملأ المكان، وكل مـرة أتحـدث فيهـا، كان الحديـث يلامـس روحي ويزرع فـي قلبي الأمل من جديـد، وكأنني لسْـت وحدي في معركتي، حتـى وإن كانت ملامحي متعبة.

وفـي لحظـة صدفـة، ذكرت عمتي اسـم الطبيب الذي اكتشـف المـرض الخبيث فـي أمعـاء جدتـي، وتمكن من اسـتئصاله وهي حامل. تحدثت عـن مدى إتقانه لعمله، وشـعرت وكأن خيطًا من الأمل يتسـلل إلى قلبي. جمعتُ شـتات نفسـي وتوجهت إليه، وما إن دخلت عيادته حتى التفت إلي وقال بثقة وحنكة: «أستطيع معرفة تشخيصك من اصفرار عينيك، ومن انتفاخ قدميك، بل وحتى من العرجة الخفيفة التي ترافقك بسـبب الانتفاخ»

رغم أنني لم أكن قد اقتربت منه بعد، شعرت بالطمأنينة. كانت العيادة واسعة، تكتسـي بالـجلال، كمـا كان هـو طبيبًـا في عقـده الثامـن، ممتلئاً بخبرة السـنين وكفاءات لا تُحصى. شعرت في تلك اللحظة أن هذه قد تكون بداية رحلة العلاج، وأنني قد أتمكن من اسـتعادة ما تبقى من صحتي.

في ذلك اليوم، أرهقني الطبيب بطلبات التحاليل والصور، وكأن جسدي الهزيل لـم يكـن كافيًـا ليـرى مـدى الألـم؛ وزني بالـكاد بلغ خمسـة وثلاثيـن كيلـو غراماً، ولا طاقـة لـي حتـى علـى الحـراك. تأملـتُ وجهـه وهـو يقول لـي بهدوء مشـوب بحدة: «ليس المرض ما يهم، بل سببه النفسي. هذه الأمراض تنمو عندما يبدأ الإنسـان بأكل نفسـه من الداخل»

كلماته اخترقتني كسهمٍ يلامس جروحًا أعرفها، فانهارت دموعي. كنت أعلم أنه علـى حـق، لكـن كيف للحـق أن يكون رحيمـاً؟ الألم والحزن أصبحـا رفيقي دربي،

وجعلاني أسـير بين طرقات نفسي المتعبة.

أتممـتُ التحاليـل وعـدت بهـا، فأخـذ ينظـر إليهـا بدهشـة، وعينـاه تخبراننـي أن هنـاك كارثـة تختبئ في جسـدي. تسـاقطت كلماتـه عليّ كحجارة: «هـذه نتيجة تحاليـل إنسـان متوفـى مـن شـدة الالتهـاب. ارحمي نفسـك، لا أحد يسـتحق كل هـذا العذاب.»

طلـب الحديـث مـع أمي، فأخبرتـه عمتي أنها أمي. لحظتها، شـعرت وكأن شـيئًا في داخلي انكسـر بلا رجعة، وكأن العالم بأسـره بات مجرد شـظايا. تحدث معها عـن ضـرورة العلاج النفسـي، وطلب خزعة وتنظيرًا مسـتعجلًا. تذكـرت كل الآلام التـي خلفتهـا تلـك الإجـراءات في جسـدي الضعيـف سـابقًا، وكيف أننـي خرجت منهـا أكثـر إرهاقًا وبكاءً. لم يعد في روحي ما يحتمل المزيد. لكن أمي وإخوتي أصـروا، وكأن أملهـم في شـفائي كان أقوى مـن ضعفي ذاته.

وهـا أنـا، وسـط كل هـذا الثقـل، أتمسـك ببصيـص ضئيـل من نـور عائلتـي. بدأت رحلتي مع العلاج بالمراجعات الروتينية، حاملة معي صبري ومواساتي لنفسي، وملتزمـة بالأدويـة كأننـي أخيـط آمالاً من خيـوط الألم. لكنني أدركـت أن لا دواء سيسـكن آلامي ما لم ألتفت لصحة نفسـي، فما أصعب الحياة حين تكون وسط مجتمع لا يرحم الضعيف ولا يرفق بالوحيد، وبالأخص إن كنت فتاة، محاطة بمن يسـعى لتقييدها بسلاسل تناسـبه، وخلق حواجز من الفراغ لأحلامها.

أعـدتُ إجـراء التحاليـل، وكانـت النتيجة: الالتهاب مـا زال عالقًا كألم مسـتتر، لم ينخفـض إلا قلـيلًا، وكأن الشـفاء يختبـئ فـي نهايـة طريـق طويـل وشـاق. قال لي الطبيـب: «الصبـر، الالتزام، والابتعـاد عن التوتر والحزن... هـذه مفاتيح العلاج.» خرجت من العيادة وأنا بين ضحك وبكاء، كمن يرقص على حافة الجنون؛ لا أريد أن أثقـل قلـب أمـي بالحـزن، فأخبرتها ببسـمة زائفـة أنني بدأت أتحسـن، ورأيت فرحتها تضيء وجهها الباسـم، وكأنها نسـمة عابرة وسـط صحراء آلامي.

رأتني أمي أصح وأجمل، لم تعد عيناها تلتقط شحوب وجهي كما كانت تفعل سابقًا، ربما ما لم أره أنا من خلال تلك المكالمة؛ لا أعلم ماذا رأت في نفسي. يكفيني أنها لم تعد تسهر تبكي بصمت على حالي، فيكفيها ما حملت من هم النهارات والليالي.

ومرت الشهور، إلى أن بدأ عمي يتململ من تكاليف علاجي الباهظة، وكلما أحضر لي علبة الدواء، بقيت على لسانه همسات عن ثقل سعرها. وأحيانًا كان ينسى أو يتناسى، وكأن في صمته رسالة بأن الصبر بدأ يتلاشى. أصبحت عبئًا ثقيلاً على قلبه، يحاول الهروب منه بأي ثمن، فأخذ يختلق المشاكل من لا شيء، ويرتفع صوته على إخوتي دون سبب يُذكر. وعندما تحدث مع والدي قائلاً: «لقد خرجنا عن السيطرة، ولم تعد لدي القدرة على رعايتهم»، شعرت وكأنما كل الأبواب قد أغلقت في وجهي دفعة واحدة، وكأن السماء قد أطبقت على الأرض.

أما عمتي، تلك التي كانت تعرف كل خفايا معاناتي، والتي كانت دائمًا ملاذًا لي، فقد صارت فجأة غريبة في تصرفاتها، وكأنها تخفي شيئًا وراء صمتها. كنت أراها تأتي إلى بيت عمي يومًا بعد يوم، دون أن تسأل عنا، أو حتى تطمئن على صحتي. في تلك اللحظة، ظننت أن كل الأمل قد تبخر، وكأنني تائهة في مفترق طرق، لا أرى أمامي سوى الظلام. لكن، كما هو دائماً، يغلق الله بابًا ليكشف لك عشرات الأبواب. وفي لحظة عابرة، في صباحٍ عادي، وقفت أمام صيدلية الحي، فوجدت نفسي أمام امرأة عمي الكبرى. ابتسمت لها، وتبادلنا كلمات التحية، رغم أنها لا تأتي إلا في المناسبات الرسمية. ولكن تلك المرة كان حديثها مختلفًا. تساءلت عن صحتي، عن التغييرات التي طرأت علي، كأنها تراقبني بصمت منذ فترة. وبعد أن أخبرتها بكل شيء، نظرت إلي بعينين غارقتين في الحزن، وأمسكت يدي برفق، وأكدت لي أنني لست وحيدة.

في صباح اليوم التالي، استيقظت على رنين هاتفي، وإذا بها تطلب مني أن أستعد للذهاب إلى الطبيب على الفور. مقاومتي لم تفلح أمام إصرارها، فذهبت معها. وعندما أمسكت يدي، قالت لي بصوت حنون: «لم أرزق إلا بفتاة واحدة، وهي من ذوي الاحتياجات الخاصة، ولكنني لطالما تمنيت أن يكون لي فتيات. من اليوم فصاعدًا، أنتن بناتي. أعدك، قبل أن نصل للطبيب، ستكونين أفضل مما كنت. هذا وعدي، وهذا رهاني»

رغم مقاومة عمي وعماتي، لم تترك يدها يدي. كانت تدافع عني بشجاعة، وتضع آمالًا في قلبي لا يحدها شك. وبعد عام من العناية والاهتمام، جاء الخبر الذي لم أتوقعه: «لقد تحقق الإنجاز». أصبح الأطباء يتحدثون عن تحسن مذهل، لم تتركني يومًا، كانت اليد التي تربت على قلبي، تمسح عني هموم الحياة، وتخفف عني آلام الطريق. وكان ابنها الأصغر، ذلك السند الهادئ، هو دعمها المعنوي والمادي، الذي لم يتوقف لحظة عن توفير كل شيء لي. لم يعد لدي سوى كلمات من الشكر والامتنان لتلك اليد التي صنعت المعجزات، التي كانت سر قوتي وسط أوقات ضعفي. وكان حظها أن تكسب فيّ شرف المساندة بعد سنوات من المعاناة، وكان حظي أن أجد من يعيد إليّ الحياة بعدما كدت أضيع في زحمة الأيام.

حاول أبي مرارًا جمعنا بأمي، لكن في كل مرة يجد أن الطريق ما زال محفوفًا بالخطر. مرت سنوات، خمسة بعيدة عن أمي، وعشرة متواصلة عن أبي، وها نحن نكمل دراستنا معًا، نواسي وحدتنا بوحدتنا.

بينما كنت أقدم امتحاناتي الفصلية، تواصل معي أبي يطلب صور هوياتنا الشخصية. تجاهلت الطلب في البداية، فكل ذرة في داخلي كانت تنفر من فكرة الذهاب. الأيام التي احتجته فيها بجانبي كان غائبًا، ومر العمر ونحن نواجه الحياة وحدنا، نبتلع ليالي البكاء بلا سند أو معين. أخبرت أمي بعدم رغبتنا

بالمجيء، أنا وأختي، بينما نقف على أبواب التخرج. أختي الصغرى في آخر مراحل الثانوية. أيمكن أن تصل بهم الأنانية إلى هذا الحد؟! باتت المحادثات مع أبي حوارات بلا نهاية، وكل نقاش ينتهي بمشكلة جديدة، حتى أرسلت له الصور التي طلبها بعد أن علمتُ بتدهور صحة أمي.

مرت أيام قليلة بعد امتحاناتي، وفجأة، أرسل رقم مجهول إلى أختي رسالة بموافقات الدخول إلى تلك المنطقة التي تفصلنا. أخبرتها بألا تخبر أحدًا، وطلبت منها تجاهل الموضوع نهائيًا. لكن أمي أصبحت لا تتحدث معنا إلا ودموعها تسبق كلماتها، تمسك بالحسرة وتبثها في كل حديث.

طلبنا نصيحة امرأة عمي، فقالت كلمات تخللت القلوب وأوجعتها: «الجلوس بجانب الأهل فارق لا يعوض، حتى وإن كنتِ أكبر رائدة أعمال، أو أكثر الناس نجاحاً» جلست تحدثنا عن محاسن أبي، وكيف أن المسافات الطويلة هي من صنعت الفجوة، وأكدت أنه سيتغير بعودتنا.

استسلمنا للقدر، وتركنا أحلامنا معلقة، حارقة، فالحياة لم تنصفنا يومًا، وكأنه قدر محتوم علينا أن نختار، ونضحي بأنفسنا في كل طريق، بالمعاناة، وكل خطوة تختبر عزيمتنا. وبعد ثلاثة أيام، وصلنا عصر الخميس. لم يكن أبي الذي عرفناه؛ تجاعيد وشيبٌ يغطّي ملامحه، وعيناه لم تعودا كما كانتا، نظرات الحنان غدت أشبه بظلال باهتة. امتزج في قلوبنا الاستغراب بالفرح، فواصلنا المسير لنلتقي بأمي.

وحين وصلنا، تهاوت أمي لا تقوى على الوقوف، احتضنتنا بشوق متفجر، وانهارت على الأرض تسجد شكرًا لله، ودموعها لم تتوقف، تضمنا واحدةً تلو الأخرى، تقبلنا وكأنها تحفظ ملامحنا عن ظهر قلب، وكأننا كنا حلمًا عادت إليه الحياة بعد طول غياب.

مضت أول فترة وكل شيء كان غريبًا، كان هناك فرد في العائلة صغير لم نره إلا من وراء الشاشة، وأبي لم يتفهم أننا كبرنا، فهو الوحيد الذي شعر بتغير واغتراب، ولم يتقبل حضورنا كما كنا نأمل. لم نفهم لماذا يُظهر لنا عكس ما يشعر به، محاولًا إقناعنا بأنه سعيد بوجودنا، لكن ملامحه لم تعد تلك التي اعتدنا عليها. أمي همست لنا بأن الحرب والبعد قد غيّراه كليًا، وكأن الزمان قد ترك بصماته على روحه، ولسنا السبب. هو مع الجميع كذلك، كئيب وحزين.

ورغم ذلك، شعر الجميع أن البيت امتلأ بالحب والفرح، وكأننا نحاول أن نستعيد تلك اللحظات الدافئة التي جمعتنا يومًا. لم تكن المشكلة منه فقط، نحن لم نسمح له بالاقتراب منا أو الاتفاق على فكرة واحدة. جميع نقاشاتنا تنتهي دون جدوى من الطرفين. بعد مضي ستة أشهر، اعتدنا على بعضنا وتفهمنا وجهات نظرنا بسبب مبادرات أختي التي لا تنتهي، ومحاولاتها من الاقتراب من أفكار والدي، وجعلته يقضي وقتًا أطول معنا. جعلت أمي وأختي الجميع يتغير، شعرنا أخيرًا بأننا عائلة. نسهر معًا، نتذكر أيامنا الماضية، نضحك، وكل شيء في الحياة لا يعادل سهرة عائلية كاملة، لا شهادة الحقوق ولا أي شهادة في العالم تساوي دفء حضن أمي.

بدأ جميع من يأتي إلينا يفتح موضوع الزواج، ويحدثني عن هذا وذاك، كأنما باتت حياتي محور أحاديثهم، وأنا من داخلي أرفض الفكرة بشدة. لا أريد أن أعيش ذات المعاناة التي مرت بها أمي، ولا أن أذرف دموعًا خفية تسقي وسادتي كل ليلة. أخوتي يغمرونني بحبهم، يمنحونني دفئًا لا أريد أن أفقده، ولا أريد الابتعاد عن أمي مرة أخرى، فهي ملاذي وسندي.

قلبي ممتلئ ببغضٍ عميق للرجال، ربما هي ظلال الماضي التي ألقتها علاقتي المضطربة مع والدي في بداياتها، رغم أن الأمور قد تصافت بيننا الآن. حتى هو، بعد أن عادت المياه إلى مجاريها بيننا، لم يتوان عن فتح هذا الموضوع.

واجهته برفض قاطع، أخبرته أنني لن أسير في طريق لا أؤمن به. لكنه، وعلى الرغم من إصراره على أن الزواج سنة الحياة، طمأنني بأنه لن يجبرني على شيء.

في ليلة من ليالي الشتاء التي حملت في برودتها شيئًا من الوحدة والصمت، أخبرتنا أمي بحديث بدا عابرًا: صديقة قديمة لها، تقطن في مكان بعيد، ستزورنا غدًا لتشتري ملابس لأطفالها، وستبيت عندنا بسبب بعد المسافة. مرت كلماتها كنسمة خفيفة، لم تُثر لدينا اهتمامًا يُذكر، وكأنها جزء من أحاديث الأيام العادية.

عدنا من المعهد مساءً، منهكين من تعب الدراسة. وجدناها عندنا، ألقينا السلام وجلست معنا حول المائدة. خلال الغداء، قلت لأمي بصوت هادئ إننا غدًا لن نعود إلى المنزل إلا في المساء، بسبب جلسة ضرورية لا يمكننا التغيب عنها. ظننت أن يومي انتهى، وأن الراحة تنتظرني في غرفتي.

لكن الهدوء الذي كنت أبحث عنه تبدد فجأة. دخلت أمي غرفتي تحمل صورة شاب بين يديها، ووضعتها أمامي قائلة: «انظري جيدًا.» كانت كلماتها أشبه بسكين اخترق سكون اللحظة. لم أفهم بدايةً، لكن شيئًا في داخلي انتفض. شعرت بالخديعة، بالغضب الذي لم أستطع كتمانه، فصرخت: «أهذا سبب زيارتها، هل هذه حيلة أخرى؟!» انفجرنا في شجار حاد، كأن بيننا جبالاً من الكلمات المكبوتة. دموعي انهمرت بغزارة، وأنا أحاول أن أستوعب كيف يمكن لخديعة أن ترتدي قناع البراءة بهذا الشكل.

وسط تلك العاصفة، لم أجد سوى خالتي يسرى، التي كانت طوق النجاة الممتد لي في بحر من الفوضى. كانت دائمًا هناك، تُزيل عن روحي أثقال الحياة. كلماتها الحانية كانت كضوء يُبدد عتمة قلبي. يسرى من لحظة معرفتي بها أعتبرتها خالتي؛ اليد التي كانت تمتد إلينا أنا وإخوتي كلما شعرنا بالخُذلان.

منذ طفولتي، كنت أبحث عن شعور الحنان الخالص الذي تمنحه الخالة. رغم أنني أملك اثنتين، إلا أن يسرى كانت هي التي عوضت كل فراغ. شعرت معها أن العائلة ليست مجرد صلة دم، بل دفء روح.

لا أعلم حينها لماذا لم أتقبل كلام أمي، ربما كان ذلك من كثرة الألم الذي يخيم على الروح، أو من شدة حيرتي بين الخيارين. بدأ الجميع إقناعي بأن هذا حاصل لا محالة، وعليّ أن أفكر طويلًا. ظلت أمي تبكي وتقول لي: «دعوت الله ليالي لا تُعد لكي تعود عافيتك بعد سنوات من المعاناة والبعد». وأنا، في تلك اللحظات، كنت أعيش بين الأمل واليأس، أترقب اللحظة التي أستطيع فيها أن أفرح بك، ولكن في الوقت نفسه كان الجميع قد حاصرني في نقطة واحدة؛ كيفما التفتُّ، رأيت نفسي خاسرة، كأن السحب التي تغطي السماء لا تنقشع أبدًا.

في تلك اللحظات العصيبة، كنت أحتاج إلى كلمة، إلى لمسة تُعيدني إلى الطريق. أشعر بأنني في صراع بين ما يريدونه لي وما أريده لنفسي. أبحث عن معنى الحياة بعيدًا عن قيودهم، عن حبٍ لا يشبه السلاسل، وعن حريةٍ لا تضيع بين الجدران.

لم أنم وأنا أدعو وأبكي، راجيةً من الله أن يكون ذلك العوض المنتظر، وإن لم يكن الشخص المناسب، فلا تتيسر الأمور. كنت أشعر بحمل الأيام يثقل صدري، وكلما اختنقت آمالي، كان الدعاء هو الوحيد الذي يمدني بالقوة. وفي فجر يوم جديد، جاءت أختي أريج لتطمئنني، وتذكرني بأن الله لن يخذلني بعد كل هذه المعاناة. قالت لي بصوتها الهادئ: «كل شيء سيكون على ما يرام، وثقي أن الله لا يترك عباده في محنتهم». كانت كلماتها بمثابة البلسم لروحي المتعبة، وكأنها رسالة من الله نفسه، يطمئن بها قلبي.

مرت الأيام، وكل يوم كان يمر يثبت لي أن الدعاء لا يضيع. وها أنا الآن، متزوجة من رجل لطالما دعوت الله أن يكون زوجي، يصلح ما في قلبي من خلل، ويملؤه بحب. لم أكن يوماً أبحث عن صورة معينة للشريك الذي أريده. ولكن الله رزقني بعوض لقلب أراد أن يفرح، وجاءني بما لم أكن أتوقعه. كان الرجل الذي أرسلته لي الأقدار إنسانًا يفيض قلبه بالرحمة، ويملك من الإيمان ما يطفئ لهيب جراحات الماضي.

ما إن التقيت به حتى شعرت أن كل خطوة في حياتي كانت تهيئني لهذا اللقاء، وكأن الله كان يعد لي هذا الفرج العظيم بعد صبر طويل. لم أكن أعرف أن الفرح يمكن أن يأتي من هذا الاتجاه، وأن العوض الذي طالما انتظرته سيأتي في صورة شخص يعيد ترتيب فوضى قلبي ويسكنه، دون أن يطلب مني شيئًا سوى أن أكون أنا.

اليوم، ومع مرور الأيام، أدركت تمامًا أن كل لحظة ألم مررت بها كانت بمثابة الدرس الذي جعلني أكثر استعدادًا لاستقبال هذا الفرح العظيم. أدركت أن الله يكتب لنا خيرًا لا نراه إلا بعد أن تكتمل الصورة. وأدركت أن الدعاء ليس فقط في لحظات الشدة، بل هو كل لحظة نعيش فيها على أمل أن يكون الله إلى جانبنا، يخط لنا طريقنا برحمة وحنان.

اليوم، أعيش حياة مليئة بالطمأنينة، حيث لا شيء يعكر صفو قلبي، ولا ينتهي شكري لله على فضله ورحمته. وعندما أنظر إلى زوجي، أدرك أن اختياري ليس بيدي، بل هو اختيار الله الذي لم يخيب ظني. نعم، كان اختيار الله لي خيراً، هو الأجمل من أيّ حلمٍ كنتُ قد رسمته.

نحن الشجاعات

نروي حكاياتنا

تُرفع أقلام النساء في هذا الكتاب معبّرة عن رحلة كل منهن وتجربتها بتحدياتها وقوتها وأحلامها وآمالها.

قدمت كل امراة في هذا الكتاب فعل مقاومتها على طريقتها، بلغتها، وبتفسيرها لما حدث معها.

في كل قصة وردت، نقرأ ما يعلّمنا الكثير عن النساء كحاملات للسلام، مساهمات -رغم أعبائهن التي لا تُحصر- ببناء مجتمعاتهنّ والحفاظ على نسيج المحبّة والأمل بتنوّعٍ وقبولٍ لكلّ ما هو مختلف، ويعلّمنا الكثير عمّا يمكن للنساء بناؤه والبناء عليه، وكيف يمكنهن -بطريقة لا يمكن تفسيرها من قبل غيرهن- من التقاط كلّ ما هو فرصة للمضي قُدماً بمحبّة، بأنفسهنّ ومع الآخرين والأخريات من حولهن.

في رحلة انتاج هذا الكتاب، اختبر الجميع تجربةً قيّمة، حملت في طيّاتها لمسة الشعور بالآخر وفهمه، واستثمار الفرص لتقديم الدعم، اختصرتها يسرى "لم أكن وحدي في هذا الطريق؛ كنت محاطةً بنساء يحملن قصصهن على أكتافهن، ويكافحن رغم أوجاعها"